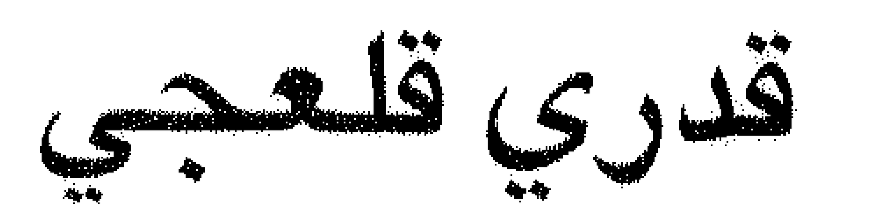
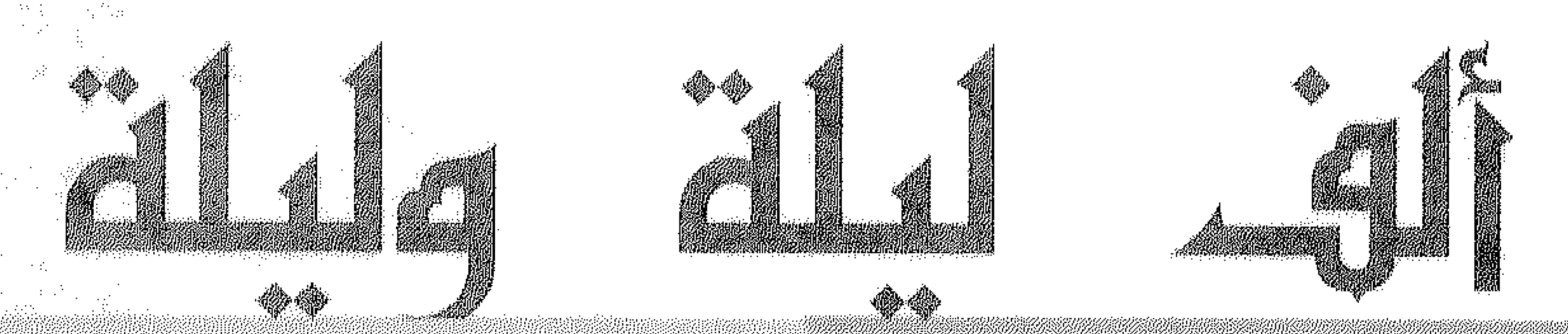


(١)



- مأساة ملك
- أنسيّ في مأوى الجن
- مارد في شبكة صياد
- الملك يونان والحكيم دوبان
- الحمّال والبنات الثلاث
- حسن البصري وسيدة الحسن



ألف ليلة وليلة
المجلد الأول

قدري قلعجي

قدري قلعجي

ألف ليلة وليلة

المجلد الأول



شركة المطبوعات
للتوزيع والنشر

بناية الوهاد ـ شارع جان ـ دارك
ص.ب. ٨٣٧٥
بيروت ـ لبنان

هاتف: ٣٤٤٢٣٦ - ٣٤٥٤٦٠ / ٢ - ٣٥٠٧٢١
فاكس: ٥٢٢١٠٧ - ٩ - ٣٥٧ / ٩٦١١-٦٠٢٠٢٩
تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٥ م

تصميم الغلاف: عباس مكي



المقدمة

تعد حكايات «ألف ليلة وليلة» من ابرز الآثار الأدبية العالمية، فهي الحياة بحلوها ومرها، بجمالها وقبحها، بصخبها وهدوئها، كما عاشها او تصورها المئات من ابناء الشعب المغمورين الذين اشتركوا في تاليفها وصياغتها خلال قرون متعددة وبلدان مختلفة.

وما كاد غالان يترجم حكايات«الف ليلة وليلة» من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية ويصدرها في اثني عشر مجلد(١٧١٤-١٧١٧) حتى شغف الغرب بقصصها الشعبية وما تمتاز به من الطرافة والابداع والخيال المجنح، فنقلت إلى جميع اللغات، وتفنن الناشرون في اخراجها فصدرت منها مئات الطبعات التي تتناسب مع جميع الاذواق والاعمار، وغدت من اشهر الكتب المتداولة بين الناس، فهي كما تشير الاحصاءات تأتي في اوروبا بعد الكتاب المقدس مباشرة من حيث الرواج وتعدد الطبعات.

وكان اثر«الف ليلة وليلة» في الفكر العالمي عميقاً وبعيداً قد لا يعد له اثر اي كتاب آخر، فقد الهمت العقول وحركت الاخيلة وكانت مصدراً للاقتباس الفني من كل لون، اذ اقتبس منها فنانو

الغرب القصص والروايات والمسرحيات والاوبرات، من غوته في المانيا إلى دانتي في ايطاليا إلى أدغار آلن بو في انكلترا، ومن لوب دى فيغا في اسبانيا إلى مارك توين في اميركا إلى ستندال في فرنسا الذي قال:«أن قصص الف ليلة وليلة تملأ ربع رأسي».

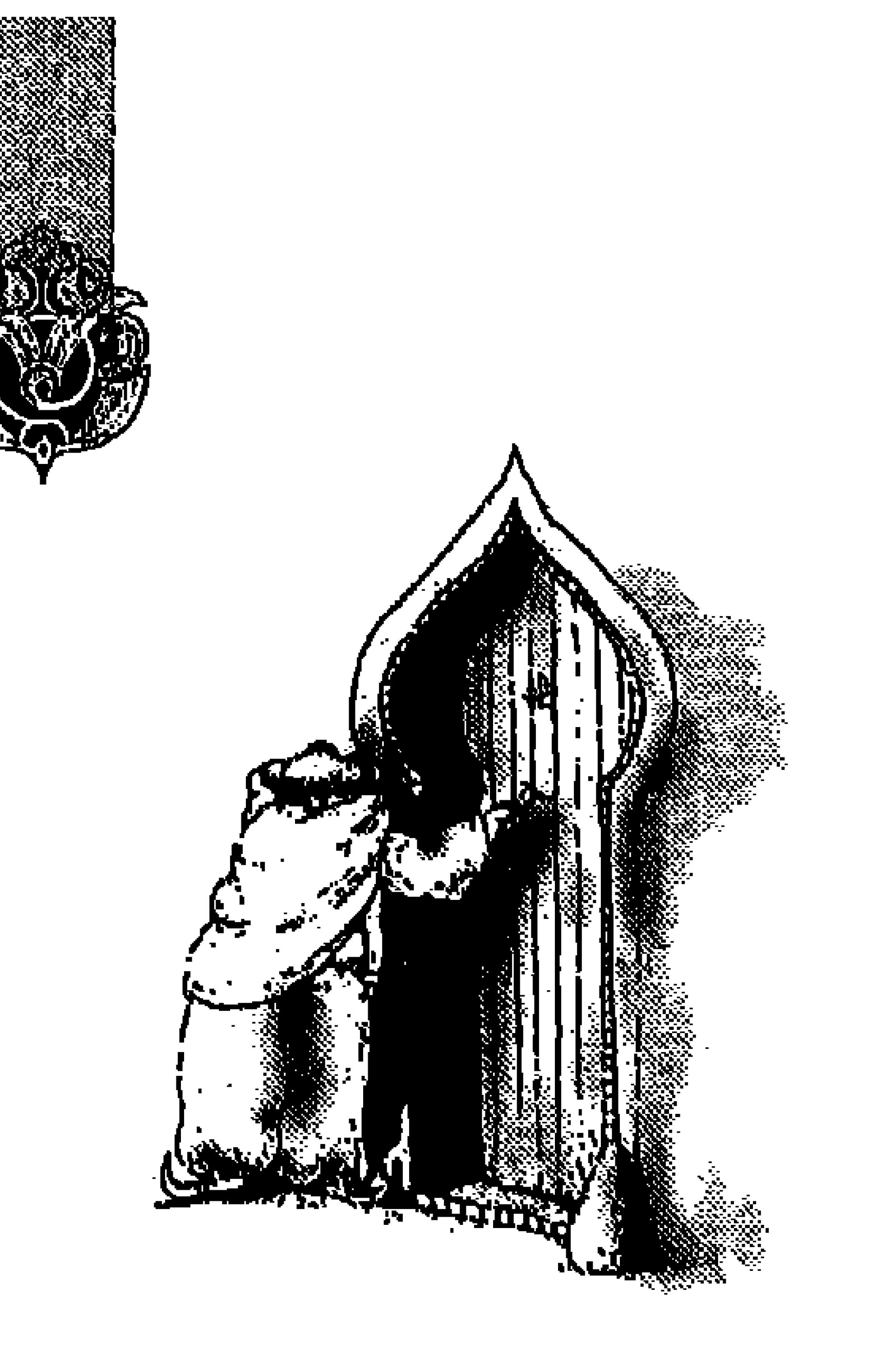
وفي حين لاقت حكايات«الف ليلة وليلة» ذلك الاهتمام الكبير في الغرب، لم تحظ في البلاد العربية، وهي من صوغ مخيلتها ونسج عبقريتها، الا بالاهمال والاغفال، لركاكة اسلوبها ورداءة طباعتها وما يكثر فيها من الاشارات الفاضحة والتعابير الفاحشة، مما حرم الاجيال العربية الحديثة من الاطلاع على احدى روائع ادبها الشعبي.

وقد رأت «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر» أن من أجل الخدمات التي تقدم للجيل العربي الطالع في مرحلة الاحياء والتجديد التي تجتازها الثقافة العربية في وقتنا الحاضر، أن تعمد إلى إعادة طبع هذا الكتاب الجليل طبعة مصورة انيقة، تنقح وتهذب وتُزَفّ إلى الشباب والطلاب وجماهير الشعب، باسلوب جديد، مع المحافظة على حكاياته القديمة وما يتماشى مع روح العصر من تعابيره وامثاله وقصائده الشعرية.

وكان قد قام بهذه المهمة اديب كبير عرف بخصب موهبته واشراق اسلوبه، وقدم لنا ذلك التراث الفذ تقديماً فنياً جديداً يمتع الكبار بقصصه المشوقة وتفيد الشبيبة منه ادباً رفيعاً وخيالاً محلقاً ومتعة رائعة، وبذلك اضحى هذا الكتاب المهمل كتاب العائلة كلها يقرأه افرادها ويستمتعون به على السواء.

الناشر





ألف ليلة وليلة

عكف المستشرقون على دراسة كتاب«الف ليلة وليلة» منذ اوائل القرن الثامن عشر، ونوهوا به، ونسخوه، وطبعوا منه طبعات عدة تختلف باختلاف المخطوطات التي اعتمدوا عليها.

واقدم طبعة لهذا الكتاب هي طبعة كلكتا، وقد طبعها الشيخ الشيرواني باشراف كلية فورت وليام سنة ١٨١٨ وهي ناقصة حوالى المائتي ليلة. وتليها طبعة برسلو وقد طبعها هابيشت سنة ١٨٢٤ وأتمها فليشر وهي كاملة. وثالثتها طبعة كلكتا الثانية وقد قام بها ماك ناتن سنة ١٨٣٢-١٨٤٢ معتمداً على مخطوطة عثر عليها الميجر ماكان في مصر وهي كاملة ايضاً. وعلى هذه الطبعة الثانية من طبعتي كلكتا اعتمدت مطبعة بولاق المصرية في طبعتها الشهيرة لكتاب الف ليلة وليلة التي صدر الجزء الاول منها سنة ١٨٣٥ وكانت اساساً لجميع الطبعات المصرية المتداولة اليوم، ولطبعة المطبعة الكاثوليكية في بيروت(١٨٨٨-١٨٩٠) التي اشرف عليها الاب انطون صالحاني فهذبها وحذف كثيراً من قصصها.

وإلى جانب هذه الطبعات توجد نسخ خطية متعددة في أكثر مكاتب اوروبة بعضها قديم والآخر حديث، وجميع النسخ القديمة ناقصة، ولعل اهمها مخطوط غالان في المكتبة الاهلية بباريس، ومخطوط المتحف البريطاني، ومخطوط الفاتيكان.

وترجمات«الف ليلة وليلة» إلى اللغات الاوروبية كثيرة، اولها ترجمة غالان الذي بدأ بنقلها إلى الفرنسية سنة١٧٠٤ وانتهى من ذلك سنة ١٧١٧، وقد ظلت هذه الترجمة الفرنسية طوال القرنين

الثامن عشر والتاسع عشر، تطبع طبعات متعددة منقحة ومزيدة، فشاعت واشتهرت في اوروبة كلها، وترجمت إلى أكثر لغاتها، ونسج الكثيرون في الكتابة على غرارها، حتى الّف بيتي دولاكروا كتاباً قصصياً سماه«الف يوم ويوم» وزعم أنه ترجمه عن اصل شرقي، ولكنه لم يستطع أن يبلغ فيه مستوى«الف ليلة وليلة» فلم يلاق ما لاقته هذه من رواج عظيم.

ثم تبين أن غالان لم يكن اميناً في النقل، ولم يعتمد على نصوص«الف ليلة وليلة» الكاملة، وقيل أنه نقل كثيراً من الاقاصيص عن عربي حلبي يدعى حنا كان يروي له بعض حكايات الكتاب، فيسجل ما يسمعه ثم يعيد كتابته من جديد. فشرع المستشرقون يبحثون عن اصول«الف ليلة وليلة» وتبارى المترجمون في نقلها عن نصوصها العربية، فصدرت عدة ترجمات جديدة، اشهرها الترجمة الروسية التي قام بها ساله ونشرها كرانشقوفسكي، والترجمة الالمانية التي قام بها المستشرق ليمان، والترجمة الانكليزية التي قام بها المستشرق برين، والترجمة الفرنسية التي قام بها الدكتور ماردروس.

اما اصل «الف ليلة وليلة» فلم يكن من السهل معرفته والجزم به، لأن هذا الكتاب لم يعالج موضوعاً بعينه يسهل البحث عن مصدره والتحري عن مؤلفه، بل تضمن حكايات تختلف موضوعاتها وعصورها ومواقعها، ولا يكاد يربط بينها غير الخيال الخصب والفن الشعبي البارزين فيها، واللذين يتفاوتان هما ايضاً بين قصة وأخرى.

ومن ثم استغرق هذا البحث وقتاً طويلاً، وبذلت فيه جهود عديدة تساهم اعباءها طائفة من المستشرقين في طليعتهم فون هامر النمسوي الذى نفى في مقال نشره بالمجلة الآسيوية في نيسان - ابريل ١٨٢٧، أن تكون قصص الكتاب هندية او عربية، وذهب إلى انها فارسية الاصل وقد ترجمت إلى العربية في عهد المنصور اي في القرن الثامن الميلادي.

وقد اعتمد فون هامر في رأيه هذا على نص عثر عليه في كتاب«مروج الذهب» للمسعودي جاء فيه : في معرض حديثه عن بعض الخرافات :«...وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا

والمترجمة من الفارسية والهندية والرومية كتاب وسبيل تأليفها مما ذكرنا مثل كتاب«هزار افسانه» وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية«الف خرافة. والخرافة بالفارسية يقال لها اخسانه. والناس يسمون هذا الكتاب«الف ليلة وليلة» وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرازاد ودنيازاد».

ثم قسم فون هامر الكتاب في مقدمة الترجمة الفرنسية التي قام بها تريبوتيان سنة ١٨٢٨ إلى ثلاثة اقسام: قسم الخرافات والخوارق الموضوعة للتسلية وهي منقولة عن الهند او فارس وكانت شائعة في بلاد العرب قبل الاسلام، والحكم والمواعظ الموضوعة للعبرة وهي منقولة عن الهند، وقسم الحكايات العربية ويرجع زمنه إلى عصر الخلفاء العباسيين، وقسم حديث اضيف في مصر وهو يصور الحياة الاجتماعية فيها.

وقد ناقش المستشرقون رأي فون هامر ومؤيديه، وكان في طليعة معارضي هذا الرأي البارون سيلفستر دوساسي الذي انكر في المجلة الآسيوية سنة ١٨٣٦ وفي مقدمة احدى طبعات ترجمة غالان، أن تكون الليالي فارسية الاصل او هندية المصدر، وشك في نص المسعدوي، واعتقد بأن هذ النص لا بد من أن يكون مدسوساً او محرفاً، وتساءل عن الاصل الهندي او الفارسي، قائلاً: كيف لم يبق للكتاب اثر في لغته الاصلية؟وإذا كان الكتاب قد ترجم إلى العربية في اعظم عصور ازدهارها، فلماذا لم يقبل على ترجمته الادباء الذين اشتهروا بالترجمة، ولماذا لم يترجم بلغة الادب الرفيع وانما ترجم بلغة عامية ركيكة؟ ولئن كان هذا الكتاب قد ترجم كاملاً في ذلك الحين، فلماذا حذفت منه اكثر قصصه لتضاف إليه حكايات جديدة لا يشك احد في انها حكايات عربية مع أن بعض هذه الحكايات ليس في مستوى الكتاب؟!

ويعجب البارون دو ساسي من ان تعطى اهمية كبرى لاشارات عابرة في الكتاب تذكر بهندستان وجزيرة سيلان او جزر الارخبيل الهندي، ولا تعطى اهمية ما للروح الدينية البارزة في الكتاب كله وهي روح الاسلام، وللعادات والانظمة والاخلاق والتقاليد التي تسود قصصه جميعاً، ولا تختلف عما عرفت بغداد والقاهرة ودمشق من نظم وعادات،

فيقال أن الاصول الهندية القليلة الباقية فيه قد بقيت برغم تصرف المترجم، وأن الاصول الاسلامية والعربية الطاغية عليه انما اضافها المترجم إلى النص الاصيل.

ويخلص دوساسي إلى الاعتقاد بأن كتاب«الف ليلة وليلة» عربي الاصل للاسباب التالية:

١ـ أن جميع او معظم ابطال الكتاب مسلمون.

٢ـ أن مسرح حوادثه اكثر الاحيان ضفاف دجلة والفرات والنيل.

٣ـ أن ما فيه من إشارة إلى العلم والسحر قد مارسه العرب.

٤ـ أن الجن التي يرد ذكرها فيه وليدة الاساطير العربية، وعليها طابع الاسلام وهي ترتجف دائماً من اسم سليمان الحكيم كما جاء في الاقاصيص العربية.

٥ـ أن الاديان التي ذكرت فيه هي الاسلام والمسيحية واليهودية والمجوسية فقط، وهو يتضمن احاديث شتى عن موسى وداود واصناف الذين كانوا مجهولين تماماً من حكماء الهند وفارس قبل دخول الاسلام إلى هذين البلدين.

ويتحدى البارون كل من يستطيع أن يأتي بعشرة مقاطع من الكتاب لا يمكن أن تنسب إلى الهند وفارس كما كانتا قبل الاسلام.

اما ما يتضمنه الكتاب من إشارات كثيرة إلى الهند والصين او البقاع الواردة فيما وراء نهر جيحون، وهي الاشارات التي يستند إليها بعض الباحثين في نسبة الكتاب إلى الهند او فارس، فإن البارون دوساسي يرى فيها، هي نفسها دليلاً على أن المؤلف لم يكن هندياً او فارسياً او صينياً. إذ من الواضح في رأيه أن المؤلف لم يدخل بعض الاسماء الفارسية إلى كتابه، ولم يتحدث عن بعض ملوك الفرس او التتار، ولم يجعل من الصين وسمرقند مسرحاً لبعض اقاصيصه، إلا للخروج بالقراء او بالمستمعين من نطاق البلد الذي يعيشون فيه ويعرفونه جيد المعرفة، لينقلهم إلى عوالم مجهولة وآفاق جديدة وليتمتع بقسط اوفر من الحرية في الابتكار والابداع واطلاق العنان لخياله كما يشاء.

ولكن فون هامر ما لبث حتى عزز رأيه بنص عربي آخر هو النص الوارد في كتاب«الفهرست»لابن النديم، ويقول فيه:

«اول من صنّف الخرافات، وجعل لها كتاباً، واودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان، الفرس الاول. ثم اغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس. ثم زاد ذلك واتسع في ايام الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء وهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه. فاول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب«هزار افسان» ومعناه الف خرافة. وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها في الغد. فتزوج بجارية من اولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد. فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ومساءلتها إلى الليلة الثانية لاتمام الحديث، إلى أن اتى عليها الف ليلة.. فلما رزقت منه ولداً اظهرته واوقفته على حيلتها عليه. فاستعقلها، ومال إليها واستبقاها. وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيازاد، فكانت موافقة لها على ذلك. وقد قيل أن هذا الكتاب الّف لحمالي بنت بهمن. قال ابن النديم: والصحيح أن شاء الله أن اول من سمر بالليل الاسكندر، وكان له قوم يضحكونه و يخرفونه لا يريد بذلك اللذة وإنما كان يريد الحفظ والحرس. واستعمل لذلك بعده الملوك كتاب هزار ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لأن السمر ربما حدّث به في عدة ليال. وقد رأيته بتمامه دفعات وهو بالحقيقة غث بارد الحديث».

وقد شاع من ثم أن كتاب «الف ليلة وليلة» هو الترجمة العربية لكتاب «هزار افسان» الذي ذكره المسعودي وابن النديم، بعد أن اضيفت إليها تحريفات وزيادات شتى خلال العصور. ولكن المستشرق الانكليزي وليم لين اعترض على ذلك، وذهب إلى أن مؤلف «الف ليلة وليلة» هو رجل واحد، اولاً لأنه يصف وضعاً اجتماعياً واحداً متشابهاً تماماً، وثانياً لأنه برغم الاختلاف في النسخ الموجودة منه يتشابه في اصوله العامة وفي اكثر قصصه، مما يدل على أن اصله واحد.

ويرجح لين الذي ترجم قسماً من الف ليلة وليلة، أن الصورة الاخيرة لهذا الكتاب قد وضعت في اواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر، وهو يميل إلى الاعتقاد بأن مصر

هي الموطن الذي وضعت فيه، في هذه الصورة الاخيرة، لان الوضع الاجتماعي السائد في الكتاب يشابه وضع مصر في تلك الايام، وينكر قول البارون دو ساسي بأن الكاتب سوري وهو رأي اخذه البارون من جملة وجدها مكتوبة بالفارسية على هامش نسخة كلكتا الثانية بخط الناسخ الشيخ القيرواني، قال فيها أن مؤلف الكتاب سوري الاصل وقد وضعه بغية تيسير تعليم اللغة العربية.

الا أن المستشرق الانكليزي برتن قد نوه بعد ذلك بنص من كتاب «نفح الطيب» جاء فيه أن ابن سعيد الغرناطي المتوفي سنة ٦٨٥هـ يذكر في كتابه المحلى بالاشعار عن القرطبي، وقيل عن الكركي، في صدد الكلام على بناء الهودج في بستان القاهرة والبدوية الذي بناه لها الآمر باحكام الله، أن القصص الشعبية حول هذه البدوية وحول ابن مية من ابناء عمومتها، اصبحت مثل قصص «البطال» والف ليلة وليلة» وما شابهها. واستدل برتن من ذلك على أن «الف ليلة وليلة» كانت معروفة في القرن الثاني عشر للميلاد، وخلص إلى القول بأن هذا الكتاب مأخوذ عن الهزار افسان، وأن اقدم قصصه مثل السندباد والوزراء السبع وجلعاد، يمكن أرجاعها إلى عصر المنصور، وقصصه المثبتة في جميع النسخ ترجع إلى القرن العاشر الميلادي، اي بعد ذلك بقرنين، وقد اتخذ شكله الحالي من القرن الثالث عشر ثم اضيفت إليه حوالى القرن السادس عشر القصص الواردة في نسخ دون اخرى. وهو يرى أنه ليس لهذا الكتاب مؤلف واحد بل مؤلفون عديدون، وقد اشترك اكثر النساخ في تأليفه.

واستناداً إلى نص القرطبي المشار إليه، ذهب المستشرق الالماني ليتمان، إلى أن كتاب «الف ليلة وليلة» قد عرف في مصر حوالى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، ثم اخذ ينمو بما يضاف إليه حتى أضحى بالصورة التي نعرفها اليوم.

وكان المستشرق الاميركي ماكدونالد قد اثبت في ملحق دائرة المعارف الاسلامية رأياً له قال فيه أن هذا الكتاب قد مر في اطوار عديدة وهي:

١- الاصل الفارسي وهو الهزار افسان.

٢- الترجمة العربية لهذا الاصل الفارسي.

٣ـ صورة من هذا الكتاب كانت مقدمته وهي قصة شهريار وشهرزاد مأخوذة من الاصل الفارسي، والقصص الاخرى التي فيه عربية ولكنها قصص تافهة لا قيمة لها.

٤ـ نسخة مزيدة لا تختلف عن النسخة الثالثة كثيراً وضعت في مصر خلال القرن الثاني عشر الميلادي في اواخر عهد الفاطميين.

٥ـ الصورة التي نجدها في نسخة غالان وهي لا تختلف عن النسخة المصرية والنسخ المتداولة في شيء كثير.

وقد ناقش ليتمان رأي مكدونالد وانكر تقسيمه الذي وضعه بتكلف ظاهر ليطابق بين النصوص العربية المختلفة، فزعم مثلاً أن بعض قصص النصخة الثالثة كانت تافهة لا قيمة لها ليوافق ابن النديم أنها غثة باردة الحديث، وقال المستشرق الالماني أنه يميل إلى الاعتقاد بأن الهزار افسان لم يترجم إلى العربية قط، وأن كل ما ترجم منه هو مقدمة «الف لية وليلة» وأما قصص هذا الكتاب فهي قصص عربية ذات صيغة اسلامية واضحة، وأن كان بعضها مستمد من الفارسية او الهندية.

بيد أن ليتمان يبادر إلى القول بأننا ما دمنا لم نقع على نسخة عربية قديمة لكتاب«الف ليلة وليلة»او نسخة لكتاب هزار افسان، فلا نستطيع أن نقطع بأمر هذا الموضوع، وكل ما نستطيع تأكيده هو أن كتاب«الف ليلة وليلة» قسمان. بغدادي ومصري، يتضمن الاول ما شاع في بلاد العرب ايام العباسيين وقبلها من حكايات الهند وفارس، ويحتوي الثاني حكايات مستوحاة من البيئتين السورية والمصرية في ايام المماليك والاتراك، وقد كانت هاتان البيئتان متشابهتين كثيراً في ذلك العهد، ولكننا لا نعرف بالضبط او على وجه التقريب، التاريخ الذي دخلت فيه النسخة البغدادية إلى مصر وحورت هذا التحوير.

ثم يحاول ليتمان اعادة بعض القصص إلى مصادرها، معتمداً على ابحاث هوروفتز ونولدكه وشوفان وشبيجلبرغ، فينسب قسماً منها إلى اصول بابلية، وقسماً ثانياً إلى اصول هندية او فارسية وقسماً آخر إلى اصول عربية ولكنه لا يجزم بشيء من ذلك.

وثمة بحث للمستشرق الدنماركي

اويستروب في دائرة المعارف الاسلامية يرجح فيه أن قصص «الف ليلة وليلة» ليست لمؤلف واحد، لما في نسخ هذا الكتاب من اختلاف وتكرار في بعض الاحيان، ثم يحاول ارجاع بعض هذه القصص إلى اصول هندية او فارسية بحجة أنها لا تتلاءم مع الطبيعة العربية او الطبيعة الاسلامية، وينتهي إلى القول بأن هذا الكتاب قد ترجم في الاصل عن الهزار افسان في القرن الثامن الميلادي، ثم تكونت منه في اوائل القرن العاشر او الحادي عشر مجموعة بغدادية محرفة ومزيدة، وأن الصورة الاخيرة له، وهي الصورة المصرية، قد تكونت في اوائل دولة المماليك بعد عهد صلاح الدين وحروبه مع الصلبيين، مستنتجاً ذلك من كون الخصومة الدينية التي ينطوي عليها اقسم البغدادي انما تقوم بين المسلمين وعبدة النار، بينما هي في القسم المصري تقع بين المسلمين والمسيحيين.

ولماكدونالد بحث آخر نشره في عدد تموز - يوليه سنة ١٩٢٤ من مجلة الجمعية الاميرية الملكية، قال فيه بعد مناقشة جميع الآراء السابقة - أن «الف ليلة وليلة» قد مرت في ثلاثة اطوار:

١- طور الفلكلور المحض وكانت فيه مجرد حكايات تدور على السنة العامة.

٢- الطور الذي سجلت فيه هذه الحكايات بواسطة كتاب ادخلوا عليها بعض التزويق.

٣- الطور الذي انتهت إليه في النسخ التي نعرفها اليوم.

وبينما كان المستشرقون منصرفين إلى البحث عن اصول كتّاب «الف ليلة وليلة» والتحقيق عن مصادره الاولى، كان الادباء والفنانون الغربيون منصرفين إلى قراءته والافادة منه، وكان القراء من جميع الطبقات يقبلون على مطالعته والاستمتاع به، حتى طبع في فرنسة وانكلترة اكثر من ثلاثين مرة خلال القرن الثامن عشر وحده، ونشر منذ ذلك الحين حتى الآن مئات المرات في جميع لغات اوروبة.

وقد ترك هذا الكتاب العربي اثره العميق في الحياة الاوروبية والفكر الاوروبي، حتى صرح فولتير بأنه لم يؤلف قصصه الا بعد أن طالع كتاب «الف ليلة وليلة» اربع عشرة مرة، وتمنى

ستاندال لو يستطيع نسيان ما احتواه هذا الكتاب ليستمتع بقراءته من جديد.

والواقع أن الادباء الاوروبيين قد انتفعوا بهذا الكتاب كثيراً فاستمدوا منه موضوعات جديدة، واقبلوا على الادب الشرقي يقرأونه ويترجمونه، وأخذوا يرحلون إلى الشرق بدافع الشوق والفضول اللذين اثارتهما فيهم حكايات«الف ليلة وليلة» وعمدوا إلى استثماره في تربية الاطفال وتثقيف خيالهم فاستخرجوا منه القصص الشائقة الجميلة، حتى اضحت حكايات علاء الدين والسندباد البحري والاميرة الصغيرة، ومعروف الاسكافي جزءاً من حياة الاطفال الاوروبيين والاميركيين وثقافتهم الاولى.

لقد اثر كتاب«الف ليلة وليلة» في الرواية والمسرح والرسم والموسيقى، وشاع بعد صدوره فن الرحلات في الآداب الاوروبية، ودخلت على هذه الآداب قصص الحيوان والجن، وبرزت بروزاً ظاهراً في مؤلفات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وغدت شخصية شهرزاد شخصية عالمية الهمت كثيراً من المؤلفات الادبية الرفيعة.

ومن القصاصين الذين تأثروا بهذا الكتاب، هاملتون وكريبيون وديدرو وبيير لويس وغوتييه وادغاربو ودورينيه وبيكفورد، فقد وضعوا جميعاً قصصاً وقصائد مستمدة من الليالي او متأثرة بها. ومن الادباء الذين اثرت فيهم رحلات سندباد فنسجوا على غرارها الكاتب الانكليزي سويفت والكاتب الفرنسي جول فيرن. ومن الكتاب المسرحيين الذين وضعوا المسرحيات المقتبسة من هذا الكتاب لوسانج وفرن وبومارشيه. ومن المؤلفين الموسيقيين الذين وضعوا الاوبرات والسمفونيات المستمدة من روح الليالي روسيني وموزار. اما فن الرسم فقد استمد من هذا الكتاب الفذ أجواء جديدة لموضوعات عديدة كالحريم والرقيق وبذخ الخلفاء في قصورهم الفخمة.. حتى فنّ الرقص تأثر بالف ليلة وليلة، فنشأ الباليه المعروف باسم «شهرزاد» وهو لون طريف من الرقص يقصّ بحركات الجسم قصة شائعة!

لقد عرفنا مجمل الآراء، وليس كل الآراء، في اصل كتاب«الف ليلة وليلة»، وهي اراء أن دلت على شيء، فعلى

صعوبة الجزم في هذا الموضوع، لأن كل ما يمكن الاعتماد عليه لاصدار مثل هذا الحكم، اشارات غامضة لا توفر دليلاً علمياً قاطعاً.

وقد رأينا أن اقدم نسخة عثر عليها من كتاب«الف ليلة وليلة» هي نسخة غالان التي ترجع إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري، فإن لم نعثر على نسخة اقدم منها، وعلى نسخة من كتاب هزار افسان، ظل كل رأي فيه كما قال المستشرق لبتمان، ضرباً من التكهن لا يمكن الركون إليه والوصول منه إلى حقيقة ثابتة في هذا الموضوع.

هنالك امر واحد يمكن الجزم به، هو أن مقدمة«الف ليلة وليلة»، او حكاية الملك شهريار وابنة وزيره التي تدعى شهرزاد، كانت معروفة في بغداد خلال القرن الثامن الميلادي، او مترجمة عن كتاب هزار افسان، فهل في وسعنا القول أن هذه القصة وحدها هي الباقية من ذلك الاصل الفارسي ، أن كان لذلك الاصل وجود؟..

ويجب أن لا ننسى أن الكتاب مجموعة قصص شعبية تناقلها الرواة ولهجت بها الالسن من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ومن ذاكرة شعبية إلى ذاكرة شعبية، بحيث لا يمكن أن يبقى بشكله الاول.

فسواء اصحّ أن فكرة هذا الكتاب او قسماً منه قد اقتبس عن الفارسية او نقل عنها، او لم يصح ذلك، ففي اعتقادنا أنه كتاب عربي يحمل روح الطبقات الشعبية في البلدان العربية، ويعرب عن آمالها وأحلامها ويعكس خيالها الرفيع الخصب. لانه قد عايشها مئات طويلة من السنين، فأثر فيها وأثرت فيه، وافرغت فيه روحها كما افرغ فيها روحه، حتى لم يبق للاصول الفارسية او الهندية القديمة من اثر قائم بذاته يحمل ميسم الشخصية الفارسية او الطابع الهندي، انما قد انصهر في الروح العربية وشخصية الشعوب العربية فغدا جزءاً منها ولا يصح أن ينسب لغيرها.

وإذا سلمنا بأن قصة شهرزاد وشهرايار، وقصصاً فارسية اخرى، كانت نواة لالف ليلة وليلة القرن الثامن للميلاد، ففي وسعنا أن نتصور سيرة هذا الكتاب منذ ذلك الحين حتى القرن الرابع عشر، وكيف انتقلت حكاياته خلال ذلك العهد الطويل من فم إلى فم، ومن جيل إلى

جيل، ومن بغداد إلى الشام ومن الشام إلى مصر، ومن هذه البلاد العربية مرة أخرى...

وفي وسعنا أن نتخيل ما ادخله عليها وجدده فيها وإضافة كل ناسخ او كل رواية، في كل جيل وكل قرن وكل مدينة، مسايرة لذوق البيئة وروح العصر، حتى انتهى إلى الصور الاخيرة التي عرفناها عنه في النسخ الموجودة منه، وهي نسخ يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً.

ومن المؤكد أن الكتاب لم يكن مقسماً في اصله إلى الف ليلة، ولكن اسمه قد اضطر القصاصين إلى تقسيمه إلى ليال تبلغ ذلك الرقم، مما ادى بهم إلى أن يضيفوا إليه الغث والسمين من القصص التي سمعوها او الفوها، سواء كان مصدرها الشعوب العربية او الشعوب الاخرى التي لابستها واتصلت بها اثناء ازدهار حضارتها.

وفي الفلكلور تتلاشى الحدود الجغرافية حتى لنجد القصة الواحدة في آثار امم متعددة ولا نستطيع أن ننسبها إلى واحدة منها بمفردها إلا إذا كان الطابع القومي بارزاً بروزاً قوياً، وواضح أن الطابع القومي لا تقرره اسماء الاشخاص او اسماء المواقع، إذ ما اسهل استعارة هذه الاسماء وتبنيها، وكثيراً ما تطلق الاسماء الغريبة والبعيدة على اشخاص القصة ومواقعها لجمالها او موسيقاها، او لاحاطتها بجو من الغموض الفني المشوق.

ومن طبيعة الحكايات الشعبية انها تنمو مع الزمان، وتتكيف بالبيئات الجديدة، وتتطور بتطور الشعوب، يساعد على ذلك انتقالها من جيل إلى آخر بالسماع وليس بوساطة كتب مسجلة شائعة، لان للقصّاص الذي يرويها والذي يملك في اغلب الاحيان نسخة مكتوبة، كل الحرية في أن يحّور فيها ويضيف إليها ما يشاء، محاولاً تلبية مطالب الجمهور وانتزاع اعجابه بالقصص التي تلائم ذوقه وتوافق رغباته، وربما تلا عليه الحكاية مرة ثم اعاد تحويرها من جديد بعد أن عرف في المرة الاولى المواقف التي اثارت حماسة المستمعين والمواقف التي قابلوها بفتور.. بحيث نستطيع القول أن هذا اللون من الادب هو من عمل الجماعة ووحيها المباشر لا صنيع فرد او افراد معدودين.

فالنساخ او القصاصون الذين

تناولوا كتاب «الف ليلة وليلة» بالتهذيب والتحوير، واضافوا إليه ما اضافوا من قصص الامم التي لابسها العرب، واتصلوا بها سواء عن طريق الفتح او عن طريق التجارة والرحلات، لم ينسوا جمهور الشعب. ابداً، وإنما صنعوا ذلك بوحيه ووفقاً لذوقه، فظلت حكاياته حية متطورة مئات السنين، تستمد مادتها من حياة الشعوب العربية، ومن آمالها وأحلامها، ومن ذوقها وخيالها الخصب.

ولكن من المحقق أن هؤلاء الناسخين والقصاصين، قد تهيبوا الطبقات الحاكمة فلم يعبروا عن كل ما يجيش في اعماق الشعب من الآم ومطامح وامسكوا عن معالجة همومه السياسية الاجتماعية، فكانت الحياة الشخصية والمشكلات الفردية اكثر ما ينصرف همّهم إليه.

وهكذا جاء كتاب «الف ليلة وليلة» لوحة رائعة للحياة العامة في العواصم العربية ولاسيما بغداد والقاهرة ودمشق، فيها الوان شتى من حياة الناس اليومية في مجالسهم واسواقهم ودورهم ومساهرهم وملاهيهم، وفيها صور رائعة من احلامهم ومطامحهم بنوع خاص.

ذلك أن جماهير الشعب انما تنشد الراحة والطمأنينة والعدل والغنى، وهي إذ يعجزها الوصول إلى ما تطمح إليه، تحلم ببلوغه بوساطة الخوارق والمعجزات، على ايدي الملائكة والجن والسحرة والوحوش والحيتان. فتضع عنها الاقاصيص التي توهم بأنها قريبة منها تعاشرها وكأنها من افرادها، وتتدخل في حياتها تدخلاً قوياً، فتقتص من الاشرار والطغاة، وتنقذ المحرومين والمعذبين، وتشفي المرضى وتهدي الضالين، وتقرب العاشقينِ ممن يحبون، وقد يكون لها في بعض الاحيان اثر مكروه وعبث ظالم، ولكن سرعان ما يزول ذلك ويحل محله النفع الشامل وينتصر الخير الاعزل بنوازعه الطيبة ودوافعه الانسانية على الشر المسلح بالطغيان والجبروت.

فالخوارق هي السبيل الساذج الذي يفضي بجماهير الشعب إلى عالم الاحلام ودنيا الكنوز...

والكنوز هي السلم الذي يرفع العامة إلى مستوى التجار والملوك فقصص «الف ليلة وليلة» لا ترى من تفاوت بين الناس، باستثناء ما يتفاوتون به من علم

وخلق، الا في المال.. هذا تاجر يكون امير السوق فيخسر امواله فيغدو صعلوكاً حقيراً وهذا صعلوك يسافر ويعود بثروة عظيمة تضعه في اعلى مقام.. حتى الملوك انفسهم، ليسوا في«الف ليلة وليلة» الا اناساً يملكون مالاً وفيراً. ومن هنا كان كثير من ابطال هذه القصص الشعبية، الذين نشأوا من طبقات المجتمع السفلي، يتقربون من الملوك ويتزوجون من بناتهم متى اصبح لديهم المال الوفير، ومن هنا ايضاً كانت للمال، وللخوارق التي توصل إليه، تلك الاهمية العظمى.

.. وتعددت الاحلام.. فهذا خاتم سليمان يجند الجن لخدمته يأمرها فتطيع وتأتيه بما يشاء.. وهذا بساط الريح يعتلي به اجنحة الغيوم، ويرتقي مسابح النجوم وهذه طاقية الاخفاء تخفيه عن الانظار فيدخل حيث يبتغي ويصنع ما يحلو له أن يصنع.. وهذه عجائب السحر التي تبدّل الاحوال وتعصم من الاهوال!

وإلى جانب هذه السذاجة البريئة، وهذا التعلل العذب بالاحلام، تزخر القصص الشعبية عامة وقصص«الف ليلة وليلة» خاصة، بالفضائل الانسانية التي تنبع من نزعة الخير التي تجيش في اعماق الشعب، فتجري فيها الاحداث كما تريد لها روح الشعب أن تجري في مناهج الصلاح. أنها تتعقد وتتشابك، وتنال اصحابها بالاذى الشديد وتنشر القلق العاصف في النفوس، ولكنها لا تلبث حتى تنجلي وتصفو، فينتصر الحق وينددحر الباطل، ويجزى كل امرىء بما كسبت يداه.. وأن القاص ليتعسف من اجل ذلك تعسفاً ويقحم الامور اقحاماً، كي ينتهي إلى هذه النتيجة التي لا بد منها، تجاوباً مع الشعب وإرضاء لنزعة الخير الاصيلة في نفسه. في قصص «الف ليلة وليلة» تتجلى فضائل الشعب، من كرم ورحمة، وعدل وتضحية، وتعاون ووفاء وصدق واخاء، وعرفان بالجميل ومجازاة المحسن بحسناته والمسيء بما اساء.

اما الاحداث والاسماء والمواقع التاريخية والجغرافية التي يفترض عند التعرض لها الالتزام بجوهر ما تمثله فهي محرفة في «الف ليلة وليلة» تحريفاً كبيراً فالشعب يكتب التاريخ في قصصه الشعبية بطريقته الخاصة، كما يريده هو او كما يتصوره من بعيد، فهو يحفظ مثلاً اسما يعتقد في صاحبه البطولة والفضيلة، فينسج حوله ما يحلو له من

اساطير، او ينسب إليه مآثر غيره من الابطال، كأسم هارون الرشيد الذي بات لديه رمزاً للعصر الذهبي السعيد.

وكذلك شأن البلدان فليست تذكر مدينة عربية إلا وهي في الاغلب مدينة بغداد، او مدينة للمسيحيين إلاّ وهي القسطنطينية، واما المدينة الفارسية المفضلة فهي خراسان. وقلّما تذكر بغداد إلاّ وهرون الرشيد هو الخليفة الحاكم فيها، وإن كانت الحادثة التي تروى قد وقعت قبل عهد هذا الملك بكثير او بعده بكثير.. وكذلك قلّ أن تذكر دمشق الا وعبد الملك بن مروان هو امير المؤمنين الخ...!

ويقودنا هذا إلى الاشارة إلى بعض عيوب الكتاب، فالوصف مثلاً اضعف النواحي الفنية فيه، لأن القصاص كثيراً ما يردد عبارات بعينها ونعوتاً متشابهة في وصف الاشخاص والبلدان والمناظر والمواقف المؤثرة من حب وبغض وفراق ولقاء...

وكذلك لم يكن التحوير الذي ادخله القصاص على حكايات الكتاب لمصلحة هذه الحكايات دائماً، بل كثيراً ما أضرّ بها وأساء إليها من الناحية الفنية، بما يلجأ إليه من استطراد، وبما يدخل من قصص جديدة لا تنسجم وروح الكتاب، وبما يحشد فيها من مواقف متكلفة تبلغ احياناً حداً كبيراً من الركاكة والفحش والاسراف في الاغراب.

وقد زين بعض القصاصين حكاياتهم بقصائد من الشعر، فوفقوا احياناً في وضع الشعر الجيد الذي حفظوه لبعض الشعراء المجيدين في مواقف مناسبة، ولم ليقفوا احياناً في ايجاد هذه المواقف فاخترعوها اختراعاً لاقحام هذا الشعر، او ادخلوه بتكلف ظاهر في غير مناسبة مؤاتية إلا انهم لم يوفقوا عند هذا الحد وإنما حرفوا بعض الشعر الجيد فاساءوا إليه، او عمدوا بأنفسهم إلى نظم القصائد الركيكة.

وفي «الف ليلة وليلة» ظاهرة لاحسب أن هنالك مثيلاً لها في كتاب آخر، هي تمجيد القصة تمجيداً عظيماً.. فجميع ابطال الكتاب من انس وجن، وملوك وسوقة، ونساء ورجال، يحبون القصص اعظم الحب، ويحبون سماعها دائماً، ويصغون إليها في كل المواقف ويكافئون عليها احسن المكافأة.. وما اكثر الاشخاص الذين ينجون في هذا



الكتاب من الموت بقصة طريفة!

وثمة ملاحظة اخيرة نسوقها قبل أن ندع لالف ليلة وليلة مجال الحديث عن نفسها، هي أن اثر الادب العربي فيها ضعيف جداً يقتصر على قليل من المواعظ والطرف ونوادر الاخبار، فكأنها قد تنكرت له مثلما تنكر لها ولم تأبه له كما لم يأبه لها، وكأن الشعب كان يحيا في

عالم بعيد جداً عن عالم الادب الرسمي الذي عاش في قصور الملوك والامراء مترفعاً عن دنيا الناس آكلي الخبز كما يقول ايزود.

قدري قلعجي



مراجع هذا البحث:

١ـ سهير القلماوي في كتابها «الف ليلة وليلة».

٢ـ اويستروب وماكدونالد في«دائرة المعارف الاسلامية».

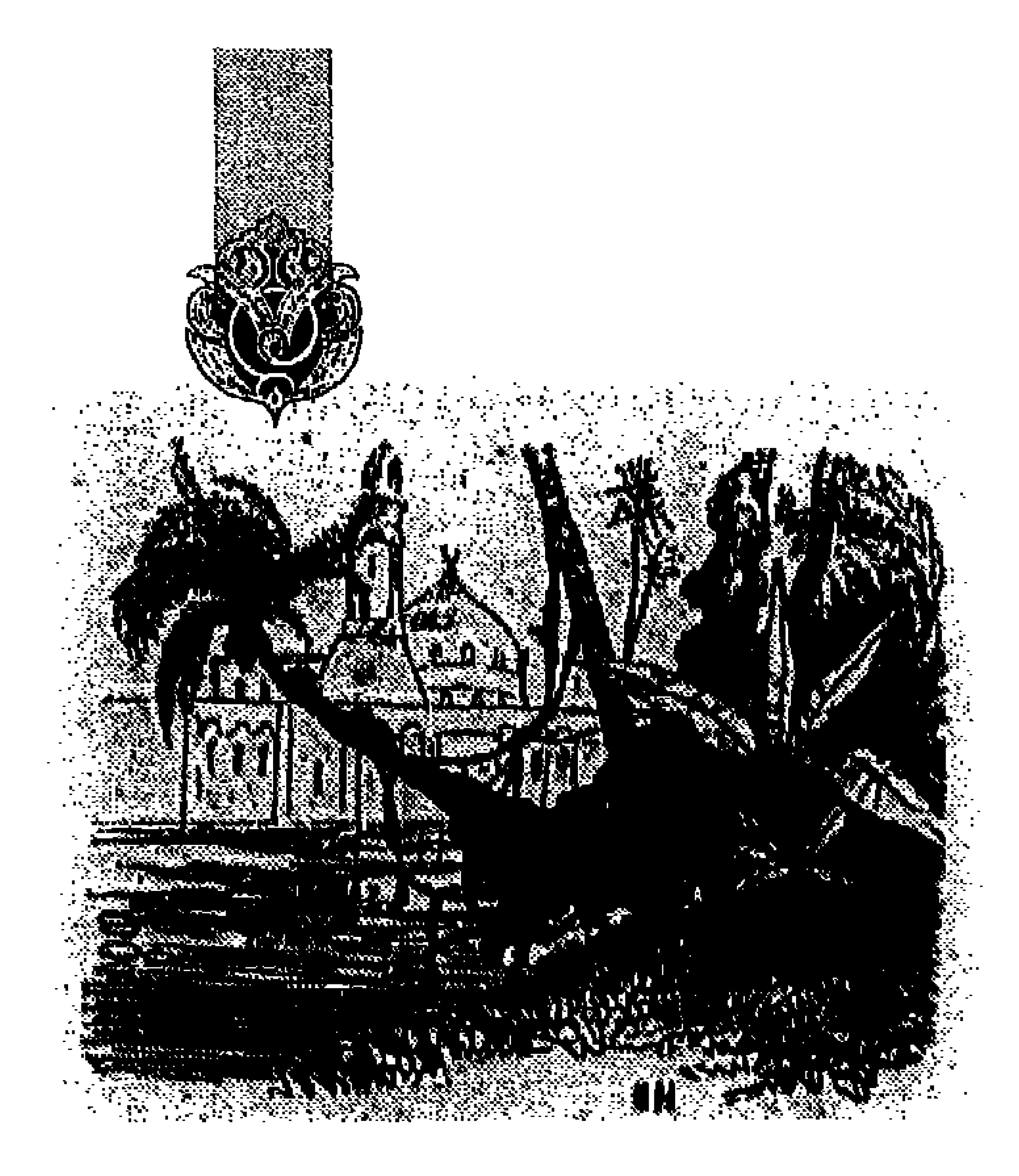
٣ ـ احمد حسن الزيات في كتابه «في اصول الادب».

٤ ـ البارون سيلفستر دو ساسي في مقدمته لكتاب الف ليلة وليلة ترجمة غالان.

٥ ـ أ. ع. بكير في مجلة «المباحث» التونسية العددان ٣٠٨ و٣٠٩ سنة ١٩٤٨.

٦ـ الاب انطون صالحاني في مقدمته لكتاب الف ليلة وليلة طبعة المطبعة الكاثوليكية.

٧ ـ الدكتور حسين مؤنس في مجلة«العربي» العدد ١٠٥، اغسطس ١٩٦٧.



مأساة ملك

الزمان قصي تنشر عليه الاسطورة ظلاً من المتعة وعبيراً من الطيب.. والمكان بلاد فارس ذات الليالي الساجية التي تحلم بالشعر والحب والجمال، تحت ضوء القمر الفضي وعلى شواطئ الخليج الزمردي.. ونحن في عهد الامراء الساسانيين الذين امتد حكمهم إلى الهند والصين، والحكم يتقاسمه اميران نابهان وفارسان بطلان هما شهريار وشاه زمان، وقد خلف الاول اباه في ملك بلاده، وتولى الآخر عرش سمرقند، ولبثا على ذلك عشرة اعوام يحكمان في الرعية بالعدل، ويسوسان البلاد بحكمة وروية وسداد رأي..

وكان شهريار يشعر نحو اخيه بعاطفة قوية من الحنان، اشبه بعاطفة الابوة، فلما انقضى ذلك الوقت الطويل دون أن يراه، الح عليه الشوق لرؤيته، فارسل إليه وزيره يعرب له عن شوقه ويدعوه إلى زيارته في عاصمة ملكه، فسر شاه زمان بهذه الدعوة وأخذ يستعد للسفر، ثم اقام وزيره حاكماً في بلاده بالنيابة عنه، وخرج طالباً بلاد أخيه.

الزوجة الخائنة

الا أنه لم يكد يبتعد عن عاصمته، حتى تذكر أنه نسي في قصره هدية ثمينة من الماس اعدها لأخيه، فرجع أدراجه إلى القصر، وإذا به يسمع عزفاً بارعاً على العود تصدر الحانه من مخدع الملكة، فعجب من ذلك وعهده بزوجته مريضة كئيبة، ودخل مخدعها فإذا هي تنادم عازفاً على العود، فارتد إلى الوراء دهشاً مستنكراً، وقد اظلمت الدنيا في وجهه وقال في نفسه :«لئن كان هذا شأن الخائنة وانا لم أكد اغادر المدينة، فما عسى أن يكون شأنها أن غبت عند أخي وقتاً





طويلاً ؟!» ثم استل سيفه وبادر إليهما فقتلهما، وعاد من فوره إلى حيث ينتظره رجال حاشيته، ورحل معهم إلى مدينة أخيه.

وقد فرح شهريار بقدوم شاه زمان فرحاً عظيماً، وأمر بأن تزين المدينة كأنها في عيد، وأن تستمر مجالي الزينة ومعالم البهجة ما بقي اخوه في ضيافته، وخف إلى استقباله مع حشد كبير من رجال دولته، ثم أنزله في قصر فخم بجوار قصره، واحاطه بالوان الترف والنعيم،

ولكن شاه زمان كان ما يفتأ يتذكر خيانة زوجته له فيضطرب ويكتئب، ويذهب مع خياله المحموم كل مذهب، حتى ضعف جسمه وشحب لونه وبدت عليه امارات السقم والهزال.

وكان شهريار كلما نظر إلى أخيه وقد غشيت وجهه سحابة الحزن، نسب ما يعتريه من كآبة إلى فراق أهله وملكه، بيد أنه لما رأى أن حاله هذه تتفاقم، وأن نحوله يزداد يوماً بعد يوم، لم يملك نفسه عن سؤاله عما يقلقه ويشجيه، فقال له:

ـ يا أخي أني اراك قد ضعف جسمك وشحب لونك!..

فقال شاه زمان في لوعة وحرقة:

ـ يا اخي ان في قلبي جرحاً..

ولم يزد.. فعرف شهريار أن صدر أخيه ينطوي على سر مؤلم، ولكنه لم يشأ أن يسأله عن هذا السر الذي يمضه ويشجيه، ما دام قد امسك هو عن البوح به، فقال له:

ـ انا ذاهب غداً إلى القنص، واريد أن ترافقني في هذه الرياضة المحببة والنزهة الممتعة، لعلك تنسى بعض الهم الذي تعانيه.

فأبى شاه زمان مرافقة أخيه وآثر البقاء في المدينة.

فلما كان الغد وذهب شهريار مع حاشيته إلى القنص، أخذ شاه زمان يطوف ارجاء قصره، ثم وقف امام نافذة تطل على حديقة أخيه، وإذا بباب سري في القصر الملكي يفتح ويخرج منه عشرون جارية وعشرون عبداً تتوسطهم أمرأة اخيه، فيأكلون ويشربون، ويلعبون ويغنون، ويقضون نهارهم كله في الوان من العبث والمجون.

شاه زمان يتعزى

فلما رأى شاه زمان ذلك، تعزى عن خيانة زوجته له بما رأى من مجون زوجة أخيه وخيانتها له وهو اكبر ملك في زمانه، ففارقته كآبته وزال همه، وأقبل على الحياة اقباله عليها من قبل، فحسنت حاله وأشرق وجهه، وعاوده مرحه وعنفوانه، فلما عاد اخوه بعد ايام ابتهج بهذا التحسن الذي طرأ عليه، ولكنه لم يكتم عجبه من امره فقال له:

ـ يا أخي كنت شاحب الوجه، وقد رد الآن لونك اليك، فاخبرني عن حقيقة امرك.

فقال له: اما تغير لوني فأذكر لك سببه، ولكن اعفني من اخبارك بما رد لوني إلي!

قال: فاخبرني اذن عن سبب نحولك.

فقال شاه زمان: يا أخي، لما ارسلت وزيرك إلى يطلبني للمثول بين يديك، جهزت امري وغادرت مدينتي، ثم تفقدت الهدية التي اعددتها لك فإذا بي قد نسيتها، فعدت إلى القصر، فوجدت زوجتي تنادم مغنياً، فقتلتهما وجئت إليك، وقد ظل هذا الامر ماثلاً في ذهني

ينغص عيشي ويشيع الكآبة في نفسي، مما ادى إلى نحولي وشحوب لوني... وأما الذي رد لوني إلي فأرجوا أن تعفيني من ذكره..

الزوج المهان

قال شهريار وقد طال عجبه واشتد فضوله:

- استحلفك بالله أن تخبرني بالامر الذي شفاك من سقمك واعاد إليك نضارتك ومرحك!..

فأخبره شاه زمان بكل ما رأى..

فقال شهريار وكأنه لا يصدق ما سمعت اذناه، وعهده بزوجته الملكة عفيفة نقية:

- وكيف استطيع أن ارى ذلك بعيني؟

قال الاخ الاصغر: ازعم انك مسافر إلى القنص مرة أخرى، واختف عندي تشاهد ذلك وتتحققه عياناً.

فبادر الملك من فوره فأمر مناديه بأن ينادي بالسفر، وخرج وجنده إلى ظاهر المدينة، ثم جلس في خيمته وحظر على غلمانه أن يدخلوا عليه أحداً.

وما لبث شهريار أن خرج متنكراً ومضى إلى قصر أخيه، ووقف امام النافذة المطلة على حديقته، وهو في حالة مؤثرة من الغضب والقلق، وإذا بالملكة تخرج من القصر مع جواريها وعبيدها، ويأخذون جميعاً في فنون شتى من المجون والعبث، وشهريار يرى ذلك من مخبأه وهو يتميز غيظاً ويتقد غضباً، ولا يكاد يصدق أن ملكة عظيمة مثلها تنحط إلى هذا الدرك من الهوان والعار، ثم هرع إلى البستان فطعن زوجته بسيفه، وأمر بقتل العبيد والجواري جميعاً.

عدو النساء

غادر شاه زمان أخاه إلى مملكته، وبقي شهريار وقلبه يجيش حقداً على المرأة التي خانته وعلى كل إمرأة في الدنيا.

ولم يستطع الموت الذي لاقته زوجته من يده، أن يزيل من قلبه ذلك الحقد الرهيب او يخفف من لهيبه، فقد قام في اعتقاده بعد الذي عرفه من خيانة زوجة أخيه وخيانة زوجته، أن المرأة مفطورة على الخيانة، وليس هناك من إمرأة شريفة تخلص لزوجها وتسلك مسلك الامانة له والوفاء بعهده.

وقد بلغ من استبداد هذا الرأي الظالم بالملك شهريار، انه بات يتزوج كل ليلة احدى فتيات المملكة، فإذا كان الصباح أمر بقتلها، فضرب عنقها، مخافة أن يبقيها في قصره فتعمد إلى خيانته !..

وتكاثرت ضحايا الملك البريئات من الفتيات النضرات والصبايا الحسان، حتى ضج الناس من طغيانه، وإذا بالوزير الذي كلفه انتقاء تلك الضحايا وتقديمهن إليه، يبحث يوماً عن فتاة تصلح زوجة للملك فلا يجد بغيته، لأن جميع الفتيات الجميلات قد اتى عليهن سيف جلاده، او نجون بنفوسهن من بلاد شهريار مخافة أن يتخطفها سيف الجلاد..





شهرزاد الخالدة

عاد الوزير إلى منزله تلك الليلة وقد اعتراه هم شديد مخافة أن تمتد إليه يد الملك بسوء..

وكانت لهذا الوزير ابنتان رائعتا الجمال، تدعى كبراهما شهرزاد والثانية دنيازاد، فأما الاولى فهي الحكمة المثلى والانوثة الكاملة قد اجتمعتا في إمرأة، وأما شقيقتها فهي البراءة قد تجسدت في انسان طري العود نضير القسمات.

وألقى الاب نظرة على مخدع ابنتيه، فإذا بشهرزاد تطالع كتاباً من الكتب الكثيرة التي تملأ رفوف غرفتها، وهي كتب قد اولعت بها ولعاً شديداً لما كانت تجد من عبر رائعة في اخبار الامم الماضية وسير الملوك السالفين.. وإذا بدنيازاد تنظر في مرآة لها، متلهية باصلاح شعرها الفاحم المسترسل على كتفيها وكأنه قطع من الليل، لأنها لا تريد أن تنام قبل رؤية ابيها الذي تأخر عن العودة ذلك المساء في موعده المعتاد..

ولم يطل ذلك الاب الحزين النظر إلى ابنتيه، ولم يحدثهما كعادته بما تعهدان به من بشاشة ومرح، بل تابع سيره إلى مخدعه، وقد لج به الحزن، واشتدت

كآبته، واختلجت في نفسه مخاوف جديدة أثارها مرأى هاتين الزهرتين اليانعتين.

وعجبت البنتان اللعوبان من سلوك ابيهما، وادركت شهرزاد بفطنتها أن هنالك ما يمضه ويشجيه، فهرعت إليه وأختها تجري في اثرها، وتشبثت بكتفه، وهمست في اذنه وهي تضحك وتغريه بالضحك:

قل لمن يحمل هماً

أن هماً لا يدوم

مثلما يفنى سرور

هكذا تفنى الهموم

ثم قالت مداعبة:

ـ فما هو همك يا ابتاه؟ اخبرني به لعلي اجد سبيلاً إلى الخلاص منه...

واقبلت دنيازاد تبعدها عنه وهي تقول:

ـ دعيه يا أختاه، أنه سيفضي بسره إلي وليس إليك أنت..

فتردد الاب طويلاً، ثم حدثهما بأمره وهو يشيح بأنظاره عنهما، مخافة أن تستشفا من عينيه ذلك الهاجس الاسود الذي هجس في نفسه لحظة فروعها وملأها جزعاً واشفاقاً.

فاختلست شهرزاد نظرة من ابيها زادتها قلقاً عليه ورثاء له، ثم قالت بعد أن فكرت ملياً:

ـ بالله يا ابت، زوجني هذا الملك، فاما أن اعيش فانقذ بنات وطني واما أن اموت فأكون فدى لهن..

فأنكر ابوها رأيها وأصرت هي عليه، فقال لها:

ـ بالله عليك لا تخاطري بنفسك..

فقالت: لا بد من ذلك!

فقال: إن كنت لا تشفقين على نفسك من الموت فاشفقي على ابيك من أن يفجع بك!

فالحت وقالت: لن يثنيني شيء عن القيام بهذه التضحية في سبيل بنات وطني.

قال: أن من لا ينظر إلى عاقبة عمله يجلب الشر لنفسه، ومن يتدخل في ما لا يعنيه يصيبه ما لا يرضيه، وأخشى أن يقع لك ما وقع للحمار الذي جنى على نفسه!

فقالت: وما الذي جرى له؟



الحمار الذي جنى على نفسه

قال: كان لبعض التجار اموال ومواش، وزوجة واولاد، وقد اعطاه الله تعالى معرفة لغات الحيوان، وكان في داره بالارياف حمار وثور، فأتى الثور يوماً إلى مرقد الحمار فوجده نظيفاً، وفي معلفه شعير مغربل وتبن نقي يتألق ويلمع، وهو راقد مستريح، فقال له:

- هنئياً لك! انا تعبان وانت مستريح. وتأكل الشعير مغربلاً والتبن نظيفاً، ويخدمك صاحبنا بنفسه، وما اقل ما يركبك، وإذا ركبك فسرعان ما يعود بك إلى مكان راحتك، اما أنا فأني مسخر دائماً للحرث والطحن!

فقال الحمار: اذا خرجت غداً إلى الحقل، وجعلوا النير على رقبتك، فارقد ولا تقم وأن ضربوك، وحاول القيام قليلاً ثم عد إلى رقادك متداعياً متهالكاً.. فإذا رجعوا بك إلى الاسطبل وجاءوك بالفول، فتصنع المرض ولا تأكله.. وامتنع عن الاكل والشرب بضعة ايام تسترح من التعب والجهد.

وكان التاجر يسمع كلامهما، فلما جاء الزارع إلى الثور بعشائه، أكل منه شيئاً يسيراً، ولما اقبل في الصباح ليأخذه إلى الحرث وجده مريضاً لا يستطيع القيام، فحزن عليه ومضى إلى التاجر

فقال له:

ـ يا مولاي أن الثور مريض وهو لم يذق هذه الليلة من علفه شيئاً!

فعرف التاجر أن الثور قد عمل بنصيحة الحمار، فقال للزارع:

ـ امض فخذ الحمار مكانه واستخدمه للحراثة النهار كله.

ففعل الزارع برأي معلمه، وعاد الحمار إلى الاسطبل في المساء منهوك القوى، فشكر له الثور نصيحته التي اراحته من التعب ذلك اليوم، فلم يجبه الحمار بشيء لشدة ما خامره من ندم على افضائه إليه بتلك النصيحة.

ولما كان اليوم التالي جاء الزارع فأخذ الحمار واستخدمه للحراثة حتى آخر النهار، ثم عاد به مسلوخ الرقبة ملتوي القوائم، فتأمله الثور طويلاً وأثنى على همته وغيرته، فقال الحمار في نفسه :«كنت قاعداً بطولي فما خلاني فضولي» ثم قال للثور:

ـ اعلم أني لك ناصح، وقد سمعت معلمنا يقول: أن لم يقم الثور من موضعه فسأسلمه إلى الجزار ليذبحه فننتفع بلحمه، وأنا خائف عليك، وقد نصحتك، فاصنع ما بدا لك!

فلما سمع الثور ذلك ظنه يقول حقاً فاعتزم الذهاب في غده إلى الحقل، وأقبل على علفه فأكله بتمامه حتى لحس المزود بلسانه.

الزوجة العنيدة

وكان التاجر قد سمع كلامهما، فلما طلع النهار خرج وزوجته إلى فناء الدار، فاقبل الزارع واخرج الثور، فلما رأى الثور معلمه أخذ يحرك ذنبه مظهراً قوته، فضحك التاجر حتى استلقى على ظهره فقالت له زوجته:

ـ لم تضحك؟

فقال: سر رأيته وسمعته ولا اقدر أن ابوح به لأني أن فعلت ذلك مت..

فقالت: لا بد من أن تخبرني به..

فقال: لا استطيع أن ابوح به خوفاً من الموت!

فأقسم لها بأنه لم يضحك عليها، وأن في الامر سراً لا يستطيع الافضاء به الا إذا اعتزم الموت، ورجاها أن تبقي على حياته فلا ترغمه على الافضاء بذلك السر، ولكنها أبت إلا أن تعرفه، وألحت في

ذلك، ولجت في الالحاح، حتى ضاق بها، وكان يحبها حباً عظيماً فقرر أن يبوح لها بسره ولو كان في ذلك قضاء عليه لأن من يعرف لغة الحيوان ويكشف عن ذلك يموت لفوره..

وارسل التاجر في طلب اولاده واهل زوجته وقاضي المدينة، كي يكتب امامهم وصيته، فلما حضروا اطلعهم على امره،فالتفوا حول المرأة يرجونها إنقاذ زوجها مما اعتزم الاقدام عليه، قائلين لها:

ـ بالله عليك، اتركي هذا الامر لئلا يموت زوجك ابو اولادك!

فاصرت على عنادها وقالت:

ـ والله لا اكف عنه حتى يحدثني عن سبب ضحكه وأن كان في ذلك هلاكه!

فلزموا الصمت وقد عجبوا من هذه المرأة التي تدفع زوجها بعنادها إلى الموت، ومضى الرجل ليتوضأ ويصلي قبل أن يبوح بسره استعداداً للموت..

وكان للتاجر كلب امين وديك يعيش مع خمسين دجاجة، فبينا هو ذاهب ليتوضأ، سمع الكلب يوبّخ الديك بقوله:

ـ انت فرحان ومعلمنا مقبل على الموت!

فقال الديك: ليس لي بذلك علم، وعهدي به صحيح الجسم قوي البنية!

فروى الكلب للديك ما وقع للتاجر وزوجته، فقال الديك:

ـ والله أن استاذنا لقليل العقل.. أن لي خمسين دجاجة، اراضي هذه واصالح تلك، ومعلمنا ليس له إلا زوجة واحدة ولا يعرف كيف يسوس امرها... ما له لا يأخذ شيئاً من عيدان التوت ويخبئها في خزانة، ثم يستدرج زوجته إلى المخبأ فيضربها حتى تموت او تتوب فلا تسأل بعد ذلك عن شيء لا يعنيها امره وفيه هلاك زوجها!

قال الوزير لابنته شهرزاد ضاحكاً:

ـ لئن لم تتعظي بما وقع للحمار ولم تكفي عن الحاحك، لأفعلن بك ما فعل ذلك التاجر بزوجته!

فقالت: وماذا فعل بها؟

قال: انه لما سمع كلام الديك أخذ بعض قضبان التوت فخبأها في الخزانة، ثم قال لزوجته: «تعالي معي إلى داخل الخزانة كي اطلعك على السر الذي تريدين معرفته، ثم اموت فيها دون أن يراني احد» وحين دخلت معه إلى الخزانة اقفل بابها

وقال لها: «الا تزالين مصرة على هذا الامر وأن كان فيه قضاء علي؟» قالت: «اجل، اني لا أزال مصرة عليه!» فأمسك بعيدان التوت وانهال عليها ضرباً حتى اغمي عليها، فلما عاودها رشدها قالت له متضرعة: «اعف عني فقد تبت ولن اسألك بعد اليوم عن شيء لا يعنيني امره» فكف عن ضربها، واخرجها من الخزانة، وعاشا بعد ذلك في احسن حال.

فضحكت شهرزاد ضحكة ذات رنين عذب كرنين الفضة، فقالت لابيها في عزم الواثق من نفسه:

ـ لا بد من اقدم على هذه المغامرة، فاما أن اموت او انقذ بنات وطني..

فجهزها ابوها ومضى بها إلى الملك شهريار، وهمست شهرزاد في أذن اختها وقد خرجت تشيعها إلى الباب:

ـ اذا ارسلت في طلبك وقدمت علي فقولي: يا أختي قصي علي قصة نسمر بها ونقطع بحديثها هذا الليل!

ولما رآهما الملك فرح بهما وقال لوزيره:

ـ هل اتيت بحاجتي؟

فأجابه: نعم.. لقد اتيتك بابنتي هذه!

ودنا بالفتاة حتى وقفت بين يديه، ثم غادر الغرفة مسحوق القلب معذب الضمير، فالقى شهريار على عروسه نظرة فاحصة معجبة، وإذا بها تنكس رأسها خجلاً ثم تجهش في البكاء، فقال الملك:

ـ ما لك.. ما الذي يبكيك ايتها الحسناء؟

فقالت شهرزاد: ايها الملك العظيم.. أن هذه الليلة هي آخر ليلة في عمري، وأن لي اختاً صغيرة احبها اعظم الحب واريد أن اودعها قبل أن اموت.

فارسل الملك رسولاً إلى وزيره فاحضر دنيازاد، فعانقت اختها عناقاً طويلاً، وجلست على مقربة من السرير، وشرع الثلاثة يتجاذبون اطراف الحديث، فقالت دنيازاد لاختها:

ـ بالله عليك يا أختي، حدثينا حديثاً نسمر به ليلتنا هذه!

فقالت شهرزاد: حباً وكرامة أن اذن لي الملك المهذب!

ورنت نحو شهريار بطرفها الكحيل الفاتن.. فقال:

ـ لا ضير في ذلك أن كان في حديثك ما يمتع ويذهب عن النفس سأمها فقد استبد بي القلق واشتد علي الضيق.

فتنفست شهرزاد الصعداء لنجاح الخطة التي رسمتها، واخذت تروي لهما احدى اقاصيصها الشيقة.





انسي في مأوى الجن

قالت شهرزاد: حكي ايها الملك السعيد، أن تاجراً كثير المال وافر الاعمال، سافر مرة لقضاء بعض شؤونه، فبينما هو في الطريق، اشتد عليه الحر فعدل عن الطريق العام إلى واحة ظليلة، وجلس في ظل شجرة جوز كبيرة وارفة، واخرج من خرجه طعاماً ليأكله وبينه تمر لذيذ الطعم، فأنشأ يأكل منه ويلقي النوى على الارض.

القاتل برغمه

فما كاد التاجر يفعل ذلك، حتى انتصب امامه عفريت من الجن، طويل القامة شنيع الهيئة، وفي يده سيف طويل، ودنا منه وهو يصرخ فيه:

ـ سأقتلك كما قتلت ولدي!

فقال التاجر: من هو ولدك.. وكيف قتلته ولست اعرفه؟ يشهد الله انني لم اقتل احداً ولم تمتد يدي إلى امرئ بسوء!

ـ أنك لما كنت تاكل التمر وتلقي نواه ذات اليمين وذات الشمال، جاءت نواة منه في صدر ولدي وهويسير في هذه البقعة فمات من ساعته!

ـ أن كنت قد قتلته حقاً، فما قتلته الا خطأ، وأرجو أن تعفو عني..

فقال الجني: لا بد لي من قتلك!

وامسك به فالقاه على الارض، ورفع سيفه ليهوي به على عنقه، فأنشأ التاجر يبكي ويتوسل إليه أن يعفو عنه، فقال له:

ـ أن بكاءك لا يجديك نفعاً، ولو أن دموعك تحولت إلى دماء لما اشفقت عليك وأبيت ألا أن اقتلك كما قتلت ولدي.

فلما ايقن بأن توسلاته لا تجدي وأن العفريت مصر على قتله ثأراً لابنه، قال له متضرعاً:

ـ ايها العفريت أن علي ديناً، ولي مال كثير واولاد وزوجة وديون ورهون، فدعني اذهب إلى بيتي فأؤدي لكل ذي حق حقه، وأعود إليك في رأس السنة فتفعل بي ما تريد، ولك عليَّ عهد الله وميثاقه أن اعود في الموعد المضروب.

فلما استوثق الجني منه، اطلقه على أن يعود إليه في رأس السنة، فعاد التاجر إلى بلده حزيناً كئيباً مترع القلب بالهم والقلق، وهو ينشد:

الدهر يومان: ذا أمن وذا حذر

والعيش شطران ذا صفو وذا كدر

قل للذي بصروق الدهر عيرنا

هل عاند الدهر الا من له خطر

اما ترى الريح أن هبت عواصفها

فليس تعصف الا ما هو الشجر

وما ترى البحر تعلو فوقه جيف

وتستقر بأقصى قعره الدرر

فأن تكف عبثت ايدي الزمان بنا

ونالنا من تمادي بؤسه الضرر

ففي السماء نجوم لا عداد لها

وليس يكسف الا الشمس والقمر

وكم على الارض من خضرا ويابسة

وليس يرجم الا ما له ثمر

احسنت ظنك بالايام اذ حسنت

ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وما زال الرجل يفكر في إمره ويندب حظه حتى بلغ منزله، فخف اهله يستقبلونه فرحين مستبشرين، ولكنه بدلاً من أن يعانقهم جزلان ضاحكاً كعادته، شرع يبكي بلوعة ومرارة، فعجبت زوجته لحاله وقالت له:

ـ نحن نستبشر بقدومك ونفرح بمرآك، وانت تقابلنا بالنحيب والبكاء، فماذا حدث لك.. هل خسرت تجارتك او

فقدت بضاعتك؟

فقال: بل خسرت عمري ولم يبق لي من الحياة غير شهور معدودة.

وروى لها ولأولادها قصته مع الجني، واخبرهم بوعده إياه بالعودة اليه ليقتله في نهاية العام.. فأجهشوا بالعويل والبكاء.

ثم عكف التاجر على تصفية شؤونه، فوفى ديونه، وعتق عبيده، وأحسن إلى الفقراء، ووزع امواله على اولاده، واقام الاوصياء على الصغار منهم، حتى اوشكت السنة على الانتهاء، فودع اهله واصحابه، وغادرهم وقد أخذ كفنه تحت إبطه، وهم يبكون عليه ويعولون.

في مأوى الجن

وما زال يسير حتى بلغ المكان الذي لقي العفريت فيه، وكان ذلك اليوم رأس السنة الجديدة، فجلس في ظل شجرة الجوز يبكي على نفسه، وإذا بشيخ كبير قد اقبل عليه ومعه غزالة مقيدة، فسلم عليه وقال له:

ـ ما جلوسك منفرداً في هذا المكان وهو مأوى الجان؟

فأخبره التاجر بما وقع له مع العفريت، فعجب الشيخ صاحب الغزالة من امره وقال:

ـ والله أن دينك لدين عظيم، وأن حكايتك لعجيبة، ولن ابرح هذا المكان حتى ارى ما يجري لك.

وجلس إلى جانبه يحادثه ويفرج عنه همه.. وإذا بشيخ ثان قد اقبل ومعه كلبان اسودان من كلاب الصيد فحياهما وقال لهما:

ـ ما جلوسكما في هذ المكان وهو مأوى الجان؟

فاخبراه الخبر، فجلس إلى جانبهما ليرى ما يكون من امر التاجر والعفريت.

ثم اقبل شيخ ثالث ومعه بغلة رمادية اللون، فسألهم عن امرهم وانضم إليهم.

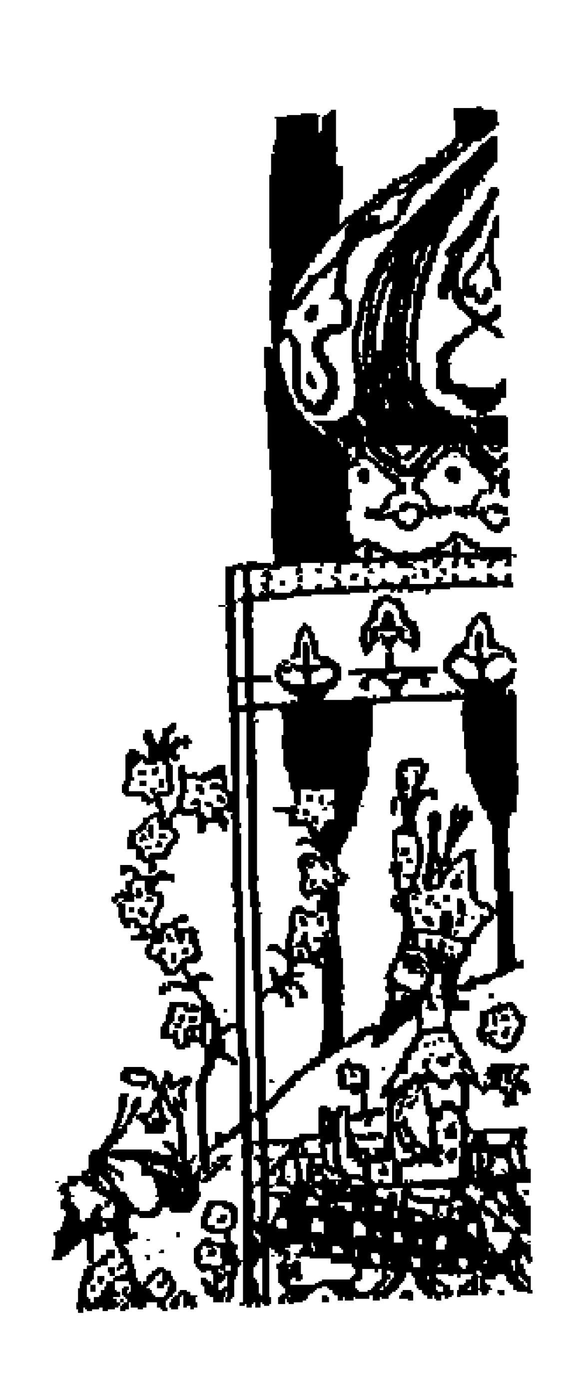
وانهم كذلك اذا بزوبعة عظيمة تهب من البرية وقد حملت معها غباراً اسود مخيفاً، ثم تنكشف عن العفريت وفي يده سيفه المسلول وعيناه تقدحان شرراً، فينقض عليهم وينتزع التاجر من بينهم، وهو يصرخ فيه بصوت راعد.

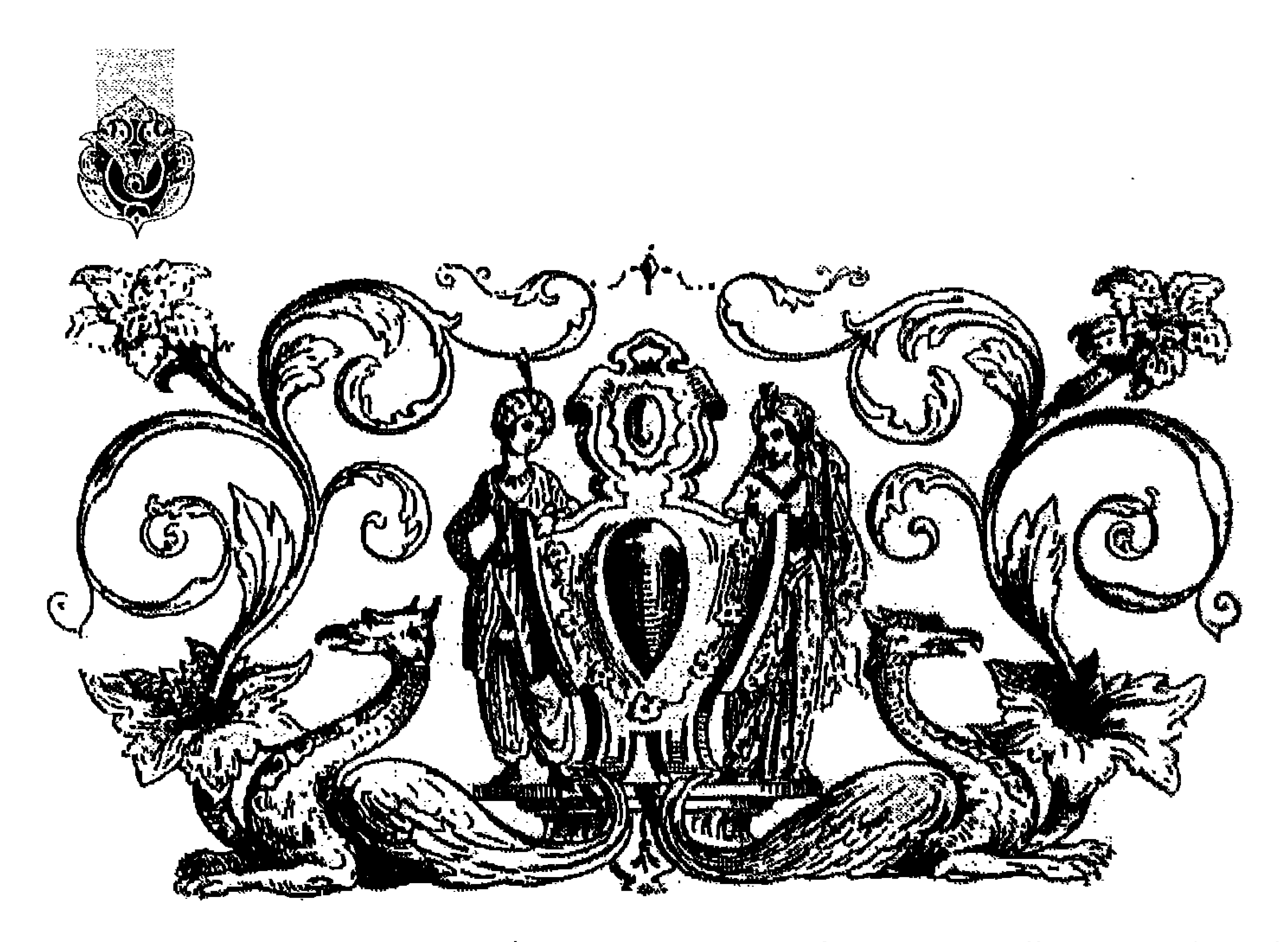
ـ هيا لأقتلك ايها اللعين كما قتلت ولدي.

فيرتعد التاجر وينتحب، ويحيط به الشيوخ الثلاثة وهم يتوسلون ويتضرعون، ثم يتقدم الشيخ الاول صاحب الغزالة من المارد فيقبل يده ويقول له:

- ايها الجني ويا تاج ملوك الجان، هل تعدني أن حكيت لك حكاية عجيبة، بأن تهبني ثلث دم هذا التاجر؟

فقال العفريت: نعم ايها الشيخ، اذا حكيت لي حكاية، ورأيت انها عجيبة حقاً، وهبتك ثلث دمه!





الساحرة التي حولت ضرتها بقرة

قال الشيخ الاول: اعلم ايها العفريت أن هذه الغزالة هي ابنة عمي، احببتها ونحن طفلان يعبثان، وتزوجت بها وهي صغيرة السن، وأقمت معها نحواً من ثلاثين سنة فلم أرزق منها ولداً. فتزوجت امرأة ثانية فرزقت منها ولداً كأنه البدر، فكبر حتى ايفع.

ثم اضطررت إلى السفر لبعض المدن في تجارة عظيمة.

وكانت ابنة عمي هذه الغزالة، تعلمت السحر والكهانة؛ فلما سافرت سحرت ولدي فجعلته عجلاً، وسحرت امه فحولتها بقرة، وسلمتهما إلى الراعي ليرعاهما مع الماشية.

وعدت بعد مدة طويلة فلم أجد ولدي وامه، فسالتها عنهما، فأجابتني:

ـ أن امرأتك ماتت، وقد هرب ابنك ولا ادري إلى اين ذهب.

فشعرت بالألم يمزق قلبي، وبقيت شهوراً طويلة وانا حزين القلب باكي العين. اذكر الزوجة التي ماتت وأرجو عودة الولد الذي غاب، حتى جاء عيد الاضحى، فأمرت الراعي بأن يحضر لي بقرة سمينة، فأحضر زوجتي التي

سحرتها ابنة عمي، فأمسكت بها وأخذت السكين لأذبحها فإذا بها تجأر وتصرخ كأنها انسان يبكي ويولول، فعجبت من ذلك وامتلأ قلبي رأفة بها، فتوقفت عن ذبحها وقلت للراعي.

ـ أئتني بغيرها.

فصاحت ابنة عمي:

ـ بل اذبح هذه، فليس عندنا افضل منها..

فتقدمت منها لأذبحها، وإذا بها تجأر وتصرخ وتضرب الارض بحوافرها، فرثيت لها وأمرت الراعي بأن يتولى ذبحها بنفسه، فذبحها فلم يجد فيها شحماً ولا لحماً وكل ما فيها الجلد والعظم.

فندمت على ذبحها حين لا ينفع الندم، واعطيتها للراعي يصنع بها ما يشاء وقلت له:

ـ أئتني بعجل سمين..

فأتاني الراعي بولدي.. فإذا به يقبل نحوي فيشم يدي ويتمرغ على قدمي، ويبكي ويصرخ وكأنه أنسان، فشعرت برعشة تسري في جسدي وتلمس شغاف قلبي، وقلت للراعي:

ـ دع هذا العجل وأئتني بغيره..

فصرخت ابنة عمي هذه الغزالة قائلة:

ـ لا بد من ذبحه في هذا اليوم، فإنه يوم شريف مبارك لا يذبح فيه إلا أحسن الماشية، وهذا العجل اسمن عجولنا وليس عندنا خير منه..

فقلت لها: الم تنظري كيف كان حال البقرة التي ذبحت بأمرك وكيف فزنا منها بالخيبة ولم ننتفع منها بشيء فندمنا على ذبحها وخسارتها؟ أنني لن اصغي إلى رأيك في ذبح هذا العجل هذه المرة.

فقالت: والله لا بد من ذبحه في هذا اليوم الشريف وأن انت لم تذبحه فما أنت زوجي ولا أنا زوجتك.

فلما سمعت قولها حرت في امري وتقدمت إلى العجل وقد اخذت السكين في يدي..

شهرزاد تتابع خطتها

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فقالت لها اختها دنيازاد:

ـ ما احسن حديثك يا أختاه، وما اطيبه والذه واعذبه.

فقالت شهرزاد بصوت ساحر ولهجة تفيض فتنة واغراء:

ـ وأين هذا مما احدثكم به الليلة القابلة، أن عشت وأبقاني الملك!...

فتردد شهريار قليلاً، فهو لا يريد أن يخرج عن السنة التي استنها لنفسه فيبقى على عروسه حتى الغد.. ولكنه لا ينسى ايضاً الجو الرائع من الطرافة والمتعة الذي نقلته إليه هذه العروس الفذة بحديثها البارع، وهو حديث لم ينته بعد، فماذا يضيره لو ابقى عليها ليلة ثانية كي تروي له تتمة القصة الشائقة؟!

فكر الملك قليلاً، وأجال طرفه بين الفتاتين البريئتين اللتين تتطلعان إليه وكأن روحيهما قد تعلقتا على شفتيه! ثم اشاح بانظاره عنهما وقال:

ـ انك ستعيشين إلى الليلة القابلة يا شهرزاد، كي تروي لنا تتمة ما بدأت من حديث عذب.

وخرج إلى ديوانه، فإذا بوزيره ينتظره وكفن ابنته تحت ابطه، فلما علم بأن ابنته لا تزال على قيد الحياة، فرح فرحاً عظيماً وعجب غاية العجب، ولكنه لم يشأ أن يحرج مليكه بالسؤال، فبقي معه طول يومه، وهو يقضي ويحكم ويولي ويعزل، ونفسه نهب للبهجة الغامرة والقلق العنيف.

ولما ولى النهار وانفض الديوان، وعاد الملك شهريار إلى قصره، وجلس يسامر عروسه الفاتنة، قالت دنيازاد لاختها:

ـ يا أختي اتمي لنا حديث التاجر والجني...

فقالت: حباً وكرامة إن اذن لي الملك!

فقال الملك: اني لفي شوق شديد إلى ذلك الحديث..

من حفر حفرة لأخيه وقع فيها

قالت شهرزاد: واستطرد ذلك الشيخ فقال:

ـ لقد تقدمت نحو العجل والسكين في يدي، ولكني ما كدت اهم بذبحه حتى شرع يصرخ صراخاً تفطر له قلبي، وابنة عمي ترى وتسمع ولكنها تأبى عليّ إلا أن اذبحه، غير أني لم اجد من نفسي الشجاعة الكافية للاقدام على هذا الامر، فامرت الراعي أن يأخذ العجل ويمضي.

واني لجالس في اليوم التالي، ونفسي تتنازعها الهواجس الغامضة، إذ اقبل الراعي نحوي وقال فرحاً:

- يا سيدي سأخبرك بشيء تسر به..

قلت: ما هو؟

قال أن لي ابنة قد تعلمت السحر في صغرها من امرأة عجوز كانت عندنا، وقد دخلت عليها بالامس ومعي العجل الذي اعطيتني إياه. فنظرت اليه وغطت وجهها وشرعت تضحك مرة وتبكي اخرى، فقلت لها:

- ويحك.. ماذا بك؟ ولماذا تخفين وجهك؟

فقالت: يا ابت، هل بخس قدري عندك حتى تدخل علي الرجال.

فقلت: اين الرجال يا ابنتي، ولماذا ضحكت وبكيت؟

فقالت: أن هذا العجل الذي معك هو ابن معلمنا وقد سحرته زوجة ابيه هو وأمه، وهذا سبب ضحكي، واما بكائي فاشفاقاً على امه التي ذبحها ابوه..

فعجبت غاية العجب، وما كاد الصبح ينبثق حتى هرعت إليك لاحدثك بذلك.

قال الشيخ صاحب الغزالة: فلما سمعت ايها الجني قول الراعي، خرجت معه وقد راعني النبأ واذهلني، حتى دخلت داره، فرحبت بي ابنته وقبلت يدي، ودنا العجل مني واخذ يتمرغ علي، فقلت للفتاة:

- احق ما تقولين عن هذا العجل؟

فقالت: نعم يا سيدي أنه ابنك وفلذة كبدك!

فقلت لها: ايتها الصبية أن انت خلصته فلك عندي ما يتولى ابوك رعايته من المواشي والاموال.

فابتسمت وقالت باستحياء:

- ليست لي يا سيدي في المال رغبة، ولكني اخلص ولدك بشرطين: اولهما أن تزوجني اياه، وثانيهما أن اسحر من سحرته لاني لست آمن مكرها.

فقلت: لك فوق ما طلبت جميع ما يرعاه ابوك من الانعام، والاموال.. واما ابنة عمي فدمها لك مباح.

فاخذت الفتاة اناء وملأته ماء، ثم عزمت عليه وسكبته على العجل وهي تقول:

ـ أن كنت عجلاً وانت الآن كما خلقك الله تعالى فابق على هذه الصفة ولا تتغير، وأن كنت مسحوراً فعد إلى خلقتك الاولى بإذن الله..

وإذا بالعجل قد انتفض وصار انساناً، وإذا بهذا الانسان ولدي الذي فقدت.. فهرعت إليه اعانقه واقبله، وسألته عما صنعته ابنة عمي به وبأمه، فقص عليّ ما جرى لهما، فقلت له:

ـ يا ولدي أن الله قد ارسل من خلصك وردك إلى الحياة الانسانية، فاشكر له صنيعه واعرف له جميله..

ثم زوجته ايها الجني ابنة الراعي التي انقذته، ولكن هذه الفتاة ابت أن تزف اليه قبل أن تأمن مكر المرأة الساحرة، فسحرتها وجعلت منها غزالة وقالت لي:

ـ لقد ترفقت بها فجعلتها بصورة جميلة وليس بصورة وحشية يكره المرء النظر إليها وأن كانت تستحق هذا واكثر منه، فإن من بغى فعليه بغيه، ومن حفر حفرة لاخيه وقع فيها!

وقد بقيت ابنة الراعي مع ابني سنين طويلة، ثم وافاها اجلها، فسافر إلى بلاد الهند، وهي بلاد هذا الرجل الذي تريد قتله، ولما طال غيابه اخذت هذه الغزالة وسرت بها من بلد إلى بلد باحثاً عن ولدي متقصياً خبره، حتى ساقتني الاقدار إلى هذا المكان.

فقال الجني: حقاً أن حديثك لعجيب وقد وهبتك ثلث دمه!





الأخوان الناكران للجميل



فلما سمع الشيخ الثاني صاحب الكلبين قول الجني طمع في انقاذ التاجر، من بطشه، وتقدم منه قائلاً :

ـ ايها الجني، ويا سيد ملوك الجن، هل تعدني بأن تهبني ثلث دم التاجر اذا حكيت لك حكاية اعجب؟

فقال العفريت : نعم ايها الشيخ، اذا حكيت لي حكاية، ورأيت انها اعجب حقاً، وهبتك ثلث دمه..

أخ صالح وأخوان مغامران

قال الشيخ : اعلم يا سيد ملوك الجان أن هذين الكلبين اخواي وانا ثالثهم، لقد كنا ثلاثة اخوة، ومات والدي مخلفاً لنا ثلاثة آلاف دينار، فتقاسمناها بالسوية وأنشأ كل منا حانوتاً له بألف دينار..

ولم يمض وقت قصير حتى باع اخي الكبير، وهو احد هذين الكلبين، حانوته بالف دينار، واشترى بها بضائع متنوعة، وسافر فغاب عنا سنة كاملة..

وبينما أنا جالس في حانوتي ذات يوم، وقف امامي متسول رث الثياب زري الهيئة، فقلت له :

ـ فتح الله لك..

فأجهش بالبكاء وقال لي :

ـ الم تعرفني؟..

فتأملت فيه فإذا به اخي، فرحبت به واخذته إلى داري وسألته عن حاله فأجابني.

ـ لا تسأل فإن المال قد مال والحال قد حال..

فادخلته الحمام، والبسته حلة من

ثيابي، ثم دققت حسابي فوجدت أني قد ربحت الفي دينار، فاعطيته الفاً منهما، فأخذه شاكراً لي وأنشأ به حانوتاً جديداً.

وبعد حين عمد اخي الثاني وهو الكلب الآخر، إلى حانوته فباعه بغية السفر، فمنعته فلم يمتنع، واشترى بضاعة وسافر بها، وغاب عنا سنة وبعض السنة.. ثم عاد فقيراً معدماً كما عاد اخوه، فقلت له:

- يا اخي اما نصحتك بالبقاء!

فبكى وقال: يا اخي هذا أمر مقدر لي، وها اناذا قد اصبحت فقيراً لا املك درهماً واحداً، عارياً لا قميص عليّ..

فاخذته ايها الجني، وادخلته إلى الحمام، والبسته ثوباً جديداً، وجئت به إلى حانوتي فأكلنا وشربنا، ثم دققت حسابي فوجدت اني قد ربحت الفي دينار فاعطيته الفاً منهما، فأنشأ به حانوتاً جديداً..

بيد أنه لم تمض مدة وجيزة حتى اقبلا إلى منزلي واقترحا عليّ أن نسافر جميعاً في تجارة عظيمة، فقلت لهما:

- اي شيء كسبتماه في سفركما حتى تغريانني بالسفر؟

ورفضت طلبهما رفضاً جازماً، ولكنهما ما زالا يلحان عليّ ويزينان لي السفر شهراً بعد شهر وسنة بعد اخرى، حتى اذعنت لرأيهما وسألتهما عم يملكان من المال فإذا بهما قد بددا كل شيء في مسراتهما وملذاتهما، فبعت دكاني وكل ما املكه بستة الاف دينار.

ولكن الحرص قد دفعني على دفن ثلاثة الاف دينار منها في جوف الارض قائلاً لنفسي: اذا قدر لنا أن نخفق في مغامرتنا هذه، عدنا إلى بلدنا وأنشأنا بهذا المال حانوتاً لكل منا..» ثم قسمت المبلغ الباقي علينا نحن الثلاثة، فاشترينا بضائع مختلفة وسافرنا، ونزلنا في احدى المدن فبعنا هذه البضائع، فربحنا في كل دينار عشرة دنانير، فسررنا بذلك واخذنا نستعد للعودة إلى وطننا.

جنية تعشق انسياً

وبينما كنت يوماً على شاطىء البحر اشرف على نقل بضائعي إلى السفينة التي اعتزمنا العودة فيها، رأيت صبية حسناء تطيل النظر إليّ، وهي في ثياب ممزقة تدل على شدة بؤسها، فدنوت منها واحسنت اليها ببعض المال، وسألتها عن حالها واهلها، فاجابتني بانها فقيرة

ووحيدة ليس لها قريب او معيل، ورجتني أن اتزوجها فتتوفر على خدمتي ورعايتي ولا تنسى جميلي ابداً، فرثيت لها ووقعت من قلبي موقعاً حسناً فتزوجتها وأكرمتها وانزلتها معي في السفينة لتصحبني إلى بلدي..

وكان اخواي قد تآمرا عليّ طمعاً ببضاعتي، وقررا قتلي كي يصير المال الذي ربحناه لهما وحدهما.. فبينما انا وزوجتي نائمان على ظهر السفينة، اقبلا نحونا وحملانا من فراشينا والقيا بنا إلى جوف البحر.. فاسيتقظت مذعوراً واخذت اتخبط في الماء وقد اوشكت على الغرق، فاذا بزوجتي تتحول إلى حورية من حوريات البحر فتحملني إلى جزيرة قريبة، ثم تقول لي:

ـ لا تخف فانا جاريتك فلانة.. واعلم اني جنية ولكني مسلمة مؤمنة بالله، وقد اوقع الله محبتك في قلبي فجئتك في الصورة التي رأيتني فيها، فاحسنت إليّ واكرمتني، فحق لك عليّ الجزاء الاوفى.. اما اخواك فقد غضبت عليهما ولا بد لي من قتلهما.

فعجبت من امرها، وشكرت لها حسن صنيعها، وقلت لها:

ـ اما هلاك اخوي فلا..

فقالت: لا بد من أن اطير الليلة اليهما فاغرق مركبهما واهلكهما جزاءً لهما على ما اثمت يداهما..

فقلت لها: بالله عليك لا تفعلي فإن المثل يقول: يا محسناً لمن اساء كفى المسيء فعلته. وهما اخواي على كل حال.

جزاء الغدر والخيانة

وجعلت تصر على قتلهما وانا اتوسل اليها فيهما، حتى رضيت بالابقاء عليهما ولكن بد لي في عينيها المتقدتين بنار الغضب أنها لا بد من أن تنالهما بسوء..

ثم حملتني على ظهرها وطارت حتى بلغت بي بلدي فوضعتني على سطح داري، فنزلت إليها واخرجت المال الذي كنت قد خبأته في جوف الارض، واشتريت حانوتاً وبضائع، وعاودت سيرتي الاولى كأن لم يحدث شيء..

وعدت من عملي يوماً فوجدت كلبين صغيرين مقيدين في دراي، فلما رأياني هرعا نحوي واخذا يتمرغان على قدمي، فقالت زوجتي:

ـ هاذان اخواك!

فقلت: ومن الذي فعل بهما هذا؟

فقالت: لقد ارسلت إلى أختي ارجوها أن تفعل بهما ذلك، فحققت رجائي، ولن يتخلصا من عذابهما هذا الا بعد عشر سنوات..

قال الشيخ صاحب الكلبين:

فسلمت امري إلى الله وجعلت اعنى بهذين الكلبين عشر سنوات كاملة، وها أنا ذاهب بهما، وقد انقضت هذه المدة، إلى شقيقة زوجتي لتعيدهما إلى حالتهما الاولى، فقد كفاهما ما عانيا من عذاب جره عليهما غدرهما وكفرانهما بالجميل.. وما كنت لاقف هنا ايها الجني لولا ما عرفت من قصة هذا التاجر واشفاقي من أن تناله بمكروه..

فقال الجني: انها لحكاية عجيبة حقاً وقد وهبتك ثلث دمه!





المرأة التي سحرت زوجها

فتقدم الشيخ الثالث صاحب البغلة من العفريت وقال له:

ـ ايها الجني هل تعدني بأن تهبني الباقي من دم هذا الرجل اذا حدثتك بحكاية لا تقل غرابة عن حكايتي هذين الشيخين؟

فقال العفريت: نعم!

فقال الشيخ: اعلم يا رئيس الجان أن هذه البغلة كانت زوجتي، وقد سافرت مرة وطال سفري سَنَة كاملة، وكانت زوجتي سيئة المسلك فسرها غيابي وساءتها عودتي، فلما رأتني احضرت اناء وضعت فيه ماءً مسحوراً، وسكبته على وجهي وهي تقول:

اخرج من هذه الصورة إلى صورة كلب.

فصرت في الحال كلباً، وطردتني من المنزل فهمت على وجهي في الازقة حتى عضني الجوع، فوقفت عل مقربة من دكان احد الجزارين وتمرغت على قدميه ليلقي إليّ بعظمة اقتات بها، فاشفق عليّ وقادني إلى منزله، فلما رأتني ابنته غطت

وجهها وقالت لابيها:

ـ كيف تدخل علي ومعك رجل غريب؟

فقال: أي رجل تعنين؟

فقالت: هو هذا الكلب الذي معك.

فقال: أحق ما تقولين؟

فقالت: نعم، انه رجل قد سحرته امرأة وفي استطاعتي انقاذه.

فقال الرجل: بالله عليك ان تنقذيه يا ابنتي..

فأخذت اناء فيه ماء وقرأت عليه وسكبته فوق رأسي وهي تقول:

ـ اخرج من صورتك هذه إلى صورتك الأولى!

فلم تكد تتم قولها حتى عدت انسانا سوياً، فقبلت يديها وقلت لها:

ـ أريد ان تسحري زوجتي كما سحرتني

فاعطتني قليلاً من الماء وقالت:

ـ اذا رأيتها نائمة فاسكب هذا الماء عليها واطلب ما تشاء فإنها تتحول إلى ما تطلبه..

فاخذت الماء ودخلت على زوجتي فوجدتها نائمة، فالقيت الماء عليها وانا اقول:

ـ اخرجي من هذه الصورة إلى صورة بغلة.

فتحولت حالاً إلى بغلة، وها هي قريبة منك ايها الجني فانظر إليها كيف تصغي إلينا..

فنظر الجني إلى البغلة متعجباً وسألها:

اصحيح ما يقوله هذا الشيخ؟

فهزت رأسها مصدقة على قوله، فدهش الجني وضحك طويلاً، ثم نظر إلى التاجر باشفاق وقال للشيخ صاحب البغلة:

ـ لقد وهبتك الباقي من دمه!

قالت شهرزاد للملك شهريار:

فاقبل التاجر نحو الشيوخ الثلاثة يشكر لهم انقاذهم اياه من الموت، وعاد إلى بيته وأهله الذين ودعوه ونعوه، وبكوا عليه، ففرحوا به فرحاً عظيماً..

وادرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح..

فقالت دنيازاد: لله يا اختاه ما امتع حكاياتك وارحب آفاقك!

فقالت شهرزاد: واين هذا مما احدثكم به الليلة القابلة أن عشت وابقاني الملك.. فما حكاية التاجر باعجب من حكاية الصياد!

فاطرق شهريار قليلاً، يفكر فيما سمعه من الحديث الممتع ويختلس نظرة معجبة فلما علم الوزير وعلم الناس، أن الملك لم يقتل شهرزاد في ذلك اليوم ايضاً، فرحوا واستبشروا، وانعقدت على هذه المرأة آمال امة بأسرها لانقاذها من محنتها وتبديد السحابة السوداء التي رانت على البلاد من ظلم الملك وجوره. من عروسه التي بدت في اروع سحرها وفتنتها، ثم قال:

ـ غداً تحدثيننا حديث الصياد!







الحب والحقد

تابعت شهرزاد الخطة الطريفة الحكيمة التي لجأت اليها، للقضاء على تلك السنّة الظالمة التي سنّها الملك شهريار لنفسه، ولتخلق منه إنساناً جديداً، فتظفر من ثمّ بقلبه، وتنقذ بنات وطنها من أن يكنّ حصيداً لسيفه...

كانت تقص عليه قصصها الممتعة، وتحرص على أن لا يدرك الصباح الا وقد بلغت من القصة التي ترويها موقفاً مشوقاً يثير حب الاستطلاع، فيشفق الملك من قتلها قبل أن يستوفي سماع حديثها، ويبقيها إلى الليلة التالية، فإذا بها تعاود سيرتها الاولى..

واستمرت على ذلك اسابيع وشهوراً طوالاً، وقصصها الشيقة لا ينضب لها نبع ولا تفتر منها حرارة، بل تظل ممتعة جديدة كالحياة نفسها، هذه الحياة التي كانت تروي حكايتها وتسبر اغوارها، في فصاحة تتدفق وطرافة تتجدد وحكمة تفرض ذاتها...

وهكذا بدأ الحقد يتقهقر امام الحب والحكمة..

فبينما كان شهريار يستمع إلى شهرزاد في الليالي الاولى، مضطرب النفس، ساخط الضمير، منطوياً على ذاته، وقد اظلم وجهه فلا يتبين فيه فرح او حزن، طفق يصغي إليها باهتمام اكبر وباقبال اعظم وبشيء غير قليل من الثقة

والاطمئنان، بعد أن لا مست مشاعره الانسانية بحديثها الممتع وصوتها العذب وانوثتها البارعة..

لقد انشأ يطيل إليها النظر وهي تسامره وتناجيه، فيعجب بما يلوح على محياها الجميل من طيبة ونضارة، وما يبدو في حديثها الفذ من حكمة تكبر عن سنها، ويلمس اساه وحلمه الضائع في الحنان العميق الذي يغمر كل رنة من رنات صوتها، ثم يطيل النظر في هدبها الذي يرف كجنح فراشة، وفي النور الذي يتموج في خصلات شعرها، وفي الابتسامة الحلوة التي تزهر على شفتيها، فيزداد اصغاء إلى ذلك الصوت الذي شغفه ويتبع صداه وهو يضيع بين ثنايا الستار الارجواني وفي ظلال القناديل المتراقصة، ويهمس في سره:

- يا لها من امرأة!

وساعات الليل تترى..

والليالي تتعاقب بعضها آخذ برقاب بعض..

وشهرزاد تحكي حكاياتها الخالدة!





مارد في شبكة صياد

يحكى أن صياداً فقيراً طاعناً في السن، كان يشقى شقاء عظيماً ليعيل زوجته واولاده الثلاثة...

وقد ذهب مرة إلى شاطىء البحر كعادته، يلتمس من صيده ما يؤمن له القيام بأود اسرته الكبيرة، فألقى شبكته وأخذ ينتظر حتى استقرت في الماء وبدا له أنها امتلأت، فجمع خيوطها فوجدها ثقيلة، وجذبها فلم يستطع اخراجها، فاستبشر بذلك خيراً، واسرع فجرّ احد اطرافها إلى البر، وربطه بوتد متين، ثم خلع ثيابه والقى بنفسه في الماء، وما زال يعالج الشبكة بين الامواج الثائرة المتدافعة، حتى اخراجها إلى البر بعد عناء كبير، ولكنه لم يبال بذلك العناء، وإنما كان قلبه يخفق فرحاً، لما عقده من آمال جسيمة على ما تنطوي عليه الشبكة من صيد وافر.

مفاجأة غير منتظرة

غير أنه لم يكد يقبل على الشبكة ليرى ما فيها، حتى وجد أنها لم تحمل سوى حمار ميت، وأن هذا الحمار فضلاً عما كبده اياه من عناء في غير طائل، قد مزق الشبكة في عدة مواضع.

فاحتدم الصياد الكهل غيظاً وحنقاً، وجلس يصلح الشبكة بعد أن اخرج الحمار منها، وهو يندب حظه ويردد بالم عميق، وقد اشجاه ما يقاسيه من اهوال في سبيل القليل من الطعام والكساء، وآلمه أن يكدح نهاره وليله للحصول على بضع اسماك ثم يبيعها بالثمن البخس من اولئك المحظوظين الذين ينعمون بالثراء العريض.

يا خائفاً في ظلام الليل والهلكة

اقصر عناك فليس الرزق بالحركة

اما ترى البحر والصياد منتصب

لرزقه ونجوم الليل محتبكة

قد خاض في وسطه والموج يلطمه

وعينه لم تزل في كلكل الشبكة

حتى إذا بات مسروراً بليلته

والحوت قد شق سفود الردى حنكه

ابتاعه منه من قد بات ليلته

خلواً من البرد في خير من البركة

سبحان ربي يعطي ذا ويحرم ذا

هذا يعيد، وهذا يأكل السمكة.

ولما انتهى من اصلاح الشبكة نشرها وخاض في البحر فالقاها فيه وهو يتمتم في رجاء وتضرع عظيمين:

- باسم الله!

الحظ المعاكس

وصبر الصياد على شبكته قليلاً، فإذا بها تستقر وترسخ أكثر منها في المرة الاولى، فعاوده الامل ورجع إلى البحر فما زال يغالب امواجه حتى اخرج الشبكة الى البر ونظر فيها فلم يجد غير قدر مملوءة رملاً ووحلاً، فازداد غضبه وغيظه وقال:

مصائب الدهر كُفّي

أن لم تكفي فعفّي

فلا بحظي أُعطي

ولا بصنعة كفي

خرجت اطلب رزقي

وجدت رزقي توفي

ثم بادر إلى غسل الشبكة من الوحل، والقاها في البحر من جديد، وكأنه يتحدى الحظ هذه المرة، فإذا بها تمتلىء وتثقل شأنها في المرتين السابقتين، ثم لا يجد فيها بعد العناء الذي بذله في اخراجها غير احجار وعظام وقوارير لا نفع لها.. فاستعاذ بالله من شر ذلك اليوم، وكفّ عن شكاية حظه وقد قام في وهمه أن الحظ يعاكسه عن اصرار وعمد، اليس دأبه الاساءة إلى الصالحين والشرفاء وخدمة الاشرار المنافقين.. اليس يرفع من لا يستحق رفعة ولا علواً ويدفع بذوي المواهب والكفايات إلى اسفل الدركات!

إلا أن الصياد الصالح الذي قضى حياته الطويلة متمسكاً باهداب الفضيلة والتسليم لله، ما لبث أن استغفر ربه على شكه وسخطه، وتوسل إليه أن يرزقه في يومه ذاك ما يقيت به زوجه واولاده حتى الغد، فقد تركهم يتضورون جوعاً، وليس له من مورد غير هذا الصيد الذي يلتمسه في البحر السخي حيناً والبخيل احياناً كثيرة...

مارد في قمقم

ثم اصلح شبكته وقذف بها في اليم وهو لا يكف عن التضرع إلى الله بحرارة عظيمة... وإذا بها تمتلىء وتثقل بشكل لم يعرف مثيلاً.. فيهرع إلى البحر مصارعاً امواجه، وما يزال يجذب اطراف الشبكة من هنا مرة ومن هناك مرة، حتى يبلغ بها الشاطىء وقد انتهكت قواه...

ونظر الصياد الكهل في شبكته ليرى ما حفلت به من اسماك البحر وحيتانه، فوجد فيها قمقماً من النحاس وقد اغلقت فوهته وطبعت بخاتم النبي سليمان بن داود، ففرح بذلك وقال:

ـ أن هذا القمقم يساوي في سوق النحاس عشرة دنانير ذهبية!

وهم بحمله والانطلاق به إلى السوق، فوجده ثقيلاً جداً، فتساءل عما يحتويه وقال لنفسه:

ـ فلافتحه وانظر فيه قبل أن ابيعه، فلعل فيه كنزاً ثميناً!

وبادر إليه فأخذ يعالج الرصاص الذي يسد فوهته حتى فتحه، فما كان اعظم دهشته اذ وجده فارغاً تماماً، فطفق يقلبه ويهزه وهو يعجب من ثقله برغم فراغه، ثم ازداد عجبه أذ رأى دخاناً يتصاعد من القمقم، ويرتفع حتى يبلغ عنان السماء، ويزحف على الارض كأنه

سحابة سوداء، ثم يتحول إلى مارد جبار شنيع الهيئة، مخيف المنظر، تتقد عيناه كسراجين...

ارتعد الصياد لرؤية المارد العملاق، وأخذت اسنانه تصطك رعباً وحاول الهرب فخانته قدماه، وانه لفي دهشته وذهوله اذا بالمارد يتقدم منه ويركع بين يديه وهويقول:

ـ لا اله إلا الله، سليمان نبي الله!

ثم يتضرع اليه قائلاً:

ـ لا تقتلني يا نبي الله، فاني لن اخالف لك قولاً ولن اعصي لك امراً!

فقال الصياد: ايها المارد انك تتحدث عن سليمان نبي الله، وقد مات الحكيم منذ الوف السنين، فما قصتك وما سبب دخولك هذا القمقم؟

سجين النبي سليمان

فتنفس المارد الصعداء، وسُمع لتنفسه صوت كصفير الريح، وقال جذلان طروباً:

ـ امات النبي سليمان... اتقول أن الحكيم قد مات؟ لا اله الله والحمد لله!

وانتصب واقفاً وقد انقلب مختالاً مزهواً بعد اتضاعه وذله، واستطرد قائلاً:

ـ اما أنت ايها الرجل فابشر وانتظر..

ـ بماذا تبشرني رحمك الله؟

ـ بقتلك في هذه الساعة شر قتلة!

ـ يا لها من بشرى تزفها إليّ... اليس لديك غير هذا المزاح الثقيل؟

ـ تلك هي بشارتي إليك.

ـ وما ذنبي لديك؟ ما الذي اوجب قتلي وقد اخرجتك من البحر وانقذتك من السجن الذي كنت فيه، فهل نسيت ذلك؟

ـ تمن عليّ اية ميتة تموتها، فإن كل ما استطيع اسداؤه اليك من خير هو أن اخيّرك في الميتة التي تريد!

ـ فهلا حدثتني عن الذنب الذي استحققت به هذا الجزاء منك؟

قال العفريت فاسمع حكايتي اذن ايها الصياد.

لقد كنت من الجن المارقين الذين رفضوا الخضوع للنبي سليمان، وقد عصيته انا والجني صخر، فارسل وزيره آصف بن برخيا فأتى بي عنوة وقادني ذليلاً حتى اوقفني بين يديه، فلما رآني استعاذ مني وعرض عليّ الايمان

والدخول تحت طاعته فابيت، فاحضر هذا الاناء النحاسي وحبسني فيه، وسد فوهته بالرصاص وطبعه بخاتمه الذي نقش عليه الاسم الاعظم، وأمر الجن فحملوني والقوني في هذا البحر كي يفعل بي الله ما يشاء.. فلبثت على ذلك الف عام، فعاهدت نفسي على أن اغني من ينقذني إلى الابد، فانقضى الف عام آخر ولم ينقذني احد، فقلت في نفسي: عليَّ عهد الله أن ارشد من يخلصني إلى كنوز الارض، فمر الف عام ولم يخلصني احد... فاشتد بي الضيق وقلت لاجعلن الرجل الذي يفتح باب سجني اسعد الناس واحقق له اية امنية اراد.. ولكن الاعوام مرت في اثر الاعوام وانا في مكاني من هذا القمقم، حتى ثار غضبي واشتد حنقي واقسمت بأن من انقذني قتلته بلا شفقة ومنّيته كيف يموت، وها انت ذا قد انقذتني فاختر الميتة التي تشاء!

قال الصياد متوسلاً وقد تعاظمت نقمته على حظه الذي ابى عليه أن ينقذ هذا المارد الا بعد أن اقسم قسمه الرهيب في غمرة اليأس والعذاب:

- اعف عني ايها المارد يعف الله عنك، ولا تهلكني لئلا يسلّط عليك من يهلكك!

فأصر العفريت على عزمه قائلاً:

- لا بد من قتلك فاختر الميتة التي تريدها!

- ألا تعفو عني جزاء انقاذي اياك؟

- أني لا اقتلك إلا لأنك انقذتني...

- الا فاكبح من حقدك يا شيخ العفاريث، وخفف من غيظك، ولا مقابل الحسنة بالسيئة لئلا يصدق فيك قول الشاعر:

فعلنا جميلاً قابلونا بضده
وهذا لعمري من فعال الفواجر
ومن يفعل المعروف في غير اهله
يجازي كما جوزي مجير ام عامر.

فقال العفريت: دعني من شعرائكم وامثالكم، ولا تطل الكلام وتكثر اللغو، فقد عاهدت نفسي على قتلك ولن ادعك تفلت مني حتى افي بعهدي...

انتصار العقل

فنظر إليه الصياد طويلاً وأنشأ يقول في نفسه:

هذا جني وانا انسي وقد فضلني الله

عليه بما وهبني من عقل، فهل ادعه يقتلني وانا املك هذا السلاح الفعال؟...

هل يغلب مكره وخبثه عقلي وحيلتي!

ثم قال له وقد هجست في مخيلته بمثل ومض البرق، فكرة رائعة اسرع إلى تنفيذها:

- أمصر انت على قتلي؟

- نعم...

اني اسلم امري اذن لله وانفذ مشيئته، باذعان، ولكني اقسم عليك بالاسم الاعظم المنقوش على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام، ان تجيبني قبل موتي عن امر حيرني وأن تصدقني فيه!

فاضطرب العفريت لسماع الاسم الاعظم، وقال له:

- سل واوجز!

فقال الصياد: انت تزعم أنك كنت سجيناً في هذا القمقم، وهو لا يسع يدك او رجلك فكيف يسعك كلك؟

قال العفريت: افلا تصدق انني كنت سجيناً فيه؟

قال كلا:

قال: وإذا اقسمت لك على ذلك بكل مقدس لديك؟

قال: لا اصدقك حتى اراك فيه بعيني!

فاستشاط العفريت غيظاً من هذا الانسي الساذج الذي لا يصدقه لانه يجهل خوارقه، وانتفض فتحول إلى سحابة من دخان، ثم طفق ذلك الدخان يدخل في القمقم شيئاً فشيئاً حتى تجمع فيه ونادى الصياد من جوفه:

- ايها الاحمق، هل تصدق ذلك الآن؟

فلم يكن من الصياد الا أن اسرع إلى قطعة الرصاص المختومة وطبعها على فم القمقم كما كانت من قبل، ثم نادى العفريت بقوله وقد اطمأنت نفسه وزال قلقه:

تمّن عليّ الآن بدورك أية ميتة تريد أن تموتها!

جزاء الحقد والغدر

فانتبه المارد للحيلة التي اخذ بها، وأنشأ يتلوى في قلب القمقم، واستطرد الصياد قائلاً:

ـ لأرمينك في هذا البحر، وأبني لي هنا بيتاً، وكل من أتى إلى هذا الشاطىء منعته من الاصطياد قائلاً له: ههنا عفريت من اخرجه قتله!

وحاول المارد الخروج من محبسه، فحال خاتم سليمان دون بغيته، فقال للصياد:

ـ اخرجني من محبسي فقد كنت امازحك ولم افكر في قتلك قط، وكيف اقتلك وقد انقذتني من عذاب الابد!

فقال الصياد: انك تكذب يا احقر العفاريت واقذرها، ولن تخرج من محبسك ابداً.

وحمل القمقم وسار به إلى البحر، فقال له المارد:

ـ ماذا تريد أن تصنع بي؟

فقال: سألقيك في البحر.. فإن كنت قد اقمت فيه الآف السنين، فسأجعلك تمكث فيه منذ الآن حتى قيام الساعة.. الم اقل لك: اعف عني يعف الله عنك، ولا تهلكني لئلا يهلكك الله! فأبيت الا أن تغدر بي، فرماك الله في يدي جزاء وفاقاً لك.

قال العفريت: لئن انقذتني هذه المرة لأجزينك على ذلك اعظم الجزاء!

قال: كذبت يا ملعون، ولسوف اكون احمق الناس أن انا اطلقت سراحك، ويكون مثلي ومثلك كمثل وزير الملك يونان والحكيم دوبان...

قال العفريت: من هو وزير الملك يونان والحكيم دوبان، وما قصتهما؟

فقال الصياد: انها لقصة عجيبة واليك وقائعها...





الملك يونان والحكيم دوبان

كان في قديم الزمان ملك يدعى يونان، قد بسط سلطانه على امم كبيرة وبلدان كثيرة.. وكان هذا الملك مصاباً بالبرص، وقد اعيى داؤه الاطباء، فلم ينفع فيه دواء ولم يستطع احد شفاءه.

وذات يوم اقبل إلى عاصمة الملك حكيم طاعن في السن يدعى دوبان قد ترامت شهرته في المملكة، لغزير معرفته وسعة اطلاعه، حتى قيل أنه لم يدع ذا شأن في الطب والفلك والطبيعة والحكمة، الا قرأه ودرسه وأفاد منه.

الحكيم يتطوع لشفاء الملك

فلما عرف الحكيم ما اصاب الملك يونان، وسمع بعجز الاطباء عن معالجته وشفائه، دخل عليه وقال له:

ـ لقد بلغني ايها الملك العظيم ما اعتراك من داء، وعلمت أن الاطباء الذين عالجوك قد عجزوا عن معالجتك.. وانا مستعد لشفائك دون أن اسقيك دواء او ادهنك بدهن...

فعجب الملك من امره وسرّ به وقال له:

ـ والله لئن شفيتني لانعمن عليك وعلى اولادك واحفادك من بعدك، ولاجعلنك نديمي ومستشاري، وكل ما تتمناه عليّ هو لك..

ثم خلع عليه وأحسن اليه وقال له وهو لا يكاد يصدق ما سمعه منه:

ـ اتشفيني من هذا المرض الوبيل دون دواء ولا دهان؟

فاجاب الحكيم بثقة عظيمة:

ـ نعم اشفيك منه!

قال: فمتى يكون ذلك أيها الحكيم؟ أرجو أن تسرع به ما استطعت...

قال: سمعاً وطاعة... سيكون ذلك غداً أن شاء الله.

ومضى الحكيم دوبان إلى بيته فاختار اصنافاً عدة من ادويته وعقاقيره، ومزج بعضها ببعض، وجعل منها صولجاناً وجوّفه وصنع له قبضة وكرة، وانطلق في اليوم التالي إلى الملك فناوله الكرة والصولجان قائلاً:

خذ هذا الصولجان واذهب إلى الميدان فالعب بالكرة حتى تعرق كفك فينفذ الدواء منها ويسري في جسدك.. ثم عد إلى قصرك وبادر إلى الحمام فاغتسل، ونم بعد ذلك قليلاً فتنهض من فراشك بريئاً باذن الله!

معجزة الحكيم

فذهب الملك إلى الميدان مع الامراء والوزراء والحجاب، وامسك الصولجان بيده، وامتطى جواده ثم رمى الكرة امامه وجرى خلفها حتى لحقها وضربها بقوة، وما زال يلاعب أمراءه فيضرب الكرة ويسوق جواده خلفها ويضربها من جديد، حتى عرقت كفه وسرى الدواء منها في جسده، فعاد من فوره إلى القصر فاغتسل ونام، حتى اذا كان من الصباح هرع إلى الحمام فاغتسل ثانية، ونظر إلى جسده فوجده نقياً كالفضة البيضاء ولا اثر فيه للبرص، فغمرته موجة عظيمة من الفرح، ومضى إلى ديوانه طروب النفس متهلل الوجه...

وانه لفي مجلسه وقد بدت عليه سيماء البهجة والاطمئنان، واحاط به وزراؤه وحجابه فرحين مستبشرين، اذ دخل عليه الحكيم دوبان وهنأه بشفائه قبل أن يسمع ذلك منه، لأنه كان على يقين من مفعول دوائه، ثم أنشد هذه الابيات يهنئه فيها ويمتدحه ويشيد بما له من يد على الادب والعلم:

سمت الفضائل اذ دعيت لها اباً

وإذا دعت يوماً سواك لها ابي

يا صاحب الوجه الذي انواره

تمحو من الخطب الجسيم غياهبا

ما زال وجهك مشرقاً متهللاً

كي لا نرى وجه الزمان مقطباً

اوليتني من فضلك المنن التي

فعلت بنا فعل السحاب مع الربى

وصرفت جلّ المال في طلب العلا

حتى بلغت من المعالي مأرباً

فنهض الملك لاستقباله، وعانقه عناقاً حاراً، وأجلسه إلى جانبه، وخلع عليه الخلع السنيّة، وما زال عنده ينادمه طول نهاره، ثم شيعه بما ينبغي له من إجلال وأكرام...

الوزير الحاسد

واستمر الملك يونان على تعظيم الحكيم والانعام عليه، اعترافاً بجميله وتقديراً لنبوغه، وقد اعتزم أن يجعل منه جليساً له ومستشاراً مدى الزمان، اذ بمثل هذا الرجل تزدهر الامم وتزدان.

وكان للملك وزير قبيح المنظر والمخبر، عرف بلؤمه وبخله وطمعه بالاستئثار بعطف السلطان،، فلما رأى ما يحيط به الحكيم من ضروب العناية والرعاية، وما يغدق عليه من هبات سخية، حسده على المنزلة التي احتلها في قلب الملك، واضمر له الشر، كأنه اراد أن يجعل من نفسه مثلاً على صدق القول الشائع: ما خلا جسد من حسد!

ولبث الوزير ينتظر وقلبه يتميز حقداً، حتى انفرد بالملك يوماً فقبل الارض بين يديه وقال له:

ـ يا ملك العصر، لقد نشأت في احسانك، ولك اليوم عندي نصيحة افيك بها ذلك الاحسان، ولئن كتمتها عنك كنت خائناً لك كافراً بنعمتك.. فان امرتني أن اذكرها ذكرتها لك!

فقال الملك وقد ازعجه كلام الوزير:

ـ وما نصيحتك؟

فقال: ايها الملك الجليل، قالت القدماء: من لم ينظر في العواقب، فما الدهر له بصاحب. وقد رأيت الملك على غير صواب اذ انعم على عدو له يرجو زوال ملكه، وقد احسن اليه وأكرمه وقربه، وانا اخشى على الملك منه.

فقال الملك وقد اضطرب وشحب لونه:

ـ ويحك، عمن تتكلم؟

قال الوزير: ايها الملك الجليل، أن

كنت نائماً فاستيقظ، فاني اتكلم عن الحكيم دوبان!

فهتف الملك غاضباً:

ـ ويلك، هذا صديقي واعز الناس عندي، قد شفاني من مرضي الذي عجزت عن علاجه خيرة الاطباء، وهو حكيم لا يجود بمثله الزمان في كل حين، وانت تزعم أنه عدو لي ويريد زوال ملكي! لقد اجريت عليه هذا اليوم مرتباً شهرياً قدره الف دينار، واحسب اني لو قاسمته ملكي لكان ذلك قليلاً بالنسبة إلى جميله وحكمته، وما اظن انك تقول ذلك إلا حسداً..

فقال الوزير وقد ازداد غيظه وتفاقم حقده:

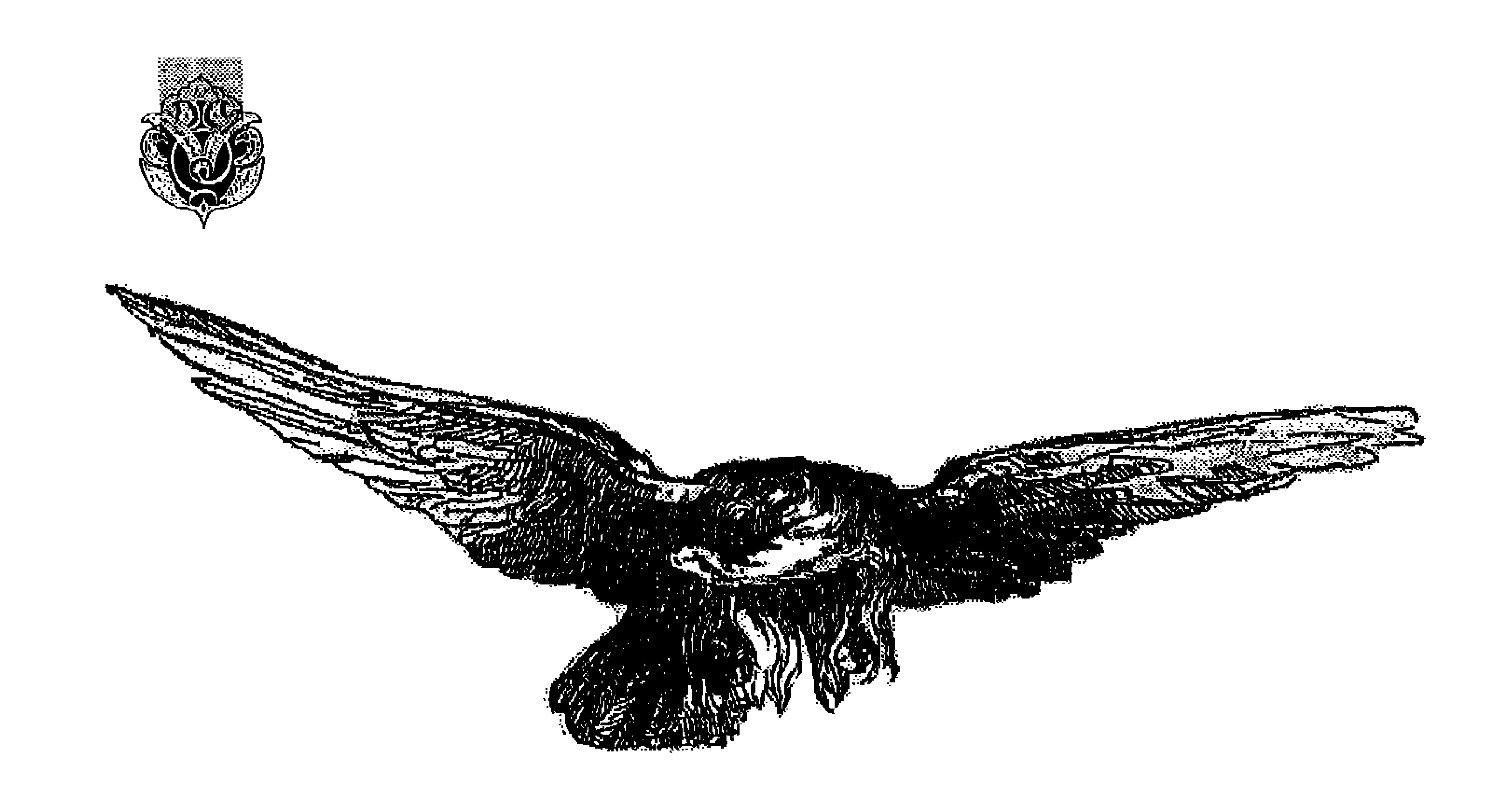
ـ والله ما قلت الا حقاً، ونصيحتي إلى الملك الجليل أن يبادر إلى قتل هذا الدجال المتستر بستار الحكمة زوراً وبهتاناً، فيأمن شره ومكره وما يبيته له من سوء!

فقال الملك وقد ازداد عجبه من اصرار وزيره على قوله:

ـ ايها الوزير، لقد داخلك الحسد من هذا الحكيم الامين الذي لم ار في الناس من يضارعه حكمة وفضلاً وكرامة خلق، ولو كان يريد قتلي لما شفاني من دائي. وأخشى أن قتلته أن اندم كما ندم ذلك الملك الارعن على قتل البازي!

قال الوزير: وكيف كان ذلك يا ملك الزمان؟





البازي الذي ذهب ضحية وفائه

قال الملك لوزيره الحاسد:

اشتهر احد ملوك الفرس بحب الصيد والقنص وركوب الخيل والخروج إلى النزهة، وكان له بازي رباه منذ صغره وهو لا يفارقه ابداً، وإذا مضى إلى الصيد اخذه معه، وسقد صنع له اناء من الذهب علقه في عنقه ليسقيه منه...

وبينما الملك جالس في ديوانه يوماً، اقبل احد وزرائه فقال له:

- ايها الملك هذا اوان الخروج إلى الصيد.

فأمر بالخروج، وأخذ البازي على يده، وسار مع امرأته واصحابه حتى وصلوا إلى واد ظليل، فضربوا فيه حلقة الصيد، واذا بغزالة تقع في الحلقة، فهتف الملك برجاله:

-كل من وثبت الغزالة من فوق رأسه ونجت قتلته..

فأنشأوا يضيقون عليها حلقة الصيد، وهي تروغ منهم وتثب يميناً وشمالاً، حتى دنت من الملك فوقفت على رجليها الخلفيتين ووضعت رجليها الاماميتين على صدرها كأنها تريد تقبيل الارض امامه، فطأطأ الملك لها، واذا بها تثب من فوق رأسه وتنطلق هاربة...

فالتفت الملك إلى رجاله فوجدهم يتغامزون، فقال لوزيره:

ـ ماذا يقول هؤلاء؟

فقال: يقولون انك انذرت كل من تثب الغزالة من فوق رأسه بالموت!

فقال الملك وقد شعر بالخزي امام رجاله:

ـ والله لأتبعنها حتى أجيء بها.

وجرى وراء الغزالة، ولم يزل يتبعها حتى بلغت جبلاً وارادت أن تعبر وادياً هناك، فأرسل البازي في اثرها، فأخذ الطائر يلطمها في عينيها حتى اعماها ودوخها، فضربها الملك بدبوس فقتلها، وبادر إليها فذبحها وسلخها وعلقها بسرج جواده...

وكان الحر شديداً والغابة مقفرة ولا ماء فيها، وقد اشتد العطش بالملك وبرّح بجواده، فطفق يجيل انظاره فيما حوله حائراً منهوك القوى، فرأى شجرة تتساقط منها قطرات من الماء، فأخذ الاناء من عنق البازي وملأه من ذلك الماء وأدناه من فمه ليشرب، واذا بالبازي يلطم الاناء فيقلبه فأخذ الملك الاناء مرة ثانية وملأه من تلك القطرات، وقربه من البازي وقد ظن أنه عطشان فلطمه ايضاً فقلبه، فاغتاظ الملك من ذلك وملأ الاناء مرة اخرى وقدمه إلى الحصان، فوثب البازي عليه وقلبه بجنحه، فضاق الملك به وصرخ:

ـ لعنك الله يا اشأم الطيور، لقد حرمتني الشرب وحرمت نفسك وحرمت الحصان!

وضربه بسيفه فبتر جناحيه. وامسك بالإناء ليملأه من جديد. فأنشأ البازي يصرخ ويشير برأسه إلى اعلى الشجرة، فرفع الملك بصره فرأى فوق الشجرة حية كبيرة رقطاء، واذا الماء الذي يجمعه في إنائه قطرات من سمها...

فعرف الملك لماذا منعه البازي من شرب ذلك الماء، وندم على ضربه إياه وقصه جناحيه، وعاد بالغزالة إلى سرادقه والبازي على يده، ولكنه لم يكد يستقر في مجلسه حتى انتفض الطائر ومات... فبكى الملك حزناً واسفاً على ذلك الحيوان الامين الذي قتله ظلماً وقد انقذه من الهلاك!

الوزير المحتال

فلما سمع الوزير الحكاية التي رواها

الملك قال له متزلفاً:

ـ ايها الملك العظيم، انما قلت لك ما قلته عن الحكيم دوبان اخلاصاً لك وشفقة عليك، فان عملت به انقذت نفسك، وان ابيت ذلك ندمت وعلمت بعد فوات الاوان أن شأن هذا الحكيم شأن الوزير المحتال!..

فقال الملك: ومن هو هذا الرجل، وما قصته؟

قال الوزير وقد ابى الا أن يسير بالخطة التي وضعها حتى النهاية:

ـ كان لأحد الملوك ولد مولع بالصيد والقنص، قد عهد بتربيته إلى أحد وزرائه وأمره بأن يكون معه اينما ذهب، فخرج الولد يوماً إلى الصيد ومعه وزير ابيه، فبدا لهما وحش كبير، وكان الوزير يكره الملك ويمقت ابنه ويطمع بالملك لنفسه ولاولاده من بعده، فاغرق الولد بمطاردة الوحش لعله يقتله، وقال له:

ـ دونك هذا الوحش فاطلبه فإنها فرصة ثمينة لاظهار قوتك وبراعتك.

فجدّ الفتى في طلب الوحش وحو يحسب أن الوزير يتبعه كما امره ابوه، وما زال يقتفي اثره حتى اعياه امره وغاب عن عينه، فنظر فاذا هو قد بعد عن رفاقه وجنده، وضلّ عن الطريق، وصار إلى برية قفراء لا يهتدي المرء فيها إلى سبيل...

وبينما هو يضرب في تلك الفلوات المجهولة، اذا بصبية حسناء قد جلست هناك بمفردها وهي تبكي وتسترسل في النحيب، فسألها عن شأنها فقالت:

ـ انني ابنة احد ملوك الهند، وقد كنت في البرية مع اهلي وجندي فأدركني النعاس فوقعت من على جوادي، ولم انتبه من نومي، فلما افقت وجدت نفسي وحيدة في هذه القفار، فأخذت اضرب فيها على غير هدى، حتى وصلت إلى هذا المكان، ولست ادري اين هو من ملك ابي.

فرثى الفتى لحالها، وحملها وراءه على ظهر جواده، ومضى يحاول أن يهتدي إلى الطريق، فمر بانقاض وخرائب، فقالت له الفتاة:

ـ فلننزل هنا فنتمتع بقليل من الراحة...

فترجلا وجلسا برهة، ثم تركته واختفت بين الانقاض فأخذ يبحث عنها، فرأى غولة شنيعة الهيئة مع غيلان صغار

وهي تقول لهم:

ـ لقد أتيتكم اليوم بغلام سمين، وأني لاوصيكم به خيراً...

فيجيبها الغيلان الصغار:

ـ أئتينا به يا اماه لنرعاه في بطوننا...

ثم رأى تلك الغولة تنكفيء نحوه وقد تحولت صبية حسناء بريئة النظرة، فأيقن بالهلاك لأنه ادرك أنها رفيقته التي زعمت له أنها ابنة أحد ملوك الهند فرثى لحالها وحاول انقاذها.

ولما رأته مضطرباً مرتعداً دنت منه مواسية وقالت له بمودة ومحبة:

ـ ما بالك خائفاً يا عزيزي؟

فاجاب: أن لي عدواً اخشى كيده...

فقالت: انك تزعم انك ابن ملك!

ـ نعم!

ـ فما لك لا تدفع لعدوك شيئاً من المال ترضيه به؟

ـ أنه لا يرضى الا بالروح، وانا خائف منه... ولست ادري كيف ادفع عني ظلمه!

فقالت الفتاة ساخرة:

ـ أن كنت مظلوماً كما تقول فاستعن عليه بالله فلعله يكفيك شره!

فسرّ الفتى بهذه الفكرة ورفع رأسه إلى السماء قائلاً:

ـ يا من يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف عنه السوء، انصرني على عدوي واصرفه عني انك على ما تشاء قدير...

ولم يكد يتم دعاءه حتى اختفت تلك الغولة عن نظره، فاسرع إلى امتطاء جواده، وما زال يحفزه على الانطلاق به حتى اهتدى إلى طريق اوصلته إلى قومه سالماً، فروى لابيه ما حدث له فغضب على وزيره المحتال وامر بضرب عنقه.

الملك يصدق وشاية وزيره

قال الوزير: وانت ايها الملك أن وثقت بهذا الحكيم الدجال واسترسلت اليه، فإنه يغدر بك ويعمل على هلاكك.. لقد شفاك من مرضك بشيء امسكته بيدك، وهو قادر على قتلك بمثل هذه السهولة.. وفي رأيي أنه جاسوس اراد التقرب منك بهذه الطريقة حتى أذا أمنت جانبه وسكنت إليه قضى عليك من حيث لا تشعر...

فاثارت اقوال الوزير مخاوف الملك يونان، وما لبث أن قال:

ـ صدقت ايه الوزير، ما أحسب الا أن

هذا الرجل جاسوس قد ارسله اعدائي لهلاكي، وما دام قد شفاني بشيء امسكته بيدي ففي وسعه أن يميتني بشيء انظر اليه او اشمه.. فكيف العمل؟

قال الوزير مندفعاً متحمساً:

ـ اغدر به قبل أن يغدر بك.. ونصيحتي إليك أن تبادر منذ الآن فترسل في طلبه ومتى حضر ضربت عنقه وكفيت شره...

فبادر الملك من ساعته فارسل إلى الحكيم دوبان أن يوافيه إلى القصر، فاقبل الحكيم مشرق الوجه مطمئن الضمير، وكان من عادته اذا دخل على الملك أن يمدحه بقصيدة فلما مثل بين يديه انشد قائلاً:

اذا لم اقم في بعض حقك بالشكر

فقل لي لمن اعددت نظمي او نثري

لقد جدت لي قبل السؤال بأنعم

أتتني بلا مطل لديك ولا غدر

فمالي لا اعطي ثناءك حقه

وأثني على جدواك في السر والجهر

سأذكر ما اوليتني من صنائع

يخف بها همي وأن اثقلت ظهري

فلم يستقبله الملك ببشره المعهود، وانما وجد وجهه يتقد غضباً،فحسب أن هناك ما يقلقه ويمضه، فأنشده مشجعاً:

كن عن همومك معرضاً

وكل الامور إلى القضا

أبشر بخير عاجل

تنسى به ما قد مضى

فلرب امر متعب

لك في عواقبه رضى

فابتدره الملك بقوله:

ـ اتعلم لماذا احضرتك؟

فقال الحكيم: كلا!

قال: احضرتك لأقتلك وأزهق روحك...

فعجب دوبان من قول الملك وسأله:

ـ لماذا تقتلني ايها الملك، وأي ذنب بدا مني؟

فأجاب: لقد قيل لي أنك جاسوس يريد قتلي، وسأقتلك قبل أن تغدر بي.

فقال الحكيم دهشاً مستنكراً:

ـ كذب من قال ذلك.. والله ليس بين رعيتك من هو اخلص لك مني..

فلم يلتفت الملك إلى قوله، وأمر جلاده أن يضرب عنقه والحكيم يتوسل ويقسم بأن ما سمعه عنه ليس إلا افتراء حاسد، والملك يقول له:

ـ اني لا آمن على نفسي الا اذا قتلتك، فانك شفيتني بشيء امسكت به وأخشى أن تقتلني بشيء المسه أو اشمه...

فقال الحكيم وقد ادرك أن النعم التي اغدقها عليه الملك قد اثارت الحسد في رجال الحاشية فافتروا عليه هذا الافتراء الشنيع:

ـ اهذا جزائي منك ايها الملك.. تقابل معروفي بالاساءة إلي...

فاصر الملك على غرمه قائلاً:

ـ لا بد من قتلك!

عزم الملك على اعدام دوبان

وعبثاً حاول رجال البلاط أن يثنوا الملك عن رأيه، مذكرين اياه بحكمة دوبان وفضله وما عليه من دين عظيم، فقد ابى الا أن ينفذ مشيئته الغاشمة..

فقال الحكيم للمرة الاخيرة وقد خامره غضب شديد:

ـ ايها الملك، ابق عليّ يبق الله عليك ولا تقتلني لئلا يقتلك الله!...

فكان جواب الملك الطاغية الذي اخرجه الخوف الارعن عن صوابه، أن أمر الجلاد بقطع رأس الحكيم، فقال دوبان وقد تحقق من موته:

ـ ايها الملك، أن كان لابد من قتلي فامهلني حتى امضي إلى داري فأوصي أهلي وأبرىء نفسي، وأهب كتبي لمن ينتفع بها وينفع الناس، ولك عليّ أن اهديك أثمن كتبي وهو كتاب «خاص الخاص» لتضعه في مكتبتك.

قال الملك: وماذا يحتوي هذا الكتاب؟

قال الحكيم: فيه فوائد لا تحصى، واقل ما فيه من الاسرار انك اذا قطعت رأسي وفتحت ست ورقات وقرأت ثلاثة اسطر، فأن الرأس يكلمك ويجيبك عن كل ما تسأل:

قال الملك وقد تولته الدهشة وأثاره الفضول واستخفه الطرب:

ـ احق ما تقول؟ هل يكلمني رأسك بعد فصله عن عنقك؟

فاجاب الحكيم بالايجاب: فقال الملك:

ـ والله لافعلن ذلك، فارى اصادق أنت ام كاذب!

ثم ارسله إلى داره مخفوراً، فقضى اعماله وعاد ومعه كتاب عتيق ومكحلة فيها ذرور، فلما دخل على الملك طلب من الحاجب أن يأتيه بنطع، ثم رش الذرور الذي معه في النطع، وقال ليونان:

ـ ايها الملك، خذ هذا الكتاب ولا تفتحه حتى تقطع رأسي، فإذا قطعته فاجعله في النطع فوق الذرور، يكف دمه عن النزيف، ثم افتح الكتاب كما قلت لك.

رأس الحكيم

فأخذ الملك الكتاب منه وأمر بضرب عنقه، فاطاح الجلاد رأسه وسط النطع، وجعله فوق الذرور فتوقف دمه عن النزيف، واذا بذلك الرأس المفصول عن جسده يفتح عينيه ويقول للملك الظالم:

ـ افتح الكتاب ايها الملك...

فبهت الحاضرون ودهش الملك، وبادر إلى الكتاب ليفتحه فوجد صفحاته بعضها لاصق ببعض، فأنشأ يلمس شفته باصبعه ويفتح بها صفحات الكتاب بجهد حتى فتح ستاً منها وهو لا يجيد فيها كتابة، فالتفت صوب الرأس المقطوع وقال له:

ـ ايها الحكيم، ليس في هذا الكتاب كتابة ما!

ثم سقط عن عرشه وهو يتمتم:

ـ لقد قتلني هذا اللعين!

وما لبث أن اسلم الروح..

فنظر الرأس المقطوع إلى الجثة التي سقطت إلى جانبه وقال:

تحكموا واستطالوا في تحكمهم
وعن قليل كأن الحكم لم يكن
لو انصفوا انصفوا لكن بغوا فبغى
عليهم الدهر بالآفات والمحن

واصبحوا ولسان الحال ينشدهم:

هذا بذاك، ولا عتب على الزمن

ثم اغمض الرأس عينيه وفارقته الحياة.

فتكلم الرأس المقطوع قائلاً:

ـ كم صفحة قلبت؟

ـ ست صفحات.

فاقلب الصفحة السابعة تجد فيها ما تنشد.

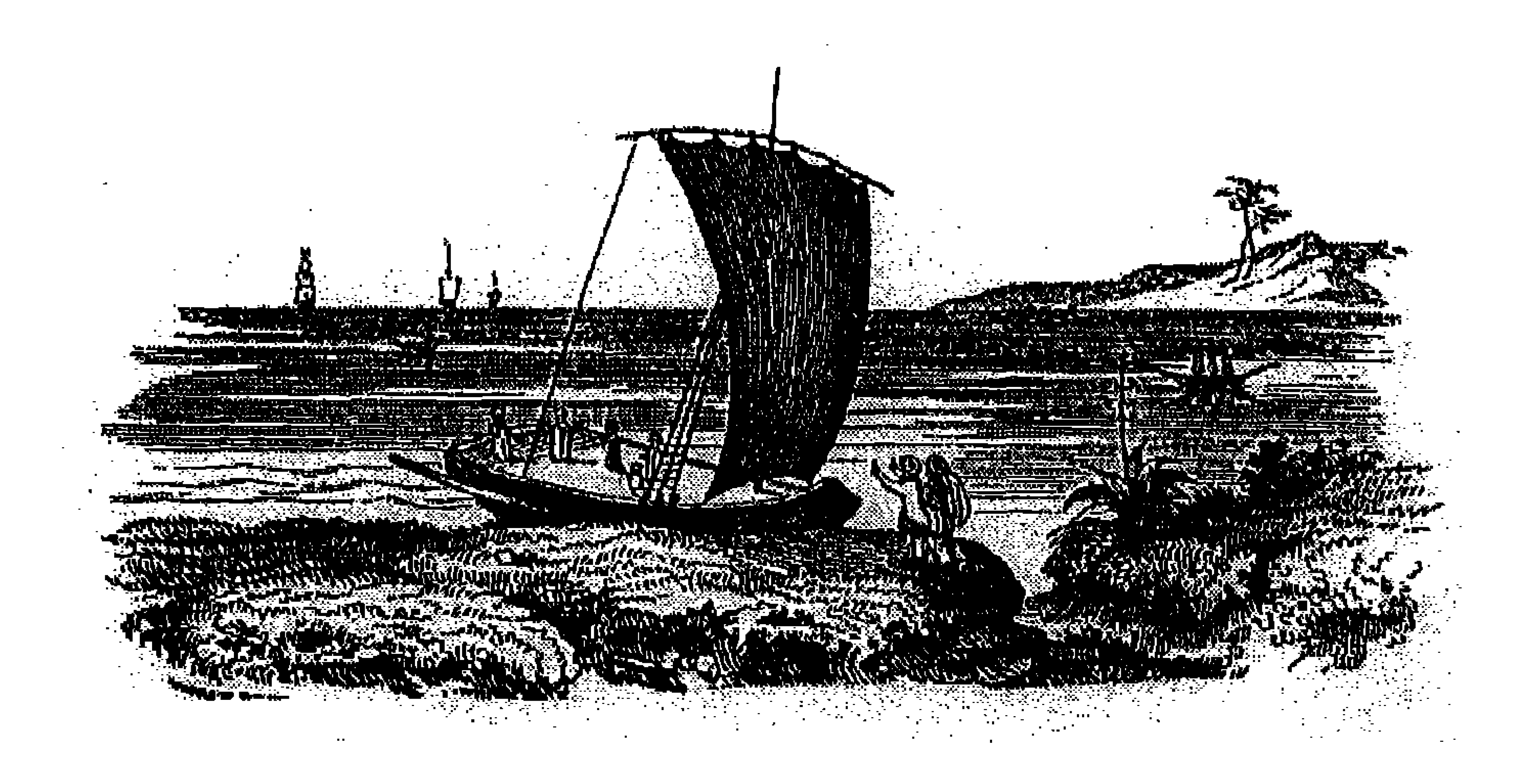
فقلب الملك صفحة اخرى وقرأ فيها:

مصرع الباغي وخيم

ولم يكد يتم قراءة هذه الجملة الحكيمة، حتى أحس أن احشاءه تتمزق، فأدرك المكيدة التي دبرها له ذلك الرجل الحكيم، وصرخ برجاله:

ـ انقذوني فإن الكتاب مسموم...





السمكات الملونة

قال الصياد للعفريت: لو لم تمكر بي وتحاول قتلي لابقيت عليك، ولكنك اردت أن تحاربني على معروفي كما جازى الملك الظالم ذلك الحكيم الذي شفاه من داء اعجز نطس الاطباء، فيجب أن ابقيك في سجنك والقي بك إلى اعماق البحر، عقاباً لك على اثمك ونكرانك للجميل مثلما عاقب الله ذلك الملك الطاغية..

فصرخ المارد من داخل القمقم:

ـ بالله عليك ايها الصياد، لا تفعل ذلك وابق عليّ ولا تعاملني بعملي، واذا كنت مسيئاً فكن انت محسناً، وفي المثل: يا محسناً لمن اساء يكفي المسيء فعله؟

ـ فهل اصغيت انت لرجائي وتوسلي كي اصغي اليك الآن؟.. كيف ارحمك ولم ترحمني وتشفق عليّ.. لقد اردت قتلي بغير ذنب، اما انا فاني اقتلك بذنبك.

ـ لا تقدم ايها الصياد على هذا العمل الشنيع، واذكر أن الانتقام ليس من المروءة في شيء، وخير منه هو العفو عند المقدرة، ومقابلة الاساءة بالاحسان.. وثق بانك أن اطلقتني عرفت لك هذه المروءة، فلا اسيء اليك ابداً، وانما ادلك على امر يغنيك..

وما زال العفريت يتوسل إلى الصياد من جوف القمقم، ويغريه بانتشاله

واسرته من البؤس والفقر، حتى اشفق واثر اغراؤه فيه، فأخرجه من محبسه بعد أن عاهده على الا يؤذيه، واقسم له على ذلك باسم الله الاعظم.

وفتح الصياد فم القمقم، فتصاعد الدخان منه، وانبسط على الارض والبحر، ثم تجمع وصار عفريتاً سوياً، وبادر من فوره إلى القمقم فالقاه في اعماق البحر..

فلما رأى الصياد هذه البادرة السيئة تخوف من عاقبتها، وايقن بالهلاك، وقال له:

ـ ايها العفريت، قال الله تعالى: واوفوا بالعهد أن العهد كان مسؤولاً! وانت قد عاهدتني واقسمت لي على الا تغدر بي، ولن تنجو أن قتلتني من غضب الله، فأنه عادل يمهل ولا يهمل..

البحيرة المسحورة

فضحك العفريت وطمأنه على نفسه، ودعاه إلى اتباعه، فسار وراءه وهو مضطرب لا يدري ماذا يريد أن يصنع به.

واستمرا في سيرهما حتى بلغا ظاهر المدينة، وصعدا إلى جبل هناك، ثم انحدرا منه إلى برية واسعة فيها بحيرة، فنزل العفريت إلى شاطئها وامر الصياد بأن يتبعه، واذا في البحيرة سمك ملون بالوان شتى، فيه الابيض والاحمر والازرق والاصفر، فدهش الصياد لذلك، فقال العفريت:

ـ لا تدهش، والق شبكتك فيء هذا الماء، ثم اذهب إلى السلطان بما تصطاده من هذه الاسماك، يدفع لك من المال ما يغنيك.. ولا تصطد من هذه البحيرة الا مرة في كل يوم.. واعذرني لأني لم اكافئك بشيء أثمن، فاني لم اتبين بعد دروب الحياة وقد انقضت على الوف السنين وانا في جوف البحر، ولم ار ظاهر الدنيا الا في هذه الساعة..

ثم ضرب العفريت الارض بقدمه فانشقت من تحته وابتلعته..

والقى الصياد شبكته في البحيرة وجذبها فوجد فيها اربع سمكات ذات الوان مختلفة، فاسرع بها إلى بيته حيث وضعها في اناء مملوء بالماء، فاختلجت قليلاً ثم اخذت تسبح فيه، فحمله ومضى به إلى الملك فقدمه اليه.

جنّية في مطبخ الملك

كافأ الملك الصياد على هديته الثمينة

باربعمائة دينار، وارسل تلك السمكات العجيبة التي لم ير في حياته سمكاً بهيئتها ولونها، إلى جارية رومية لتعدها وتطهيها، فانطلق الصياد فرحاً بغنيمته وكأنه في حلم، فهو لم يجد في جيبه طول حياته مثل هذا المبلغ الضخم، ومر بالسوق فاشترى لزوجه واولاده كثيراً من الامتعة والاطعمة والالعاب، في حين انشأت الجارية الرومية تعد السمك ليكون طعاماً للملك.

وبينما هي منصرفة إلى عملها، وقد وضعت السمكات الاربع في المقلاة على النار، واذا بحائط المطبخ قد انشق وخرجت منه صبية جميلة ترتدي وشاحاً ازرق، وفي اذنيها ومعصميها واصابعها جواهر ثمينة، وبيدها قضيب من الخيزران..

ودنت تلك الصبية من المقلاة، فغمست فيها قضيب الخيزران، وقالت:

ـ يا سمك.. يا سمك.. هل انت على العهد القديم؟

فرفعت السمكات الاربع رؤوسها من المقلاة واجابت:

ـ نعم.. نعم..

ثم قالت السمكات الملونة للجنية الحسناء:

أن عدت عدنا وأن وافيت وافينا

وأن هجرت فانا قد تكافينا

فما كادت الجارية الرومية ترى ذلك وتسمع قول الجنية، وجواب السمكات، حتى غشي عليها وسقطت على الارض فاقدة الوعي..

فاعادت الجنية سؤالها ثلاث مرات، والسمك يجيبها ذلك الجواب في كل مرة، ثم قلبت المقلاة وعادت من حيث اتت، والتحم الحائط كما كان.. فلما افاقت الجارية لم تجد لها اثراً، ولكنها وجدت السمكات قد احترقت وغدت كالفحمة السوداء.. فخافت غضب الملك، وجعلت تندب حظها وتبكي بدمع غزير..

هذا امر عجيب

ثم مضت الخادمة إلى الوزير فاخبرته بما كان من امرها، فعجب من قولها وارسل إلى الصياد يأمره باحضار اربع سمكات ملونة.. فذهب الرجل إلى البحيرة واصطاد منها اربع سمكات ناسياً نصيحة العفريت له بأن لا يصطاد منها غير مرة واحدة في كل يوم، واتى بها

إلى الوزير فنقده اربعمائة دينار وحمل السمك إلى الجارية وقال لها:

- بادري إلى قليها لأرى ما يحدث لها..

فاسرعت الخادمة إلى اصلاح السمك ثم وضعته في المقلاة على النار، فلم يكد يستقر فيها حتى انشق الحائط، وبرزت منه تلك الجنية في هيئتها الاولى، وخاطبت السمكات الملونة بقولها:

- يا سمك.. يا سمك.. هل انت على العهد القديم؟

واذا بالسمكات الاربع ترفع رؤوسها وتردد البيت السابق:

أن عدت عدنا وأن وافيت وافينا

وان هجرت فانا قد تكافينا

ثم قلبت الجنية الحسناء المقلاة بقضيب الخيزران، عادت من حيث اتت، فالتحم الحائط كما كان..

فقال الوزير وقد عجب مما شاهده!

- هذا امر يجب ألا يخفى على الملك! وهرع إلى الديوان فاخبر الملك بما رآه، فقال:

- اريد أن ارى ذلك بعيني..

فارسل الوزير إلى الصياد فاحضر اربع سمكات اخرى، واعدتها الجارية ووضعتها في المقلاة، فاذا بالجنية تبرز من الحائط وتخاطب السمك فيجيبها شأنه في المرتين السابقتين، ثم تعود من حيث اتت، بعد أن تقلب المقلاة على الارض وتغدو السمكات الملونة كأنها فحمات سوداء.. والملك ووزيره يشهدان ذلك ويعجبان!

البحث عن السر

قال الملك لوزيره: هذا امر يجب الا نستهين به، فان لهذا السمك لشأناً يجب أن نعرفه:

وامر باحضار الصياد وقال له:

- ويلك من اين اتيت بهذا السمك؟

فقال: من بحيرة بين اربعة جبال رأيتها خلف هذا الجبل الذي يبدو من هنا..

قال: ما هي المسافة التي تفصلنا عنها؟

فقال: مسيرة ساعة يا مولاي.

فبادر الملك إلى الخروج مع زوجته وجنده، والصياد يتقدمهم مرشداً اياهم إلى الطريق، وهو يلعن العفريت على

المأزق الذي زجه فيه ويخشى منه على حياته.. حتى اذا ما صعدوا الجبل انحدروا منه إلى برية رحيبة، ووجدوا في منتصف تلك البرية بين اربعة جبال شاهقة، بحيرة كبيرة لم يسبق لاحد منهم أن رآها هناك، والسمك فيها اربعة الوان: احمر وابيض واصفر وازرق..

فسأل الملك اصحابه وهو يتأمل ذلك المشهد:

ـ هل منكم من رأى هذه البحيرة من قبل؟

فاجابوا جميعاً بأنهم لم يروا البحيرة ولا الجبال المحيطة بها قبل ذلك الحين..

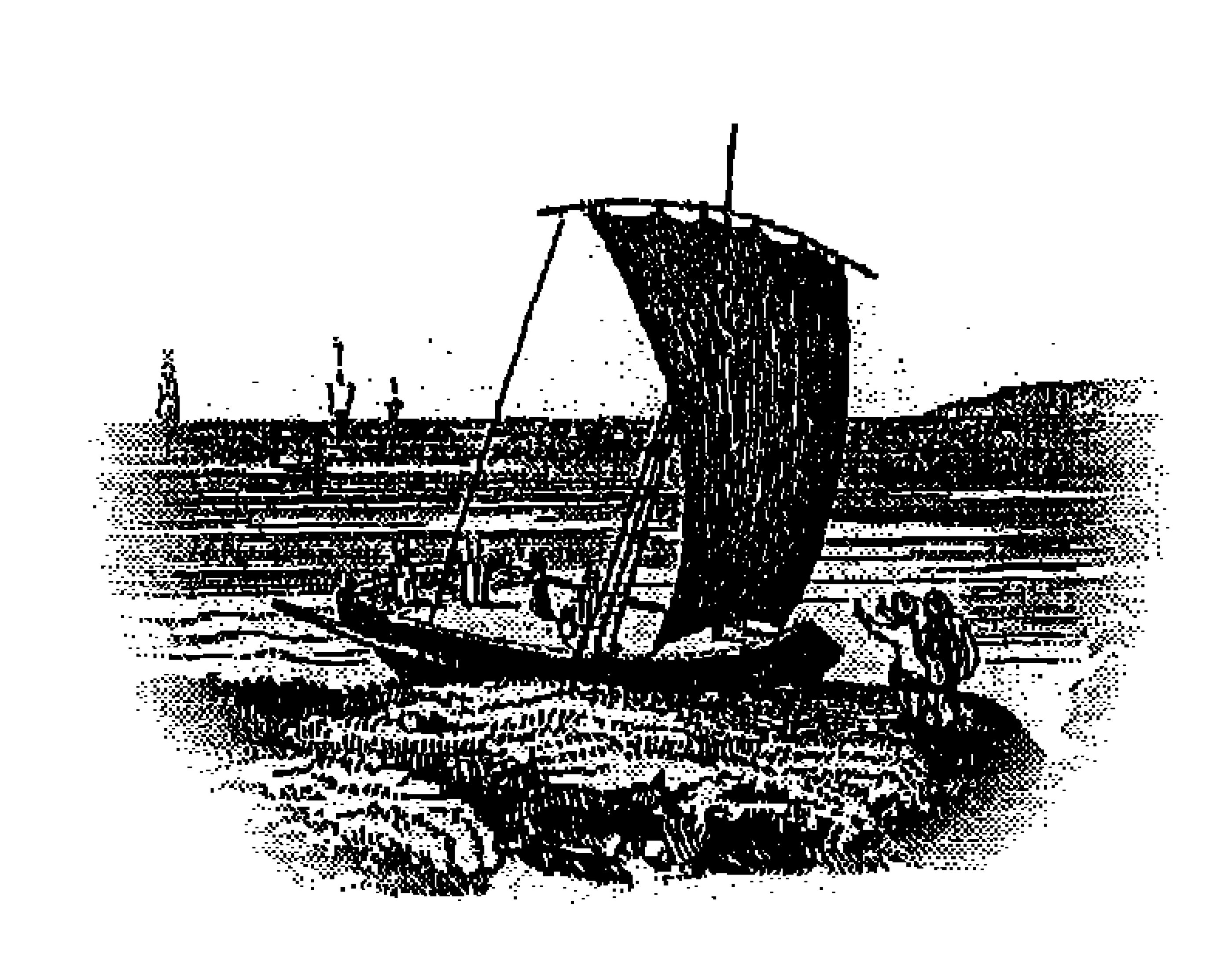
فسأل الطاعنين في السن، فأجابوا مثل ذلك..

فقال وقد تعاظمت دهشته:

ـ والله لا ادخل مدينتي ولا اجلس على عرشي، حتى اعرف امر هذه البحيرة وهذا السمك!..

وامر الناس بالنزول حول تلك الجبال، ثم دعا وزيره وقال له:

ـ لسوف انطلق هذه الليلة بحثاً عن خبر هذه البحيرة وهذا السمك، فاجلس انت على باب خيمتي متظاهراً اني انفرد بنفسي فيها، ولا تدع احداً يدخل عليّ.. ولا تنبىء احداً بأمري مهما طال غيابي وازعم للناس اني مريض..





الشاب المسحور

تنكر الملك وتقلد سيفه، ومضى يضرب في جوف الليل، وكانت الليلة قمراء والدنيا تسبح في النور الفضي، وقد سجا السكون فلا تسمع حركة ولا نأمة.. فارتقى احد الجبال الاربعة وصعد إلى قمته، ونظر إلى السهل الافيح يمتد من تحته امتداد البصر، ثم انحدر منه وارتقى جبلاً آخر، فبلغه عند انبثاق الفجر، فما زال يرود ارجاءه ويتجول في شعابه ويستريح بين حين وآخر في ظلال صخوره، حتى انقضى النهار او كاد، فهبط منه وصعد الجبل الثالث والليل يلف الارض بوشاحه الاسمر..

القصر الاسود

ولم يكد يتقدم قليلاً نحو ذروة هذا الجبل، حتى لاح له من بعيد شيء اسود، فدنا منه وقلبه يخفق فرحاً، فوجد قصراً منيفاً من الحجارة السوداء، فطفق يدور حوله، واذا به امام باب كبير مصفح بالحديد، وقد انفتح احد مصراعيه، فطرقه طرقاً خفيفاً فلم يجبه احد، فطرقه ثانية بقوة اكبر فلم يسمع جواباً، فايقن

بأنه خال، ودخل إلى الدهليز وصرخ باعلى صوته:

- يا اهل القصر.. رجل غريب، وعابر سبيل، فهل عندكم شيء من زاد؟

وكرر نداءه مرة ومرة، فلم يسمع غير الصدى. فأنشأ يسير حذراً متماهلاً حتى بلغ منتصف القصر، فوجده مفروشاً بالحرير الاسود والديباج الاسود، وقد ارخيت على نوافذه الستائر المخملية السوداء، وفي وسطه اواوين ضخمة، وحوض من الماء حوله اربعة سباع من الذهب الاحمر تلقي الماء من افواهها في الحوض الجميل.

وطفق الملك يتجول في ابهاء القصر وغرفه المفروشة بافخم الرياش، وهو آسف لخلوه من اي انسان يستطيع أن يفسر له سر البحيرة العجيبة والسمك الملون، فتعجب من اختيار السواد لوناً لأثاثه ورياشه..

انسان نصفه حي ونصفه من حجر

ولكنه ما عتم أن سمع انيناً خافتاً متقطعاً، يتصاعد من احدى الغرف النائية، ثم اتضح الصوت وسمع رجلاً يتأوه ويردد بحزن عميق:

- ايها الموت انقذني مما أنا فيه، فقد كفاني الماً وعذاباً..

فدنا الملك من تلك الغرفة فوجد ستاراً اسود مسدلاً على بابها، فرفعه فرأى خلفه شاباً جميلاً رشيق القد، ازهر الجبين قد جلس على سرير مرتفع عن الارض وعليه قباء من حرير مطرز بالذهب، وإلى جانبه تاج مرصع بالجواهر الكريمة..

ففرح الملك لرؤية الشاب وسلم عليه، فرد عليه السلام رداً رقيقاً واعتذر لعجزه عن القيام، فقال الملك:

- لقد عذرتك ايها الفتى، وانا ضيفك فارجو أن تنبئني عن سر هذه البحيرة والسمك الذي فيها، وعن سر هذا القصر الخالي المجلل بالسواد، وعن سبب وحدتك فيه وبكائك وانينك، فلعلي استطيع مساعدتك.. وثق باني على استعداد لبذل الكثير في سبيل ذلك..

فما كاد الفتى يسمع كلامه حتى استرسل في البكاء وهو يتمتم:

- ايها الحظ ما اعظم تقلبك، وما أكثر ما تحط اناساً قد رفعتهم من قبل:

واين في الدنيا اولئك الذين صفوت

لهم طوال العمر!

فقال الملك متأثراً:

- ما الذي يبكيك ايها الشاب؟

فقال الفتى وقد كشف ثوبه عن ساقيه:

- وكيف لا ابكي وهذه حالتي؟!

فتأمله الملك فاذا نصفه الاعلى حي ونصفه الاسفل من حجر.. فعجب من امره وقال:

لقد زدتني ايها الفتى هماً وشجناً.. كنت اطلب خبر السمك وحده وانا ارجو الان معرفة خبره وخبرك.. فانا ملك بعيد النفوذ واني لابذل سلطاني كله في سبيل انقاذك مما انت فيه.

الزوجة الساحرة

قال الفتى: أن لهذا السمك ولي امراً عجيباً.. كان والدي واسمه محمود ملك هذه الدولة التي تسمى«الجزائر السود»، وقد اشتق اسمها من الجبال الاربعة التي تراها في هذه البقعة، لان هذه الجبال كانت في الماضي جزراً، وكانت العاصمة التي يقيم بها ابي مكان تلك البحيرة التي رأيتها ودهشت لامرها..

وقد استمر ابي في الملك سبعين عاماً ثم توفي وتوليت الملك من بعده، وتزوجت من ابنة عمي فاحاطتني بحبها ورعايتها خمس سنوات، وقد بلغ من شغفها بي انها كانت لا تأكل ولا تشرب الا اذا كنت عندها.

وفي ذات يوم ذهبت زوجتي إلى الحمام، فاوصيت الطباخ بأن يجهز طعاماً لعشائنا، ودخلت إلى القصر فامرت جاريتين بان تجلسا عند قدمي وفي يد كل منهما مروحة، وحاولت أن انام قليلاً.. ولكني لم استطع الرقاد لان غياب زوجتي قد طال فساورني القلق عليها، فبقيت مستلقياً مغمض العينين مستيقظ الروح، فاذا بالجاريتين تتهامسان وقد اعتقدتا باني راقد، او انهما شعرتا بقلقي ويقظتي فتظاهرتا بذلك لتطلعاني على ما تريدان قوله.. فقالت احداهما:

- مسكين سيدنا يا مسعودة، ويا خسارة شبابه الذي يقضيه مع زوجته الساحرة..

فاجابتها الجارية الثانية:

- نعم.. لعن الله النساء الخائنات.. أن مثل سيدنا لا تليق به هذه المرأة وخليق

به أن يتزوج احسن النساء!

فقالت الاولى: أن سيدنا مغفل لا يسأل عن زوجته ولا يشعر بما تأثم في حقه!

وقالت الثانية: ويلك.. هل لسيدنا علم بذلك.. وهل هي تدع له مجالاً لاكتشاف سرها؟ الا ترين انها تسقيه المخدر كل ليلة في الشراب الذي يشربه قبل نومه، فيرقد رقاداً عميقاً حتى الصباح، وتسرع هي إلى ارتداء ثيابها من القصر لموافاة عشيقها إلى حيث ينتظرها، ثم تعود مع الفجر فتوقظه من نومه برائحة معطرة تدنيها من انفه..

عشيقة العبد

فلما سمعت حديث الجاريتين نهضت غاضباً مضطرباً، وقلبي يجيش حقداً على تلك الزوجة الخائنة، وانتظرت حتى عادت من الحمام واقبل الليل، فأكلنا وتناومنا كعادتنا، ثم دعت بالشراب الذي اشربه كل ليلة قبل نومي وناولتني اياه، فغافلتها واهرقت ما في الكأس، واعدته إليها فارغاً لاوهمها باني شربته، واستلقيت في فراشي متظاهراً بالنوم العميق..

ولما خيل إليها اني رقدت، اقبلت نحوي وقالت:

- نم ليلتك بطولها ولا تنهض ابداً..

فقد كرهتك، وكرهت صورتك، وملّت نفسي عشرتك، ولا ادري متى يقبض الله روحك ويريحني منك!

ثم ارتدت افخر ثيابها وتزينت وتعطرت، واخذت سيفي فتقلدته، وغادرت القصر.. فهرعت وراءها اقتفي اثرها، فاذا بها تجتاز السوق إلى باب المدينة، فتتكلم بكلام لا افهمه فتتساقط الاقفال ويفتح الباب، فتخرج واخرج انا خلفها دون أن تشعر بي.

وما زالت تجدّ في السير حتى بلغت حصناً فيه قبة مبنية بطوب، فدخلت واغلقت الباب وراءها.. فتسلقت الجدار، وصعدت إلى سطح القبة، واشرفت منها.. فاذا بزوجتي قد دخلت على عبد اسود اللون قبيح الخلقة قذر الثياب، مستلقٍ على فراش من القش، فقبلت الارض بين يديه، فنظر إليها غاضباً وقال لها:

- ويلك لماذا تأخرت إلى هذه الساعة؟

فقالت متذللة متضرعة:

ـ يا سيدي.. اما تعلم اني متزوجة بابن عمي الذي اكره صورته وابغض صحبته، ولولا أني اخشى عليك لما تركت الشمس تطلع الا ومدينته خراب، ينعق فيها البوم وتأوي إليها الذئاب، وانقل حجارتها إلى وراء جبل قاف..

فقال العبد مزمجراً:

ـ انك تكذبين يا لعينة.. واقسم بانك أن تأخرت بعد الآن إلى مثل هذا الوقت طردتك وهجرتك، يا قذرة يا حقيرة، يا اخسّى البيض..

فاشتعل قلبي غضباً، وشعرت بأن النار تضطرم في صدري، وابنة عمي واقفة امام العبد باكية متذللة وهي تقول له:

ـ يا سيدي ومولاي.. اذا غضبت عليّ فمن يبقيني، واذا طردتني فمن يؤويني..

الانتقام من العبد

وما زالت تتضرع إليه وتبكي عند قدميه، حتى رضي عنها وكف عن لومها، ففرحت وقالت:

ـ يا سيدي، اليس عندك ما تأكله جاريتك؟

فقال منتهراً:



ـ اكشفي هذا القدر فان فيه عظاماً وفئراناً مسلوقة فكليها، وخذي هذه القارورة من الخمر فاشربيها..

فاقبلت تأكل وتشرب بشهية عظيمة وغبطة لا حد لها، وهي تنادمه وتضاحكه.. وانا انظر اليهما وقلبي يتمزق الماً وغضباً..

ثم نزلت من القبة وانا متلثم، ودخلت الغرفة وهما لا يشعران بي، فاخذت السيف الذي جاءت به ابنة عمي، واغتنمت فرصة ذهابها إلى المطبخ لتغسل يديها،

وانشغال العبد بتهيئة فراش القش، فشهرت السيف وضربت به عنق العبد ضربة قوية، فاخذ يشخر شخيراً عالياً، فحسبت اني قتلته، وساورني الفزع فلم الحق به زوجتي كما اعتزمت، بل عدت ادراجي إلى المنزل مخافة أن تشعر بي فتؤذيني بسحرها..

بيت الاحزان

عدت إلى قصري واويت إلى فراشي متظاهراً بالرقاد في انتظار ابنة عمي لارى ما يكون من امرها، فاذ هي تقبل مع الصبح فتوقظني، فنظرت إليها فاذا بها قد قطعت شعرها ومزقت ثيابها، فسألتها عن امرها فقالت:

- لا تعارضني يا ابن عمي فيما افعل، فقد بلغني أن والدتي توفيت، وان والدي قتل في الجهاد، وان اخوي قد مات احدهما ملسوعاً وسقط السقف على الثاني فقضى تحت الانقاض.. افلا يحق لي الحزن ويجب عليّ البكاء؟!

فقلت لها: اصنعي ما بدا لك.

فطفقت تبكي وتنتحب وتمزق شعرها وتلطم خديها.. وظلت كذلك شهوراً عديدة.. وانا صابر عليها مخافة شرها من ناحية، ورفقاً بها لانها ابنة عمي من ناحية اخرى..

وقالت لي يوماً:

- اريد أن تبني لي وسط الحديقة في قصرك مدفناً مثل القبة افرده للحزن واسميه«بيت الاحزان»..

فنظرت إليها بازدراء وأجبتها قائلاً:

افعلي ما تشائين..

فبنت بيتاً للحزن، وأنشأت في وسطه قبة وضريحاً، ثم احضرت العبد ووضعته هناك، فاذا به لا يزال على قيد الحياة، ولكن سيفي قد حز عنقه، فغدا اشبه بالاموات، وفقد القدرة على الكلام والحركة، ولم يبق عليه غير سحرها وعنايتها..

وكانت تتفقده في كل ساعة، تناجيه برقيق الكلام، وتطعمه وتسقيه وتعنى بنفسها بكل شأن من شؤونه، وانا صابر لا تبدو مني بادرة تثير سخطها..

انتقام الساحرة

وفي ذات يوم دخلت القبة على غفلة منها، فرأيتها تجلس عند قدميه وتبكي بين يديه، وتقول له:

ـ حدثني يا روحي.. كلمني يا صديقي..

ثم انشدت:

فيوم الاماني يوم فوزي بقربكم

ويوم المنايا يوم اعراضكم عني

اذا بت في خوف اهدد بالردى

فوصلكم عندي الذ من الامن

ثم عادت إلى بكائها وندبها وهي تقول:

ولو انني اصبحت في كل نعمة

وكانت لي الدنيا وملك الاكاسرة

لما سويت عندي جناح بعوضة

اذا لم تكن عيني لشخصك ناظرة

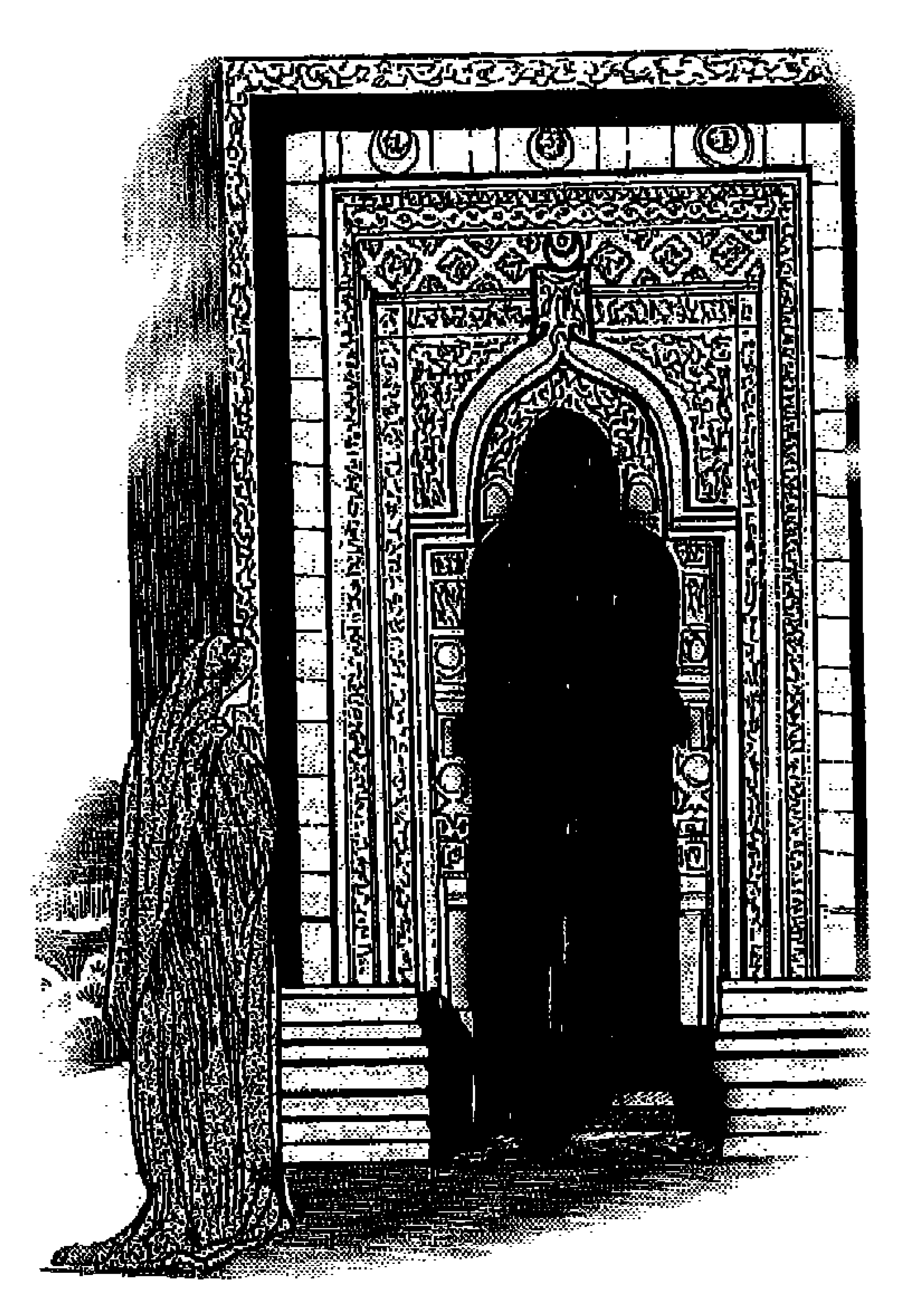
فاشتد حنقي عليها وقلت لها:

ـ يا ابنة عمي كفاك حزناً وهماً.. فما يجديك البكاء؟

فغضبت وانتهرتني بقولها:

ـ لا تتعرض لي في ما افعله والا قتلتك وقتلت نفسي..

فتركتها وعدت من حيث اتيت، غير أني لم البث أن عدت بعد ايام وانا ضيق الصدر مهتاج النفس، وقد طال بي ما



اقاسيه من عناء، فدخلت القبة فوجدتها تعفر وجهها على عتبة الضريح وهي تقول:

ـ ياسيدي انني لا اسمع منك كلمة واحدة تعيد الفرح إلى قلبي والسكينة إلى نفسي..

فجن جنوني وقلت لها:

ـ إلى متى هذا الحزن على رجل حقير قذر؟..

فوثبت إليّ صارخة بي:

ـ ويلك.. انك انت الذي فعل بي هذا وجرح صديقي وحرمني اياه، وتركه لا هو حي ولا ميت..

فقلت: نعم.. انا الذي فعلت ذلك.

وجردت سيفي واقبلت نحوها اريد قتلها، فاذا بها تضحك غيظاً وتقول في حقد عظيم:

ـ لقد مكنني الله ممن فعل بي هذا، واوقد في قلبي ناراً لا تنطفىء ولهيباً لا يخمد..

ـ اخرج بسحري نصفك حجر ونصفك بشر..

فصرت من فوري كما تراني الآن!

واشتد غيظ المرأة فسحرت المدينة فتحولت إلى بحيرة، وكان في مدينتنا اناس كثيرون مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، فانقلبوا كلهم سمكاً ،البيض منهم هم المسلمون، والحمر هم المجوس، والزرق هم النصارى، والصفر هم اليهود.. اما الجزر الاربع فقد جعلتها جبالاً اربعة تحيط بالبحيرة من جميع جهاتها..

قال الفتى المقعد وقد اهتاجت شجونه:

ـ وفي كل يوم تقبل ابنة عمي إليّ فتجلدني بالسوط مائة جلدة حتى يسيل دمي ويتمزق جسدي، ثم تلبسني ثوباً خشناً من الشعر، وتضع هذه الثياب الحريرية فوقها!

مقتل العبد

فتأثر الملك لقصة الشاب واعتزم العمل على انقاذه، فسأله:

ـ اين ابنة عمك الآن، واين المدفن الذي يرقد فيه العبد الجريح؟

فقال: أن العبد راقد في مدفنه هناك، وهي تقيم في الغرفة المحاذية للباب، ولا تأتي إلى هنا غير مرة واحدة في كل يوم عند مطلع الشمس، فتبادر إلى جلدي بسوطها وانا لا استطيع دفاعاً، ثم تنزل إلى العبد فتطعمه وتسقيه وتطمئن على حاله..

فقال الملك في لهجة الحازم الواثق من نفسه:

ـ طب نفساً ايها الفتى واصبر حتى الغد، فعسى أن ينجيك الله من بلائك على يدي!

ومضى الملك يبحث عن العبد، فلما وجده ضربه بسيفه فقتله وخلع عنه ثيابه

ثم حمله على ظهره والقاه في البئر، وعاد إلى الضريح فارتدى ثياب العبد، ورقد داخله، وقد استل سيفه ووضعه إلى جانبه.. ولبث ينتظر المرأة الخائنة.. فاذا هي تقبل مع الصبح فتبادر إلى ابن عمها فتجرده من ثيابه وتنهال عليه بسوطها حتى تمزق جسده وسال دمه، وهويتوسل إليها صارخاً:

- ارحميني يا ابنة عمي.. كفاني ما انا فيه.. فتجيبه والحقد يضطرم في عينيها:

- وهل رحمتني انت وابقيت لي صديقي ايها الظالم الغادر؟!

انقاذ الشاب المسحور

ثم سارت إلى الضريح رفيقة الخطى لهيفة القلب، وأنشأت تبكي بدموع حارة وتخاطب العبد بقولها:

- يا سيدي.. قل لي كلمة واحدة تعيد إليّ املي في الحياة وبهجتي بنعيمها فقال الملك بصوت خفيض وقد قلد لهجة العبيد:

اواه.. اواه..

فرقص قلب المرأة فرحاً، وتألق وجهها غبطة وبشراً، وقالت:

- يا سيدي، هل صحيح انك تكلمت، ام أن وهمي هو الذي خيل إليّ ذلك؟

فاجاب بصوت خافت ولهجة غاضبة:

- وهل تستحقين الكلام كي اكلمك يا لعينة؟..

فازداد فرحها وقالت متوسلة:

- وما السبب يا مولاي.. لماذا غضبت عليّ؟

فقال: انك ما تفتأين تعاقبين زوجك وهو يبكي ويستغيث، ثم يقضي اليوم بطوله وهو يتضرع ويدعو الله عليّ وعليك، وقد ازعجني وحرمني النوم.. ولولا ذلك لشفيت منذ امد طويل..

قالت: اذن فهل تأمر بأن انقذه مما هو فيه؟

قال: انقذيه واريحينا من شكاويه.

فقالت سمعاً وطاعة..

وهرعت إلى القصر، وأخذت كأساً من الماء، وتكلمت بضع كلمات، فأنشأ الماء يغلي في الكأس ويفور، ثم سكبته على ابن عمها، واذا به ينتفض ويقف على قدميه انساناً حياً سوياً..

فنظرت إليه باحتقار وقالت له:

ـ اخرج من هنا ولا ترجع إلى هذا المكان والا قتلتك او اعدتك إلى ما كنت فيه. فغادر الشاب القصر فرحاً بخلاصه، وعادت هي إلى القبة وفرحتها مضاعفة لانها نفذت امر صديقها وسيدها!

معاقبة الزوجة الماكرة

وما كادت تدخل القبة حتى انشأت تتوسل إلى العبد أن يطل عليها من الضريح لتمتع عينيها بمرآه وتملأ قلبها من جماله، فقال لها الملك:

ـ وماذا صنعت يا لعينة؟ لقد ارحتني من الفرع ولم تريحيني من الاصل..

فقالت يا حبيبي ويا سيدي.. ما هو الاصل؟

فقال: ويل لك يا حقيرة.. أن الاصل هو اهل هذه المدينة والجزائر الاربع.. ففي كل يوم عند منتصف الليل، يرفع السمك رأسه ويستغيث ويدعو عليك وعليّ.. وهذا هو السبب الذي من أجله حرمني الله العافية.. هيا فانقذيهم جميعاً وتعالي إليّ فخذي بيدي واخرجيني من هذا المكان فقد تماثلت للشفاء..

فمضت إلى البحيرة جذلى، فتلت عليها بضع كلمات، واذا بالسمك يتراقص ويرفع رأسه ويتحول إلى بشر.. وزال السحر عن المدينة والجزر الاربع فعادت إلى ما كانت عليه من حياة وبهجة، وعاد الناس فيها إلى اعمالهم كأن لم يحدث شيء..

ورجعت المرأة الماكرة الساحرة إلى الضريح فقالت:

ـ ناولني يدك الكريمة يا سيدي.. وهيا بنا من هذا المكان إلى حيث نستمتع بمتارف الحياة..

فقال الملك: هل صنعت ما قلت لك؟

فقالت: نعم يا سيدي وحبيبي..

فقال: ادني مني..

فدنت حتى باتت ازاء القبر، فاستل الملك سيفه وطعنها في صدرها قبل أن تنتبه إليه، فسقطت على الارض جثة هامدة..

مكافأة الصياد

وخرج الملك من مخبأه فوجد الشاب المسحور في انتظاره على باب القصر، فهنأه بسلامته، وقبل الشاب يده شاكراً له صنيعه، فسأله الملك:

ـ هل تبقى في مدينتك أم تذهب معي

إلى مدينتي وعاصمة ملكي؟

فقال الشاب: ايها الملك الجليل، هل تدري ما بين مدينتك ومدينتي؟

فاجاب: مسيرة نصف ساعة.

فقال: أن بينك وبين مدينتك الآن مسافة سنة كاملة للمسافر الجاد في السير.. وانت لم تأت في نصف ساعة الا لأن هذه المدينة كانت مسحورة..

فعجب الملك من ذلك وعاد إلى رجاله وحاشيته الذين ما زالوا في انتظاره، فاخبرهم خبره. كما عاد الشاب المسحور إلى قصره بين وزرائه وجنده فحدثهم بما وقع له ولهم وخرج معهم لتشييع الملك الذي انقذه وانقذهم، وقد حملوا اثمن الهدايا إليه وإلى الصياد الذي كان السبب الاول في انقاذ الشاب المسحور ومملكته ورعيته جميعاً..

وسأل الملك ذلك الصياد عن اولاده، فاجابه أن له ابناً وبنتين ؟، فتزوج الملك احداهما وزف الثانية إلى الشاب المسحور، وجعل الولد اميناً على خزينته، وعاش الجميع في ظل السعادة والهناء..





الحمال والبنات الثلاث

وتتابعت الليالي ساجية حالمة وشهرزاد تروي لشهريار قصص الحياة، وما يتصارع فيها من حب وبغض وسعادة وبؤس، وكان من اطرف ما روته قصة الحمال والبنات الثلاث.. قالت شهرزاد:

حكي ايها الملك السعيد أن احد الحمالين في مدينة بغداد كان عزباً يائساً عاش في الوحدة والحرمان، فبينما هو واقف احد الايام في سوق المدينة متكئاً على قفصه، وقفت بجانبه امرأة ريانة القوام رخصة العود، ذات دلال وفتون، ملتفة بإزار موصلي من حرير، والتفتت اليه وقالت له بصوت عذب:

- احمل قفصك واتبعني

فما سمع الحمال هذا القول، حتى استطير فؤاده، وكاد يجن فرحاً وسروراً، وحمل القفص واسرع قائلاً في نفسه: «يا له من نهار سعيد موفق!» وسار يقتفي أثر الغانية إلى أن وقفت امام دار جميلة البنيان متقنة الصنع، فقرعت الباب، فاذا برجل نصراني يستقبلها، فاعطته مالاً

وأخذت منه شيئاً من الزيتون وضعته في قفص الحمال، واشارت إليه أن يتبعها أنّى تسير.

وما هي الا هنيهة حتى وقفت ثانية امام أحد الحوانيت، فاشترت منه تفاحاً شامياً وسفرجلاً عثمانياً وخوخاً واقحواناً وجلناراً والواناً أخرى من الفواكه والازهار، وقالت: «احمل!» فحمل وتبعها..

واخذت تنتقل به من حانوت إلى حانوت، فتبتاع اللحم والموز والفستق وجميع اصناف الحلوى، وتضعها في قفص الحمال، إلى أن قال:

- لو كنت اعلمتني لأتيت بجحش صغير تحمل عليه مثل هذه الحوائج! فنظرت إليه بخفة وظرف، وربتت بيدها الناعمة على كتفه قائلة:

- اسرع في مشيك وخل عنك الظلام، وأجرك حاصل أن شاء الله. ثم وقفت امام العطار وابتاعت زجاجات كثيرة من ماء الورد وانواع الزهر. وعنبراً ومسكاً وشمعاً اسكندرانياً واعطتها للحمال وقالت له:

- احمل قفصك واتبعني..

فحمل القفص وتبعها إلى أن اتت داراً عالية البنيان مشيدة الاركان امامها رحبة فسيحة، تحيط بها الحدائق الغناء، وتصدح في افنائها الطير، وتعبق منها روائح الجنة، وقد صفح بابها المصنوع من خشب الانبوس بصفائح الذهب الاحمر..

في مقصورة الحسان

وقفت الحسناء امام الباب ثم دقت دقاً لطيفاً ففتح على مصراعيه، فنظر الحمال إلى من فتحت الباب فإذا به يبهر بالجبين المشرق والهدب الناعس والقوام الممشوق والطلعة النضرة، وقالت البوابة هذه لاختها:

- قودي الحمال المتعب إلى داخل الدار!

وسار الثلاثة معاً إلى أن انتهوا إلى قاعة فسيحة غنية بالرياش، في وسطها بركة ماء واسعة، يتهادى على وجهها زورق جميل، وفي صدرها سرير مرصع بالجوهر غطي بستائر حريرية شفافة، وأرخيت عليه كلة من الاطلس الاحمر..

فأخذ يتأمله بعجب ودهش، واذا به يرى صبية وضاءة الحسن يهمهم السحر

في اعطافها وعلى ذراعيها اللدنتين، وترقد الفتنة في شعرها المسبل على كتفيها، صبية تبرز من بين غلالتين رقيقتين، ما حق الاعلى مثلها قول الشاعر:

كأنما تبسم عن لؤلؤ

منضدة او برد او اقاح

وطرّة كالليل مسبولة

وبهجة تخجل ضوء الصباح

ونهضت الصبية الثالثة من فوق السرير، وخطرت مهلاً تتثنى كالغصن الريان، وسارت إلى اختيها قائلة:

ــ ما وقوفكما؟ انزلا عن رأس هذا الحمال المسكين!

فانزلن القفص عن رأسه وافرغنه واعطينه دينارين وقلن له:

ـ اليك عنا ايها الحمال!

ثلاث... واربع!

فنظر الحمال إلى الصبايا الثلاث بغبطة وشوق كأنه يروي روحه بالتفرج بعرائس الربيع، ووقعت عيناه على ما عندهن من الزهور والعطور والفواكه، فاخذه العجب وتوقف عن الخروج، فقالت له احداهن:

ـ ما لك؟ لم لا تذهب؟

ثم التفتت إلى احدى أختيها قائلة:

ـ اعطيه ديناراً آخر.

فقال، ما استقللت الاجرة يا سيدتي، وانما اشتغل قلبي بكن.. فكيف تعشن وحدكن لا احد يؤنسكن بنغم طروب او لحن جميل او حديث ممتع.. واراكن ثلاثاً لا اربع لكن، وانتن تعرفن قول الشاعر:

اما ترى للهو قد جمعت

جنك وعود وقانون ومزمار

وليس يحسن ذا الا باربعة

حسن وروض وترنيم واشعار

وانتن ثلاث تحتجن إلى رابع يكون رجلاً لبيباً حاذقاً تطيب به مجالسكن وينشر السعادة بينكن، خبيراً بفنون الحديث، كاتماً للسر ودوداً.

فاعجبهن كلامه فضحكن وقلن:

ـ ومن لنا بذلك ونحن نخاف أن نودع اسرارنا من لا يحفظها، وقد قرأنا في بعض كتب الادب ما قال ابو النواس:

من اطلع الناس على سره

استوجب الغصة في قلبه

فقال الحمال وهو يستنشق عبيراً شهياً يملأ الجو من حوله :

ـ وحياتكن اني رجل كتوم للسر، امين على العهد، وقد قرأت في بعض كتب الادب ما اتخذته دستوراً لعلاقتي باصحاب السر، وهو قول الشاعر :

ما يكتم السر الا كل ذي ثقة

والسر عند خيار الناس مكتوم

السر عندي في بيت له غلق

ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

فتناظر البنات الثلاث وتهامسن ثم قلن له :

ـ ما ندعك تجلس عندنا الا بشرط، هو أن تكون مهذباً رصيناً لا تسأل عما لا يعنيك، والا ضربناك وطردناك.

فقال الحمال مبتهجاً :

ـ رضيت بهذا الشرط، ولن اكون الا كما تشأن أن اكون !

وقامت كبراهن وشدت وسطها بزنار من الحرير، واحضرت اطباق الطعام والفاكهة إلى جانب البركة وجلسوا يأكلون، وما زالوا يتسامرون وهم في ضحك وغناء وشعر وصفاء، إلى أن طاب للحمال المقام والاكل والراحة في ذلك النعيم، فطلب اليهن أن يرضين به خادماً عندهن، فقلن :

ـ نبقيك عندنا اذا كنت ممن لا يسألون عن كل ما يرون !

فقالت الكبرى وهي تتضاحك فرحة متهللة :

ـ قم واقرأ ما كتب على الباب.

فسار الحمال إلى حيث اشارت، وقرأ هذه الكلمات مكتوبة بماء الذهب«من تكلم بما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه»

فقال : إشهدن عليّ، اني لا اتكلم بما لا يعنيني»

فرضين به خادماً لهن.

الدراويش الثلاثة

وكان الليل قد انتصف او كاد، واذا بالباب يدق، فلم يختل نظامهن، وسارت احداهن إلى الباب ثم عادت وهي تقول ضاحكة :

ـ قد تم صفاؤنا هذه الليلة.

قالت الاختان مندهشتين :

ـ وما ذلك؟

قالت على الباب ثلاثة اعجام دراويش محلوقو الذقون والشوارب والحواجب والرؤوس، والثلاثة عور بالعين اليسرى، وهذا من عجيب الاتفاق.. وتبدو عليهم متاعب السفر، فقد وصلوا إلى بغداد منذ قليل، ولم يجدوا موضعاً يبيتون فيه ليلتهم هذه فقالوا: «عسى يعطينا صاحب هذه الدار مفتاح الاصطبل او خربة نبيت فيها» فقد ادركهم المساء، وهم غرباء لا يعرفون احداً يلتجئون إليه في هذه الديار... ولكن لو تريان.. لكل واحد منهم شكل مستهجن وهيئة مضحكة!..

وما زالت تتلطف باختيها وتحتال عليهما حتى قالتا لها

- دعيهم يدخلون، واشرطي عليهم الا يتكلموا بما لا يعنيهم.

ففرحت وذهبت ثم عادت ومعها الثلاثة العور، وهم محلوقو الذقون والرؤوس، فسلموا، ووقفت الصبايا فرحبّن بهم وهنأنهم بسلامة الوصول واجلسنهم حول البركة امام المائدة الحافلة بألوان الطعام..

واثار اهتمام الغرباء الثلاثة ما رأوا من محل ظريف ومقام نظيف، فيه الطعام والجمال، وفيه شموع وبخور يتصاعد، فقالوا:

لقد طابت هذه الليلة وسعدت!

ثم التفتوا إلى الحمال فوجدوه فرحاً سعيداً فظنوا أنه منهم فقال احدهم:

- هو درويش مثلنا، إما غريب وإما من البادية.

فسمع الحمال ما قالوا، فحدق اليهم وقال لهم:

- اصمتوا ولا تكونوا فضوليين.. اما قرأتم ما كتب على الباب؟ هل جئتم الينا لتطلقوا السنتكم فينا؟..

فقالوا: نستغفر الله يا هذا، فرؤوسنا بين يديك!

فضحكت البنات الثلاث، وقمن فاصلحن بين الدراويش والحمال، وقدمن للاعجام الطعام، فأكلوا واخذوا يتنادمون:

ثم قال لهم الحمال:

- اما من نادرة ايها الاخوان؟

قالوا: خير واحسن!

وابانوا رغبتهم في استحضار آلات اللهو، فاحضرت لهم احدى الحسان دفاً

وعوداً وجنكاً عجمياً، فاصلحوها وضربوا بها وانطلقوا يغنون، فانتشت الصبايا وطربن وقد ازددن نضارة وازدهاراً، ثم اخذن بالضحك عالياً، مرحات لاهيات.

وبينما هم على هذه الحال اذ بالباب يطرق، فجرت وسطى الحسان مسرعة لتعرف من الطارق.

هارون الرشيد يقرع الباب

وكان الخليفة هارون الرشيد قد طاف تلك الليلة ليسمع ما تجدد من اخبار، يرافقه وزيره جعفر وسيافه مسرور، وكان من عادته أن يتنكر بزي التجار، فاتفق أن مر تلك الليلة بهذه الدار فسمع العزف والغناء، فقال لوزيره جعفر:

ـ اود أن ندخل هذه الدار ونسمع هذه الاصوات ونرى اصحابها.

فقال جعفر: اخشى يا امير المؤمنين أن يصيبنا منهم أذى!

فقال الخليفة: لا بد من رؤيتهم واريدك أن تحتال للدخول عليهم.

فقال جعفر: سمعاً وطاعة.

ثم تقدم وقرع الباب، فخرجت البوابة منهن وفتحت الباب فتقدم جعفر وقال:

ـ نحن تجار من طبرية، وقد مر علينا في بغداد عشرة ايام ونحن في بيت التجار. وقد دعانا تاجر هذه الليلة إلى منزله فاكلنا وتنادمنا ثم أذن لنا بالانصراف، فخرجنا في الليل وضللنا الطريق وتهنا عن نزلنا الذي نحن فيه، فلعل من صدقاتكم أن تدخلونا داركم فنبيت هذه الليلةعندكم، ولكم عند الله ثواب!

واعجب البوابة ما في كلامهم من رصانة وحشمة، فدخلت على اختيها واخبرتهما بحديثهم، فقالتا:

ـ دعيهم يدخلون.

فعادت وأذنت لهم، فدخل الخليفة وجعفر ومسرور، ورحبت الصبايا بهم وأجلسنهم وكرمنهم وقلن لهم:

ـ اياكم أن تتكلموا بما لا يعنيكم!

فقالوا: نعم!

ونظر هارون الرشيد إلى الدراويش الثلاثة فوجدهم جميعاً عوراً بالعين اليسرى، فاستغرب حالهم، وهاله ما رأى من تناقض في أن يكون هؤلاء مع الفتيات الثلاث على ما هن عليه من نعومة فاتنة وجمال أخاذ.

غناء ودموع

وبينما كانت السعادة ترفرف بجناحيها الطروبين على ذلك البيت المترف الانيق، نهضت صاحبة السرير وأخذت بيدالبنت الوسطى قائلة لها:

- يا اختي قومي بمقتضى الواجب..

وانشغل القوم قليلاً ثم نظروا فاذا بكلبتين سوداوين مسلسلتين تقفان على الباب، ثم تقبل صاحبة السرير وفي يدها سوط تنهال به على احداهما بالضرب الموجع والكلبة تنبح بصوت عال مؤثر وتتذلل بحركات تقطع القلب وما زالت تضربها حتى كلّ ساعدها فالقت حينئذ بالسوط وضمت الكلبة إلى صدرها، وأنشأت تمسح دموعها وتداعب شعرها بحنان ورفق..

ثم اقبلت على الكلبة الثانية ففعلت بها مثلما فعلت بالاولى.. والحاضرون يتألمون ويعجبون، ولا يستطيعون الاستفسار عما يرون!

والفتت صاحبة السرير بعد ذلك إلى أختها البوابة وقالت لها:

- قومي اقضي ما عليك.

فقالت: نعم.

ثم قامت وصعدت إلى السرير وقالت لاختيها معاً:

- ما عندكما؟

فقامت البوابة وجلست على كرسي كان إلى جانبها، اما اختها الثانية فدخلت مخدعاً لها ثم عادت منه بكيس مزركش الالوان اخرجت منه عود غناءً فاصلحت اوتاره وانشدت تقول بصوت يذوب رقة ويفيض حناناً:

ردوا على جفني النوم الذي سلبا

واخبروني بعقلي أينما ذهبا

علمت لما رضيت الود منزلة

أن المنام على جفنيّ قد غضبا

فلما سمعت الصبية صاحبة السرير ذلك الغناء الحنون، تلهفت وتأوهت وصاحت واعولت، ثم شقت ثيابها وارتمت على الارض مغشياً عليها لشدة التأثر وطغيان العاطفة، فبدا من جسمها الغض فخذاها الملتفتان وساقاها الفاتنتان وذراعاها الناعمتان، ورأى الخليفة على اعطاف هذا الجسد الجميل وعلى اطرافه، آثار المقارع وضرب السياط، فبلغ به الدهش مبلغاً قصياً، لمثل هذه الفتنة تقرع، ولمثل هذا الكمال يجلد،



وتبادل وجعفر نظرات الحيرة والاستغراب.

كلنا في الجهل سواء

وكانت اختها البوابة قد اتتها بالماء ورشت منه عليها، ثم جاءتها بحلة جديدة والبستها اياها، فاستوت ثانية على سريرها وقالت:

- بالله يا اخت وافيني بما يثلج صدري ويرتاح اليه خاطري، فقالت اختها: حباً وكرامة!

وتناولت العود باناملها اللطيفة، وأسندته إلى صدرها الناهد، وضربت به وانشدت تقول:

أن شكونا بعداً فماذا نقول

او بلغنا شوقاً فأين السبيل

او بعثنا رسلاً تحدث عنا

ما يؤدي شكوى المحب رسول

وتابعت المغنية الحسناء انشاد هذه القصيدة حتى انتهت منها إلى البيت

الاخير، فما كان من الصبية الملتفة بحرائر السرير الناعمة، الا أن اجهشت بالبكاء، وتعالى صوتها وأنينها، فشقت ثيابها وارتمت على الارض مغشياً عليها. وكان من شأنها ما كان منه في المرة الاولى. ثم استوت بمعونة اختيها على سريرها الذي يعبق بالطيب، وقالت لأختها المغنية:

- زيديني يا أختاه زيديني.. فما بقي لي غير هذا الصوت الشجي!

فضربت اختها بالعود وانشدت قصيدة مطلعها:

حتى متى هذا الصدود وذا الجفا

فلقد جرى من ادمعي ما قد كفى

فلما سمعت الصبية القصيدة الثالثة، اعولت وناحت وشقت ثيابها، ووقعت على الارض مغشياً عليها من جديد، فبان ضرب المقارع والسياط على لحمها الطري وقد توردت آثاره فاكسبت جسمها لوناً ارق من لون الورد في اول الربيع..

فقال الدراويش الاعجام:

- ليتنا لم ندخل هذه الدار فقد تعكر صفو مقامنا بما يؤلم القلب..

فالتفت الخليفة اليهم قائلاً:

- اما انتم من هذا البيت؟

قالوا: لا..

ثم نادوا الحمال وسألوه عما يعرف من امر هؤلاء البنات، فقال:

- كلنا في الجهل سواء، فانا من بغداد ولكني لم ادخل هذه الدار الا هذه الليلة..

فاطرق الخليفة هنيهة ثم قال:

- نحن سبعة رجال وهن ثلاث نساء، فاسألوهن عن حالهن فإن لم يجبننا طوعاً أجبننا كرهاً..

واتفق الجميع على ذلك ما عدا جعفر الذي قال:

- ما هذا رأيي، دعوهن فنحن ضيوف عندهن، وقد شرطن علينا شرطاً فقبلنا به كما علمتم، فالاولى السكوت عن هذا الامر، ولم يبق من الليل الا القليل، فليمض كل منا في سبيله.

فرفع الخليفة رأسه وصاح به مغضباً

- لم يبق لي صبر عن خبرهن فدع الدراويش يسألونهن.

صاحبة السرير تأمر بقتل ضيوفها

وأجمعوا رأيهم، بعد جدل طويل دار بين الخليفة وجعفر، على أن يستجوب الحمال الصبايا، ففعل، فقالت صاحبة السرير:

ـ لقد آذيتموني يا ضيوفنا أذية بالغة بسؤالكم هذا، وقد شرطنا دخولكم علينا بأن تتقيدوا بما كتب على الباب بماء الذهب، وانتم تعلمون أن للضيف حقاً وللمضيف حقوقاً، اما كفاكم اننا ادخلناكم منزلنا واطعمناكم زادنا؟!

ثم شمرت الفتاة عن معصميها وضربت الارض بقدمها ثلاث ضربات وهي تقول:

ـ عجلوا.. عجلوا..

واذا بباب قد فتح في الارض، وخرج منه سبعة عبيد بأيديهم سيوف مسلولة، فقالت لهم:

ـ اربطوا هؤلاء الثرثارين بعضهم ببعض بعد أن توثقوهم جيداً..

ففعلوا وقالوا:

ـ مرينا ايتها السيدة بدق اعناقهم..

فقالت: امهلوهم ساعة اسألهم فيها عن احوالهم قبل ضرب رقابهم.

فصاح الحمال باكياً مستغفراً وقال:

ـ يا سيدتي، لا تقتليني لذنب غيري.. والله لطابت ليلتنا لو سلمنا من هؤلاء الدراويش الغرباء الذين لو دخلوا مدينة عامرة لخربوها..

ثم استطرد بصوت المسترحم البائس:

ما احسن الغفران من قادر

لا سيما عن رجل قاصر

بحرمة الود الذي بيننا

لا تقتلي الاول بالآخر

فضحكت الصبية غيظاً وحنقاً، ثم اقبلت على الجماعة قائلة:

ـ لم يبق لكم من العمر اكثر من ساعة، فاخبروني بما عندكم، اذ لو لم تكونوا اعزاء في قومكم وذوي مكانة بينهم لما تجرأتم علينا.

فقال الخليفة مضطرباً:

ـ ويلك يا جعفر! اخبرها بنا وإلا قتلنا خطأ، وأحسن القول قبل أن يحل بنا المكروه.

وقبل أن يتما حديثهما رأيا الصبية

الحسناء صاحبة السرير، قد اقبلت على الدراويش الاعجام وقالت لهم:

ـ انتم اخوة، اليس كذلك؟

قالوا: لا .. ما نحن الاعجام بؤساء.

فقالت لأحدهم:

ـ وانت هل ولدت اعور؟

قال: لا، ولكن حديثاً عجيباً قد جرى لي فآل بي إلى هذا المصير!

وسألت الثاني والثالث عن حاليهما، فاجابا بمثل ماجاب الاول، وزادا قائلين:

ـ كل منا يا مولاتنا، ابن ملك عظيم دانت له الرقاب واطاعته الامصار..

فالتفتت الحسناء اليهم جميعاً وقالت: ـ ليقصّ عليّ كل منكم ما جرى له فأخلي سبيله..

فتقدم الحمال وقال:

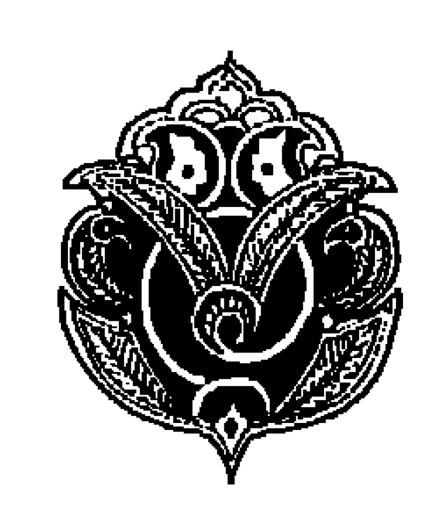
ـ انا يا سيدتي حمال فقير جاءت بي اختك من السوق إلى دكان الجزار، فإلى العطار، فهذه الدار، وقد حملت لها كل ما ابتاعته هذا النهار.. هذه هي قصتي وتلك هي مصيبتي..

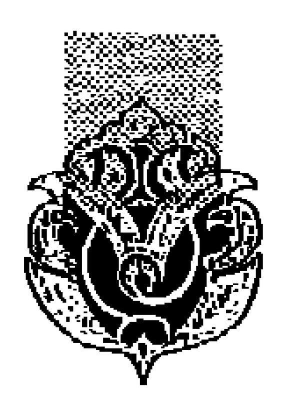
فضحكت الصبية ولم تعفه من غمزة تهكم واستهزاء، وقالت له:

ـ تستطيع الآن أن تغادر هذا المكان وتذهب حيث تشاء..

فقال:

ـ لا اذهب حتى اسمع حديث رفقائي.







الأمير الطريد

تقدم الدرويش الاول من صاحبة السرير وقال:

ـ اذا شئت يا مولاتي أن تعلمي السبب في حلق ذقني ورأسي وقلع عيني فدونك هذه الحكاية:

كان والدي ملكاً عظيم الشأن، وكان له أخ هو ايضاً ملك في مدينة اخرى، واتفق أن ولدت وابن عمي في يوم واحد، ومضت الاعوام فنمونا معاً، وكنت ازوره فأقيم عنده شهوراً طويلة، بالرغم من سوء خلقه وادمانه للخمر.

وذات يوم فاجأني بقوله وقد تعتعه السكر:

ـ يا ابن عمي لي إليك حاجة مهمة واود الا تخالفني فيما اريد.

فقلت له: هذا ما سيكون.

واستوثق مني بالقسم العظيم.

عرس في قبر

ثم نهض وغاب قليلاً، وعاد وخلفه

امرأة مؤتزرة، هيفاء القد لينة القوام، عليها من الحلل ما يساوي مبلغاً كبيراً، والتفت إليّ قائلاً:

ــ خذ هذه المرأة او اسبقني إلى الجبانة وانتظرني فيها.

ولم يكن في استطاعتي نقض اليمين، فقد اقسمت على السير بمشيئته.

فاخذت المرأة وانطلقت بها إلى أن دخلت الجبانة، وما استقرت بنا الحال حتى جاء ابن عمي وفي يده قدوم، واتى قبراً في وسط الجبانة ففكه ونقل احجاره جانباً، ثم بحث بالقدوم في ارض القبر فانكشفت عن باب من الحديد، فرفعه فبانت من تحته سلم، فالتفت إلى المرأة وقال لها:

ـ دونك ما تختارين!

فنزلت المرأة من على السلم، ثم التفت إليّ وقال:

ـ رجائي اليك يا ابن عمي، متى دخلت انا هذا الباب أن ترد الحجارة إلى اماكنها ثم تقلب عليها التراب، وهذه كل حاجتي اليك!

ثم نزل في السلم وغاب عن عيني، ففعلت بما امرني حتى عاد القبر إلى ما كان عليه، وانا في حيرة مما رأيت، ورقدت تلك الليلة قلقاً على مصير ابن عمي..

وعند الصباح تملكني وجل وندم عظيمان، وكدت ألاّ اصدق ما جرى البارحة، ثم ذهبت إلى الجبانة واخذت ابحث عن القبر فلم اعثر عليه، وبقيت على هذه الحالة حتى اقبل الليل دون أن اهتدي اليه، فعدت إلى القصر مهموماً كئيباً ونمت ليلتي، وفي الصباح التالي حاولت ثانية الاهتداء إلى القبر فلم افلح. وظللت على ذلك سبعة ايام اشتد خلالها ندمي وتعاظم وزاد بي حتى كدت أجن، فرأيت أن اعود إلى قصر والدي طلباً للفرج ونجاة من الحزن.

بدء المأساة

ولكن شدّ ما هالني الامر ساعة وصولي إلى مدينة ابي، إذ اوقفني جماعة على باب المدينة وشدوا وثاقي، فنظرت اليهم، فاذا هم من خدام ابي، فلحقني منهم خوف زائد، وتساءلت عما جرى لوالدي!

وسألت الذين امسكوني عن سبب فعلتهم، فلم يردوا عليّ جواباً، ولكن احدهم، وكنت وإياه على مودة قديمة،

اقترب مني بعد حين، وقال لي همساً:

- أن الوزير قد غدر بابيك فقتله واقام نفسه ملكاً على المدينة، ونحن هنا نترقبك ونتربص بك بامره.

وما اتم خادمي هذا قوله، حتى ساقتني تلك العصبة، وقد غاب عني الوعي لشدة حزني، إلى قصر والدي الذي غدا في حوزة الوزير، ومثلت امام هذا الرجل الذي كان يحمل لي عداوة قديمة منشأها انني كنت احد الايام واقفاً على سطح قصري، فرأيت طائراً متنوع الالوان قد حط على سطح قصر الوزير، فاطلقت سهمي باتجاه الطائر فأخطأت الرمية ووقع السهم في عين الوزير وكان يتنزه هناك، فقلعت عينه قضاء وقدراً، والشاعر يقول:

مشيناها خطى كتبت علينا

ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيته بأرض

فليس يموت في ارض سواها

وزير جائر وجلاد رحوم

فلما وقفت امامه مشدود الوثاق، سخرني واشار إلى عينه المقلوعة قائلاً:

- أن كنت فعلت هذا بي خطأ فأنا افعله بك عمداً.

وأمر بأن يقدموني بين يديه، ومد اصبعه فقلع عيني اليسرى، ثم وضعني في صندوق وقال للسياف:

- اذهب به إلى ظاهر المدينة واقتله، ولتأكل لحمه الوحوش والطيور الجوارح

فسار بي السياف إلى حيث امر الوزير، واخرجني من الصندوق واراد أن يعصب عيني ويقتلني، فبكيت بكاء شديداً حتى ابكيته، ونظرت إليه مستعطفاً وأنشدت مذكراً اياه بخدمته لوالدي:

جعلتكم درعاً حصيناً لتمنعوا

سهام العدى عني فكنتم نصالها

وكنت أرجيكم لكل ملمة

اذا اعوزت مني اليمين شمالها

ثم بكيت طويلاً وانشدت:

واخوان حسبتهم دروعاً

فكانوها ولكن للأعادي

وخلتهم سهاماً صائبات

فكانوها ولكن في فؤادي

فلما سمع السياف ذلك، ورأى الحال

التي صرت اليها من الحزن والذل، وهو سياف والدي قديماً ولي عليه ما لا ينسى من الاحسان، قال:

ـ يا سيدي، كيف افعل وانا عبد مأمور؟ ولكني لا انكر لك ولوالدك جميلاً، فز بعمرك ولا تعد إلى هذه الارض لئلا نهلك كلانا وما اصدق ما قاله بعضهم:

ونفسك فز بها أن شمت ضيماً

وخلّ الدار تنعي من بناها

فانك واجد ارضاً بأرض

ونفسك لم تجد نفساً سواها

عجبت لمن يعيش بدار ذل

وارض الله واسعة فلاها

ولا تبعث رسولك في مهمّ

فما للنفس ناصحة خلاها

وما عظمت شؤون الاسد حتى

بانفسها تولت ما عناها

فمضيت وما كدت اوقن بالنجاة، وهان عليّ قلع عيني اذ نجوت من ذلك المصير المشؤوم، وسافرت حتى وصلت إلى مدينة عمي فدخلت عليه واخبرته بما جرى لنا، فبكى الماً وقال:

ـ لقد زدتني هماً على هم، فان ابن عمك قد توارى منذ ايام ولا يعلم احد من امره شيئاً.

آدميان من فحم

ولم استطع السكوت على سر ابن عمي فأخبرته بما كان من امره، ففرح فرحاً عظيماً لعل في ذلك أملاً بنجاته، وذهبنا إلى الجبانة معاً، ونظرت يميناً وشمالاً فاتفق لي أن عرفت القبر هذه المرة، فرفعنا التراب ودخلنا من الباب الصغير مضطربين متهيبين، ومشينا قدر خمسين درجة، فوصلنا إلى آخر السلم فاذا بدخان قد تصاعد وتكاثف حتى غشى ابصارنا.

ثم مشينا واذا بنا في قاعة ملأى بانواع الطعام والشراب، في وسطها كلّه مرخاة على سرير، فنظر عمي فوجد ابنه والمرأة التي معه، وقد تحولا فحماً اسود كأنما القيا في جب من نار، فاكفهر وجهه وبدا عليه الغضب وقال مخاطباً ابنه:

ـ هذا جزاؤك يا لعين.. هذا جزاؤك على الارض.. ويبقى لك عذاب الآخرة وهو اشد واقوى.

ثم ضرب عمي ولده بحذائه وهو يرقد على السرير فحماً اسود، واستنزل عليه لعنة السماء وغضبها، وقال، وانا لا اعرف شيئاً من سر ما يجري امام عيني:

ـ يا ابن اخي، هذا ولد ضال اولع منذ صغره بهذه الفتاة المحرمة عليه، وكنت انهاه عن ذلك واقول في نفسي انهما صغيران.. ولما كبرا حجبته عنها وحجبتها عنه، ولكن الشيطان اغواهما وزين لهما ما يفعلان، فجاء الملعون وحفر هذه النفق، هرباً مني، ونقل اليها المأكل والمشارب التي تراها، وتغفلني عند خروجي إلى الصيد وجاء إلى هنا.. فغار عليه الحق وعليها واحرقهما معاً..

ثم بكى وبكيت، ونظر إلي وقال:

ـ انت ولدي عوضاً عنه!

نهاية المأساة

ورجعنا إلى منزلنا ولكن لم يطل بنا الامر حتى سمعنا قرع طبول وصهيل خيول وقعقعة سلاح وزمجرة رجال.. فتحيرنا ولم نعرف ما الامر.. فسألنا عن الخبر فقيل لنا أن الوزير الذي اغتصب ملك ابي قد جهز حملة ضارية، وهاجم المدينة على غفلة، وقد سلم الاهلون المدينة اذ لا طاقة لهم على مقاومة الغزاة.

فما كدت اقف على هذا النبأ حتى هربت، وبقي عمي في قصره، وقلت: لا شيء انجو به الا حلق لحيتي وشاربي ورأسي، لئلا اعرف فأقتل..

واستبدلت ثيابي بغيرها وقصدت هذه المدينة لعل احداً يوصلني إلى امير المؤمنين فاشكو إليه امري وابثه احزاني.

وفيما انا على ابواب المدينة اذا بهذا الدرويش واقف هناك،فحييته وقلت له:

ـ غريب!

فقال: وانا غريب!

وما أنهى كلمته الاخيرة حتى طلع علينا رفيقنا الثالث هذا يسلم ويقول:

ـ غريب في دياركم!

فقلنا له: ونحن غريبان..

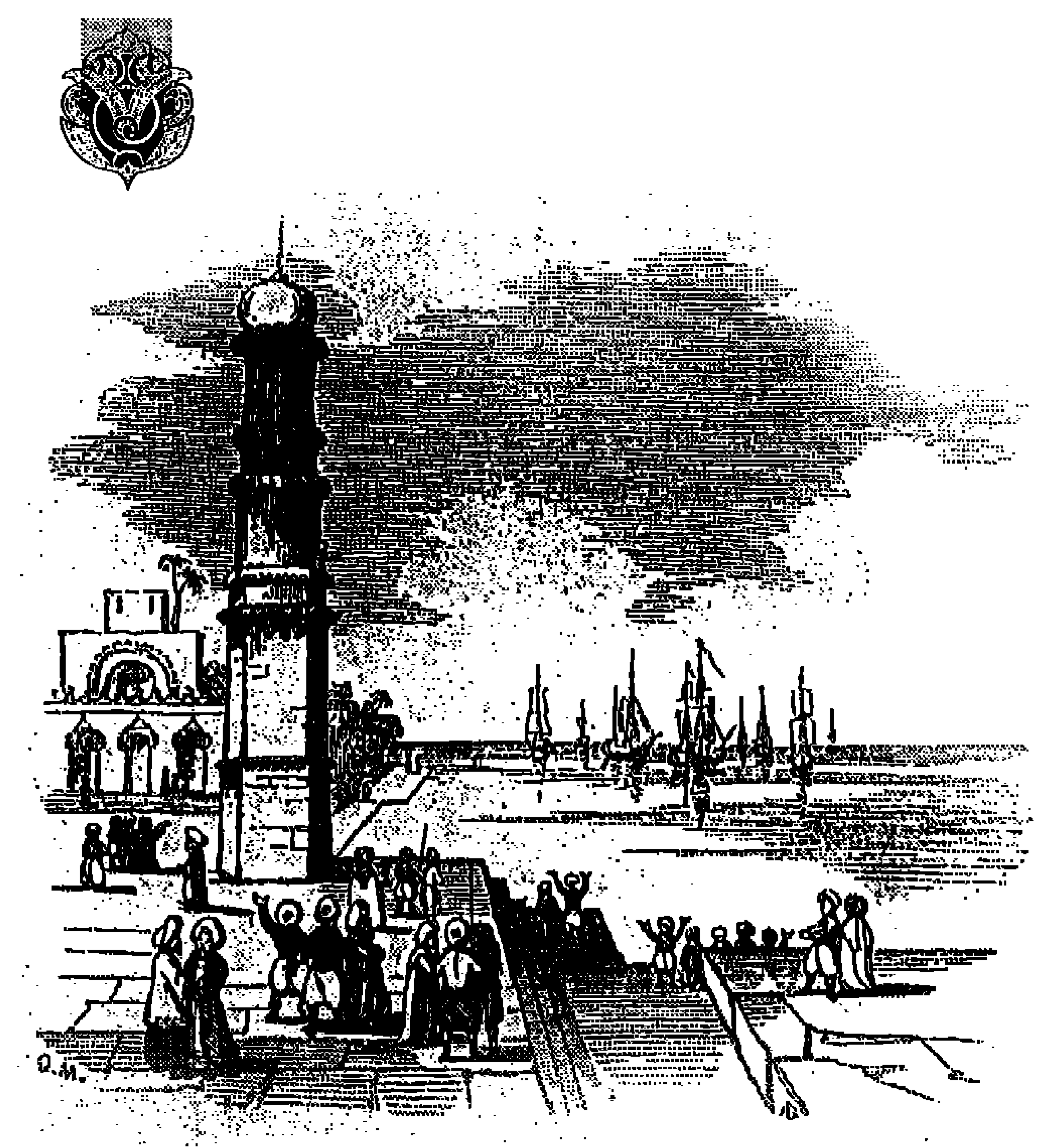
فمشينا معاً وقد هجم علينا الظلام فساقنا القدر إليكم وهذا هو يا سيدتي سبب حلق رأسي ولحيتي وقلع عيني.

فقالت الصبية: املس رأسك واذهب.

فقال: والله لا اذهب حتى اسمع خبر الآخرين!

فدهش الجيمع من قصته الغريبة، وقال هارون الرشيد لوزيره جعفر:

ـ والله ما سمعت ولا رأيت مثل الذي جرى لهذا الدرويش!



لعنة العفريت

ثم تقدم الدرويش الثاني وقال:

ـ وانا يا سيدتي ما ولدت اعور ولا صاحب عاهة او عيب، وحكايتي فريدة من فرائد الدهر، وهي أني كنت ملكاً ابن ملك قرأت كتب الادباء وحفظت كلام الشعراء واجتهدت في سائر العلوم حتى فقت اهل زماني واصبحت اغزرهم علماً، كما منحني الله موهبة فنية فغدوت احسن الناس خطاً، وشاع ذكري في جميع الاقاليم والبلدان، بين طبقات الشعب وعند سائر الملوك.

في الطريق إلى الهند

وسمع بي ملك الهند فارسل إلى ابي يطلبني، فجهزني والدي بستة مراكب، وسرنا في البحر مدة شهر كامل..

ولما اقتربنا من بلاد الهند، هبت علينا زوبعة هوجاء كادت تحطم مراكبنا وتقذف بنا إلى اعماق اليم، لولا أن لمح احدنا صخرة في آخر الافق، فاستبشرنا برؤيتها واتجهنا إليها ونحن نصارع الامواج بمجاذيفنا ونضرع إلى الله بقلوبنا، حتى وصلنا إلى البر سالمين،

فنزلنا إلى الشاطىء وانزلنا خيلاً كانت معنا في المركب، وشددنا الهدايا التي كنت احملها إلى ملك الهند على عشرة اجمال.

وفيما نحن سائرون في تلك البقعة المجهولة، لا ندري اين اصبحنا من بلاد الهند وأية طريق نسلك اليها، اذا بغبار قد علا وثار ولم ينكشف الا بعد فترة من الوقت فبان تحته خمسون فارساً كأنهم ليوث عوابس، يلبسون الحديد ويدرعون بالفولاذ. فتأملناهم فاذا هم قطاع طريق، فلما رأونا، ونحن نفر قليل، هجموا علينا واتجهوا بالسنان شطر وجوهنا، فاشرنا اليهم وقلنا لهم:

ـ نحن رسل إلى ملك الهند المعظم فلا تؤذونا.

فقالوا: نحن لسنا في ارضه ولا تحت حكمه!

ثم قتلوا منا بعض الغلمان وهرب الباقون، وافلت انا، بعد أن جرحت جرحاً بليغاً، واشتغل الاشقياء بالمال والهدايا التي كانت معنا، وتهت وحيداً ذليلاً بعد أن كنت اميراً مكرماً..

وما زلت اضرب في تلك المجاهل على غير هدى، إلى أن اتيت إلى رأس جبل فأويت إلى مغارة فيه حتى طلع الصباح، فمضيت اخترق الهضاب والاودية، ولم أزل كذلك حتى وصلت إلى مدينة محصنة ولّى عنها الشتاء ببرده، واقبل عليها الربيع بورده، وتدفقت انهارها وغردت اطيارها، كأنما وصفها الشاعر حين قال:

ـ مدينة ما بها لساكنها

مرّوع،والامان صاحبها

كأنها جنة مزخرفة

لاهلها قد بدت عجائبها

ففرحت بوصولي اليها، وقد تعبت من السير وعلاني الهم والاصفرار فتغيرت حالي وانا لا ادري أنّى اسلك، فمررت بخياط في دكانه فحييته واخبرته بما جرى لي، فاغتمّ وقال لي:

ـ إياك أن تحدث احداً بما عندك، او بما انت عليه، فملك هذه المدينة ألدّ اعداء ابيك. ولا بد لك من مصير مشؤوم اذا علم بوجودك في مدينته.

ثم احضر لي طعاماً فاكلت، وافرد لي محلاً إلى جانب حانوته فأقمت فيه ثلاثة ايام وقال لي بعدها:

ـ اما تعرف صنعة تكتسب منها؟

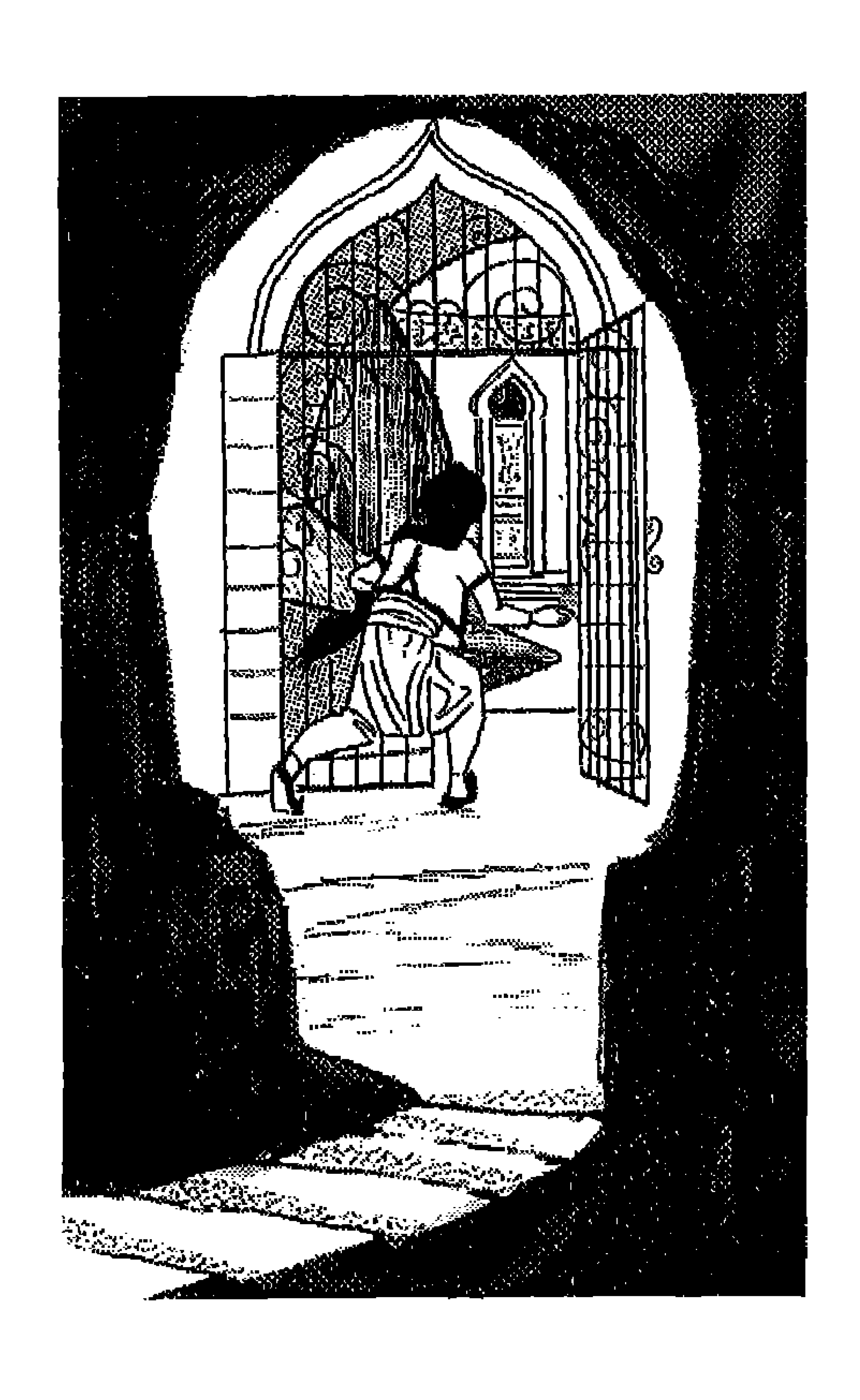
فقلت له: اني فقيه عالم وكاتب حاسب وخطاط.

فقال: أن صنعتك كاسدة في بلادنا، فما في مدينتنا من يعرف علماً غير الكسب. فالافضل لك أن تشد وسطك وتأخذ فأساً وحبلاً وتحتطب من البرية حطباً تتقوت بثمنه إلى أن يفرج الله عنك.

الامير الحطاب

ثم اشترى لي فأساً وحبلاً، وسلمني إلى بعض الحطابين واوصاهم بي. فخرجت معهم واحتطبت نهاري كله فاتيت بحمل على رأسي فبعته بنصف دينار، فأكلت ببعضه وأبقيت بعضه.

ودمت على هذه الحالة سنة كاملة، ثم اتيت يوماً كعادتي إلى البرية وتوغلت فيها، فوجدت غابة فيها حطب كثير، فدخلتها، فرأيت جذع شجرة عظيمة قديمة العهد، فحفرت حولها وابعدت التراب عنها، وهويت على اصولها بالفأس فعثرت بحلقة نحاس فبحثت عنها فاذا هي في طبق حديد، فرفعت الطبق فبانت تحته سلم، فنزلت إلى اسفل السلم فرأيت بابا فدخلته فرأيت قصراً شيد الاركان وفيه



صبية حسناء يتفتح الورد في خديها وتستيقظ الفتنة في عينيها، ويتواثب الربيع على اعطافها، فنظرت اليها وسبحت خالقها لما ابدع فيها من الحسن والجمال، وابتهجت هي لمرآي واقبلت نحوي تسألني:

أجني انت ام انسي؟

فقلت لها: انسي.

فقالت: ومن اوصلك إلى هذا المكان

ولي فيه سنوات لم ار خلالها انسياً واحداً؟

فاخبرتها بحالي فبكت وقالت:

ـ وانا اخبرك ايضاً بقصتي.. اني بنت الملك افتيموس صاحب جزيرة الابنوس، وكان قد زوجني بان عمي، وفي ليلة زفافي اختطفني عفريت اسمه جرجيس ابن خالة ابليس، فطار بي ونزل في هذا المكان، ونقل اليه كل ما غلا من الحلل والمتاع وكل ما طاب من الطعام والشراب. وهو يأتيني كل عشرة ايام بما احتاج اليه. ثم يذهب إلى حيث لا ادري. وقد عاهدني اذا عرضت لي حاجة، أن المس بيدي هذين السطرين المكتوبين على القبة فما ارفع يدي الا وأراه عندي.

ثم نهضت على قدميها اللطيفتين وامسكت بيدي وادخلتني من باب مقنطر، وجلست على اريكة واجلستني إلى جوارها، واتت بشراب معطر بالمسك وسقتني وقالت:

ـ لقد ضاق صدري وانا تحت الارض وحدي منذ سنوات لم اجد طوالها من يحدثني او يسليني فالحمد الله الذي ارسلك إليّ.

فقلت لها وقد شغفني حبها وتأثرت لحالها:

ـ قومي فاخرجك من تحت الارض واريحك من هذا الجني!

فضحكت وقالت:

ـ هيهات ان تستطيع ذلك!

فقلت وقد ركبني الغرور وطيش الشباب:

ـ سأكسر الآن هذه القبة التي نقشت عليها الكتابة فيأتي العفريت فأقتله فأني تعودت قتل العفريت.

فشحب وجهها وقالت لي:

ـ بالله عليك لا تفعل!

وانشدت بلهجة حزينة:

يا طالباً للفراق مهلاً

وخيله سُبقٌ عتاق

اصبر فطبع الزمان غدر

وآخر الصحبة الفراق

غضب العفريت

ولكني لم اصغ إلى توسلاتها، فرفست القبة رفساً عنيفاً، وما كدت افعل ذلك حتى شعرت بأن السماء قد اظلمت،

وارعدت وابرقت، وان الارض قد زلزلت، فتولاني الذعر وقلت لها:

ـ ما الخبر؟

فقالت في لوم وأسى:

ـ العفريت!... اما حذرتك من هذا؟

انج بنفسك واصعد من المكان الذي جئت منه.

فنجوت بنفسي ولكني نسيت حذائي وفأسي لشدة خوفي واضطرابي. فما صعدت درجتين الا وانشقت الارض، وطلع منها عفريت هائل المنظر رهيب الصورة وقال لها؟

ـ لماذا أزعجتني هكذا.. ما مصيبتك؟ فقالت: ما اصابني شيء غير أن رأسي قد دار بي فوقعت على القبة.

فنظر اليها العفريت بارتياب وقال لها:

ـ تكذبين يا خائنة!

ونظر في القصر يميناً وشمالاً فرأى الحذاء والفأس، فقال لها:

ـ ما هذا الا لباس الانس.. من جاء اليك؟

فقالت: ما نظرت هذا الساعة، كأنك قد جئت انت بهما.

فقال: هذا كلام كاذب.

ثم ربطها وجعل يعاقبها ويقررها. وما كان ليهون عليّ أن اسمع بكاءها، فصعدت السلم وأنا ارتجف خوفاً، ولما وصلت إلى سطح الارض رددت الطبق الحديدي إلى مكانه وسترته بالتراب، وندمت على ما فعلت وما جرى لها بسببي.

ثم مشيت إلى أن اتيت صاحبي الخياط، فقال:

ـ لقد بت البارحة قلقاً على مصيرك، فالحمدلله على سلامتك.

فدخلت خلوتي دون أن أجيبه، وجلست شارد الذهن جريح القلب، وتذكرت قول الشاعر:

اذا ما اتاك الدهر يوماً بنكبةٍ

فيوماً ترى عسراً ويوماً ترى يسرا

واذا بصديقي الخياط يدخل عليّ قائلاً:

ـ في الدار شيخ عجمي يطلبك ومعه فأسك وحذاؤك، فاخرج اليه واشكره على صنيعه.



فاصفر لوني وتغيرت حالي.. وبينما انا كذلك اذا بارض خلوتي قد انشقت وخرج منها العجمي، واذا هو العفريت بعينه، وكان قد عاقب الصبية اشد العقاب فلم تقرّ له بشيء، فأخذ الفأس والخف وقال لها:

ـ اذا كنت جرجيس من ذرية ابليس، فانا اجيء بصاحب الفأس والحذاء.

ثم جاء إلى الحاطبين يسألهم فدلوه عليّ، اذ عرفوا فأسي وحذائي، ودخل خلوتي ولم يمهلني، فاختطفني وطار بي، وعلا ونزل، وغاص في الارض ثم طلع بي إلى القصر الذي كنت فيه تحت الارض، فرأيت الصبية مشبوحة والدم يسيل من جنبيها.. فأخذها العفريت وقال لها:

ـ اما هذا الانسي هو الذي دخل القصر؟

فقالت: لا اعرف هذا الانسي ولم اره الا في هذه الساعة.

فقال: اذن خذي هذا السيف واضربي عنقه.

بين فداء الحبيب وانقاذ الذات

فاخذت السيف وجاءت ووقفت امامي، وانا صامت ودموعي تجري على خدي، فما لبثت حتى رَمَتْ السيف من يدها وقالت:

ـ كيف اضرب عنق من لم اعرفه ولم

يسيء إليّ قط؟

فقال: لا يهون عليك قتله، ولا تعترفين بمجيئه إلى القصر؟.. وبعد هذا، لا يحن على الكائن الا من هو من جنسه..

ثم التفت إليّ وقال:

ـ وانت يا أنسي.. اما تعرف هذه؟

فقلت: ومن تكون هذه وما رأيتها قط الا هذه الساعة؟!

فقال: خذ السيف اذن واضرب عنقها فاطلقك.

فقلت: نعم!

وتقدمت بنشاط ورفعت يدي وكدت اهوي على عنقها بالسيف مدفوعاً بحب البقاء، لو لم اقرأ في عينيها معاني الحب والاستعطاف، فحدثتني نفسي بقول الشاعر:

كم صامت حدثت عينه

خليله بالذي أضمرا

ما احسن اللحظ في وجهه

وارشق الطرف اذ عبرا

وهمت عيناي بالدموع، والقيت السيف جانباً وقلت:

ـ ايها العفريت الشديد والبطل الصنديد، انها امرأة ما استحلت ضرب عنقي، فكيف يحل لي أن اضرب عنقها ولم ارها عمري؟ والله لن افعل ذلك ابداً ولو سقيت كأس الردى.

فقال: لا شك أن بينكما مودة!

ثم تناول السيف وضرب يد الصبية فقطعها، ثم ضرب يدها الثانية فقطعها، ثم قطع رجليها بضربة ثالثة ورابعة.. وانا انظر اليها وهي تلقي عليّ نظرات المودع المفارق.. ثم ضرب رأسها فأطاحه.. والتفت إليّ وقال:

ـ يا انسي لابد من أن اعاقبك فتمنّ.. فقلت: وما اتمنى؟

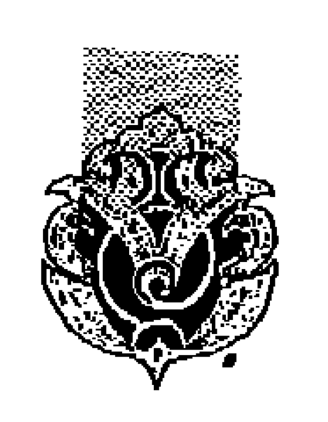
قال: تمن صورة تكون لك بعد أن اسحرك وامسخك، صورة كلب او حمار او قرد.

فقلت وقد طمعت بان يعفو عني:

ـ أن العفو عن رجل مظلوم اليق بك، فاعف عني كما عفا المحسود عن الحاسد.

فقال: وكيف كان ذلك؟







الحاسد والمحسود

قال الدرويش الثاني... فقلت للعفريت طامعاً في عفوه:

زعموا ايها العفريت، أنه كان في احدى المدن رجلان يسكنان في بيتين متلاصقين، وكان احدهما يحسد الآخر لنجاحه في الحياة، وزاد به حسده حتى انه امتنع عن شهي الطعام ولذيذ المنام، والمحسود لا يزداد الا نعمة وخيراً... ثم بلغه حسد جاره له، فرحل من جواره وابتعد عن ارضه، قائلاً: «والله لاهجرن هذه الارض لأجله!».

وهكذا انتقل المحسود إلى مدينة اخرى، واشترى فيها ارضاً، وكان في تلك الارض بئر قديمة فعمّر إلى جانبها بيتاً وقطن فيه مطمئن البال، ولم تمض سنوات قليلة حتى استطاع أن يحول تلك الارض المهجورة إلى مزرعة خصبة تأتيه بمحصول وافر كل عام.

وكان طيب النفس سخي اليد، فكان الفقراء يقصدونه فيحسن إليهم، ويلوذ به ذوو الحاجات فيقضي حوائجهم، فذاع صيته والتمع اسمه وتعاظمت مكانته بين

الناس لشدة تقواه وصلاحه.

وسمع جاره الحاسد بما احرزه من الجاه والنعيم، فقدم اليه مع اعيان المدينة، فتلقاه بالرحب والسعة وبالغ في اكرامه، فقال له الحاسد:

ـ أن لدي حديثاً هاماً اريد أن افضي به اليك على انفراد.

فسارا في انحاء المزرعة حتى بلغا البئر القديمة، فدفع الحاسد بالمحسود فالقاه في البئر دون أن يراه احد، وغادر المزرعة وفي اعتقاده انه قضى عليه.

وكانت البئر آهلة بالجن فحملوه وأجلسوه على صخرة، وقال بعضهم لبعض:

ـ اتعرفون من هذا؟

ـ لا.

ـ هذا هو الشيخ المحسود الذي هرب من حاسده وسكن مدينتنا وأنشأ هذه المزرعة، وقد جاءه الحاسد واحتال عليه حتى رماه عندنا.. وكان خبره قد اتصل بسلطان المدينة وعزم على زيارته في الغد لاجل ابنته..

وما الذي بابنته؟..

ـ يسكنها مارد من الجن، ولو عرف والدها السلطان دواءها لكان ابرأها، ودواؤها في مطال اليد!

ـ وما دواؤها؟

ـ عند هذا المحسود قط اسود في آخر ذنبه نقطة بيضاء، فلو أخذ منها سبع شعرات وبخرها بها لنجت من المارد وبرئت في الحال!

دار هذا الحديث بين افراد الجن والمحسود يسمع، واستمر حتى الصباح، فلما لاح الفجر صعد الشيخ المحسود من البئر وعمد تواً إلى القط الاسود، واخذ من النقطة البيضاء التي في ذنبه سبع شعرات..

وما بزغت الشمس الا والملك قد جاء ودخل على المحسود فرحب به واكرمه وقال له:

ـ هل اكاشفك بما جئتني له؟

قال: نعم.

قال: جئت تزورني وفي نفسك أن تسألني عن ابنتك.

فقال الملك دهشاً:

ـ نعم ايها الشيخ الصالح!

فقال: جئني بها تبرأ هذه الساعة!

ففرح الملك وارسل أعوانه فجاءوا بالفتاة، فأجلسها الشيخ المحسود واخرج الشعرات السبع وبخرها بها، فمضى عنها المارد وعاد إليها عقلها. فاشتدت غبطة الملك وقبّل عيني ابنته كما قبل يدي الشيخ المحسود، ثم التفت إلى اكابر دولته وقال:

ـ ماذا تقولون؟.. بم اكافىء من شفى ابنتي؟

قالوا: بتزويجه اياها..

فقال: صدقتم.

ثم زفها إليه، واصبح المحسود صهر الملك، وبعد قليل مات الوزير فقال الملك لمستشاريه:

ـ من يخلفه؟

فقالوا: صهرك!

واختاروه وزيراً لحبهم اياه واحترامهم له.

ولم يمض وقت طويل حتى مات السلطان. وكان قد كبر وشاخ، فوقع اختيار الناس على الوزير فأقاموه عليهم ملكاً فلبس التاج واعطي الصولجان...

وفي احد الايام خرج الملك إلى ظاهر المدينة بموكبه الحافل، فالتقى جاره الحاسد وهو يستجدي في الطريق، فالتفت إلى احد وزرائه وقال له:

ـ أئتني بذلك الرجل ولا تخفه.

فاتاه بالحاسد جاره القديم، فقال له:

ـ هل عرفتني؟

فقال: نعم.. وهل ستأمر بقتلي؟

فالتفت الملك إلى وزيره وقال له:

ـ اعطوا هذا الرجل الف مثقال من خزانتي، وحملوا له عشرين جملاً من المتجر، وارسلوا معه حارساً يوصله إلى بلده

القرد الذكي

قال الدرويش الثاني:

ولما انتهيت من رواية هذه الحكاية قلت له:

ـ فانظر ايها العفريت، إلى عفو المحسود عن الحاسد الذي رماه في البئر واراد قتله!...

ثم بكيت بين يديه بكاءاً شديداً، وأنشدت:

صفح الكرام، فلم يزل اهل النهى
يهبون للجانين ما يجنونه

انى حويت على الذنوب بأسرها

فاحو من الصفح الجميل فنونه

فمن ابتغى عفو الذي هو فوقه
فليعف عن ذنب الذي هو دونه

فقال العفريت متبرماً:

ـ لا تطل عليّ الكلام.. اما القتل فلا تخف منه، واما العفو فلا تطمع به، ولكني ساسحرك انتقاماً منك..

ثم اقتلعني من الارض وطار بي إلى الجو، ثم حط بي على قمة جبل، واخذ قليلاً من التراب وهمهم عليه ورشني به وقال:

ـ اخرج من هذه الصورة إلى صورة قرد..

وغدوت منذ تلك الساعة قرداً ابن مائة سنة.. فبكيت على نفسي، وانحدرت من على الجبل فوجدت براً متسعاً فسرت في شعابه زمناً طويلاً، وانتهى بي السير إلى شاطىء البحر المالح، فوقفت، واذا بمركب وسط البحر ينحو الشاطىء الذي انا عليه، فتواريت خلف صخرة، وصبرت إلى أن اتى المركب فنزلت فيه، فقال احد البحارة:

ـ اخرجوا هذا القرد المشؤوم!

فقال الرئيس:

ـ بل اقتلوه

فقال آخر:

ـ ساقتله بهذا السيف!

فتعلقت بذيل الرئيس وبكيت وسالت دموعي، فحن عليّ وقال:

ـ يا تجار، هذا القرد قد استجار بي وقد اجرته وهو في ذمامي.

وأنشأ الرئيس يحسن إليّ، وطفقت اقضي حوائجه كلها واخدمه باستمرار، فأحبني كثيراً.

وسار بنا المركب إلى شاطىء مدينة عظيمة فيها خلق كثير لا يعرف عددهم الا الله، واقبل علينا ساعة وصولنا رسل ملك المدينة فهنأوا التجار وقالوا:

ـ لقد بعث اليكم ملكنا بهذه الصفحة من الورق ليكتب عليها كل منكم سطراً واحداً، فقد كان للملك وزير خطاط، وقد مات، واقسم السلطان بان لا يستوزر الا من يكتب مثل خطه!

ثم ناول التجار صفحة الورق، فكتبوا جميعاً، وقمت وانا في صورة القرد، وخطفتها من ايديهم، فنهروني، فأشرت اليهم بأنـ . خطاط.. ثم تناولت القلم واستمددت حبراً وكتبت هذين البيتين:

لقد كتب الدهر فضل الكرام

وفضلك للآن لم يكتتب

فلا ايتم الله منك الورى

لأنك للفضل أمّ وأب

ثك كتبت ابياتاً اخرى بخطوط مختلفة وسلمت الصحيفة لرسل الملك، فذهبوا بها اليه، فلم يعجبه الا خطي، فقال للجماعة:

ـ توجهوا إلى صاحب هذا الخط والبسوه حلة سنية، واركبوه بغلة مزركشة، واعزفوا امامه بالات الطرب، وجيئوا به إليّ:

فلما سمعوا كلام الملك تبسموا، فغضب الملك، فقالوا:

ـ أن لضحكنا سبباً، فالذي كتب هذا الخط قرد يخص رئيس المركب..

فقال: احقاً ما تقولون؟

وتعجب واهتز من الطرب، وبعث إلى المركب فأخذوني والبسوني الحلة واركبوني البغلة، فدهش الناس وتوافدوا للتفرج بي..

ودخلت على الملك فأمرني بالجلوس فجلست على ركبتي، ثم امرّ الحاضرين بالانصراف، فانصرفوا ولم يبق الا بعض الخدم، واحضر الطعام فأكلت، ورفعت السفرة فغسلت يدي واخذت الدواة والقلم وكتبت ابياتاً من الشعر، فتعجب الملك وقال:

ـ يا للغرابة! أقرد وعنده مثل هذه الفصاحة وهذا الخط... لو كان هذا الادب في انسان لفاق اهل عصره!

ثم قدم رقعة شطرنج وقال:

ـ هل لك أن تلعب معي؟

فاشرت برأسي ايجاباً، وتقدمت ولعبت معه مرتين وانا اغلبه، فحار عقل الملك، ثم اخذت القلم والدواة وكتبت على الرقعة هذين البيتين:

جيشان يقتتلان طول ضحاهما

فتخاصم في كل وقت زائد

حتى اذا جن الظلام عليهما

ناما وضمهما فراش واحد

فعجب الملك وطرب، واستولت عليه الحيرة، وقال لخادمه:

ـ امضِ إلى مولاتك سيدة الحسن وأئتني بها.

فغاب الخادم ومعه ابنة الملك، فلما نظرت إليّ غطت وجهها بيديها وقالت:

ـ يا ابي كيف طاب لك أن تدعوني لتريني الرجال؟

فقال: وممن تغطين وجهك؟

فقالت: أن هذا القرد شاب ابن ملك، وقد سحره العفريت جرجيس، ابن خالة ابليس وقتل حبيبته بنت الملك افتيماروس صاحب جزائر الابنوس!

فقال الملك: وكيف عرفت انه مسحور؟

قالت: يا ابت، كان عندي وانا صغيرة، عجوز ساحرة ماكرة علمتني من السحر مائة وسبعين باباً حفظتها واتقنتها جميعاً.

فقال: يا ابنتي خلصي هذا الشاب لأجعله وزيري!

فقالت: سمعاً وطاعة.

صراع العفريت وبنت الملك

ثم اخذت سكيناً وخطت دائرة وسط القصر، وكتبت اسماء ورسمت اشكالاً،



فاظلمت الدنيا واذا بالعفريت قد تدلّى علينا بهيئته المرعبة، له ايد كالمذاري وأرجل كالسواري، وعينان كشعلتين من نار، ففزعنا منه، وقالت بنت الملك:

- لا اهلاً ولا سهلاً!

فانقلب العفريت أسداً وقال لها:

- يا خائنة، نقضت العهد واليمين، اما تحالفنا على ألاّ يتعرض احدنا للآخر؟

فقالت له: يا لعين.. امثلك له عندي يمين!

فقال العفريت مهدداً:

- خذي ما جاءك...

وفتح شدقه وهجم على الصبية، فاسرعت وانتزعت شعرة من رأسها وهزتها بيدها وهمهمت بشفتيها، فصارت الشعرة سيفاً ماضياً وضربت به الاسد فشطرته نصفين وانقلب رأسه عقرباً..

فانقلبت الصبية حية عظيمة، واقتتلا قتالاً شديداً، ثم انقلبت العقرب عقاباً فانقلبت الحية نسراً...

وعادت العقاب ومسخت نفسها قطاً اسود، ولكنها رأت نفسها مغلوبة فتحولت رمانة حمراء...

وارتفعت الرمانة في الهواء، ثم وقعت على بلاط القصر فانتثر حبها، فانتفض النسر واصبح ديكاً واخذ يلتقط الحبوب المنثورة هنا وهناك حتى أتى عليها جميعاً ما عدا حبة واحدة لم يتمكن الديك من الوصول اليها، فطفق يصيح ويرفرف باجنحته ويشير بمنقاره ونحن لا نفهم ما يريد...

ثم تحامل الديك وانقض على الحبة ليلتقطها، واذا بها تغوص في مياه البركة، وتغدو سمكة حمراء.. فانقلب الديك حوتاً كبيراً ولحق بها...

ثم سمعنا صراخاً علا فارتجفنا، واذا بالعفريت قد خرج من الماء وهو شعلة متأججة، يتصاعد من حلقه نار، ومن عينيه وانفه نار ودخان...

وخرجت الصبية وراءه وهي جمرة نار عظيمة، فتقاتلا حتى انعقدت عليهما النيران وانحبس الدخان، فخفنا وحاولنا أن نغطس في الماء خشية الحريق والهلاك، وقال الملك:

- ليتنا لم نعرف هذا القرد.. لا بارك الله فيه.. رغبنا في أن نعيد اليه حريته

فابتلينا بهذا العفريت اللعين الذي يقهر الانس والجن مجتمعين.

انقاذ الامير

وما اتم الملك كلامه الا وصرخ العفريت تحت النيران، ووثب إلى الديوان، ونفخ في وجوهنا بالنار... فلحقته الصبية، ونفخت في وجهه، فاصابنا الشرار منها ومنه. اما شرارها فلم يؤذنا، واما شراره فاصاب عيني فطمسها وانا في صورة القرد.

ولحق الملك شرارة منه في وجهه احرقت لحيته وحنكيه واوقعت صف اسنانه السفلى، ووقعت شرارة في صدر الخصي فاحترق ومات.

فايقنا بالهلاك، وكدنا نودع الحياة خوفاً ورعباً، لو لم تسرع بنت الملك باحراق العفريت الذي نجونا منه برحمة الله.

وأقبلت الصبية فأمرت بالماء فجاؤوها به فتمتمت فوقه ثم رشته عليّ وقالت:

- عد إلى صورتك الاولى!

فانتفضت فاذا انا بشر، ولكني فاقد العين اليسرى، وقالت الصبية جزعة:

- النار.. النار.. يا والدي اني لن اعيش طويلاً، فانا لم اعتد على قتال الجن، وما تعبت الا وقت انتثار حبوب الرمان اذ التقطتها كلها ما عدا الحبة التي فيها روح الجني.. فقد شاء القدر أن احارب هذا العفريت اللعين على الارض وفي الهواء والماء!...

ثم استغاثت من النار التي تضطرم في جوفها، ولم تزل تستغيث حتى صعد شرار اسود إلى صدرها وسرى إلى وجهها، فاذا بها كومة رماد إلى جانب كومة العفريت.

فلما رأى الملك مصير ابنته سيدة الحسن نتف ما بقي من شعر لحيته، ولطم وجهه، وشق ثوبه، وفعلت كما فعل وبكينا وأعولنا..

وبعد زمن تعافى الملك ونبتت لحيته فاستحضرني وقال لي:

- يا فتى.. ليتنا لم نر طلعتك القبيحة فقد هلكنا بخلاصك، فاخرج من مدينتنا، وأن عدت إليها قتلناك!

المسير إلى بغداد

فخرجت ومشيت شهراً كاملاً وانا اردد كلما استعدت ذكريات ايامي

السابقة، وما عانيته فيها من آلام، هذه الابيات:

تحيرت، والرحمن لا شك في امري
وحاطت بي الاحزان من حيث لا ادري

فلو أن ما بي بالجبال لهدمت
وبالنار اطفاها، وبالريح لم تسر
سأصبر مغلوباً بغير توجع
كما يصبر الظمآن في زمن الحرّ
ساصبر حتى يعلم الناس انني
صبرت على شيء امر من الصبر
ولا شيء مثل الصبر مرّ،
وانما أمرّ من المرّين أن خانني صبري.

واخذت اطوف في الاقطار وأزور الامصار حتى ضاقت بي الدنيا، فقصدت بغداد دار السلام لعل احداً يقدمني إلى امير المؤمنين فاخبره بما جرى لي، فوصلت هذه الليلة، فوجدت اخي الاول يقف حائراً، فحييته وحدثته، واذا باخينا الثالث قد اقبل علينا وقال:

ـ انا رجل غريب!

فقلنا له:

ـ ونحن غريبان.

ثم مشينا معاً ونحن نردد قول امرىء القيس الملك الضليل:

اجارتنا أن المزار قريب
واني مقيم ما اقام عسيب
أجارتنا، انا غريبان هاهنا
وكلّ غريب للغريب نسيب

وساقنا القدر إلى هذا الباب فقرعناه ودخلنا عليكم...

وتنهد الدرويش الثاني بألم ولوعة وقال:

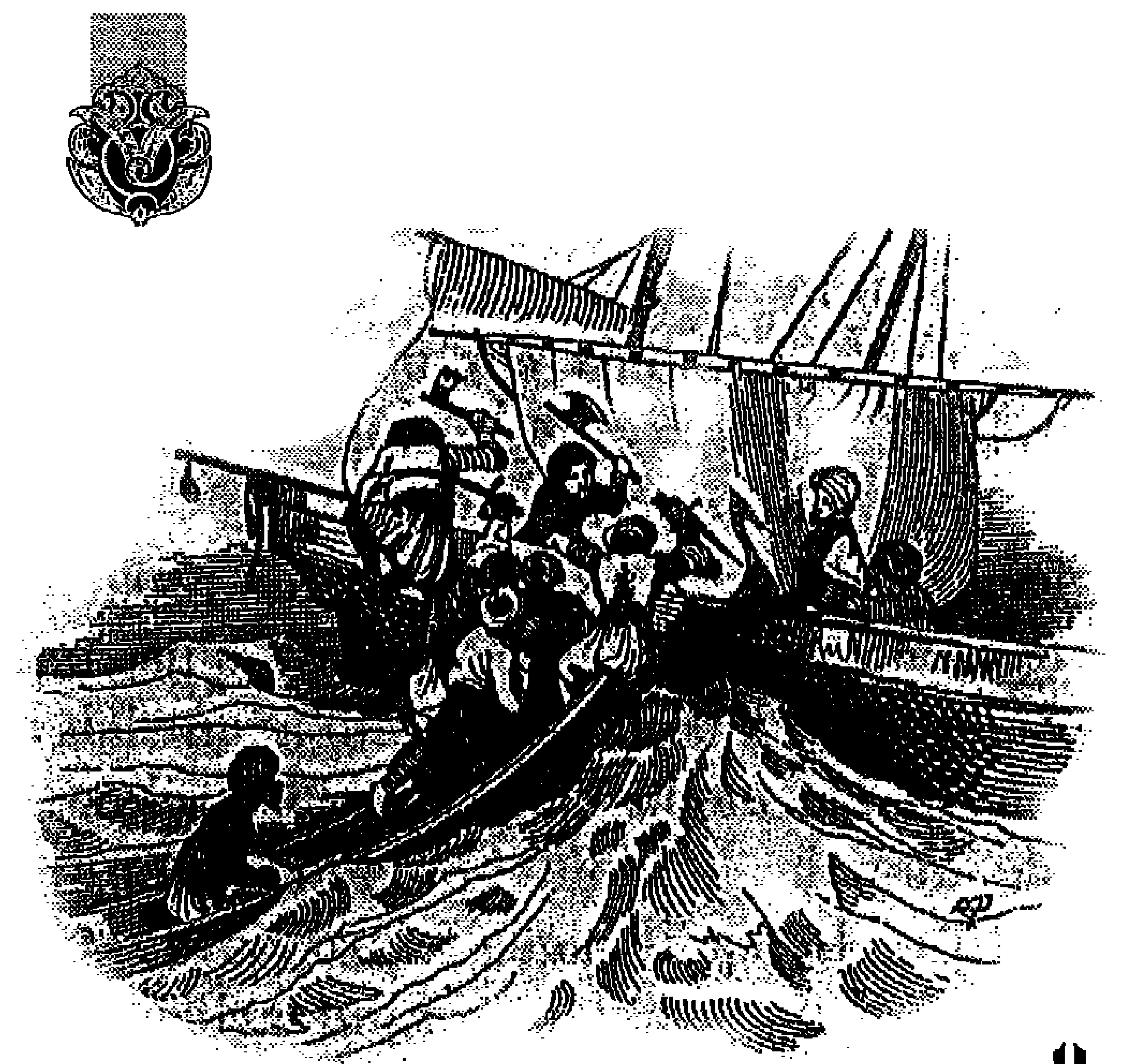
ـ ذلك هو سبب حلق لحيتي وشاربي وقلع عيني!

فقالت صاحبة السرير:

ـ أن حكايتك لنادرة غريبة، فاملس رأسك واخرج..

فقال: لا اخرج والله الا بعد أن اسمع حديث رفيقي الثالث!..





في بحر المهالك

تقدم الدرويش الثالث وقال:

أن قصتي ايتها الحسناء، اغرب من قصيتهما واعجب، فان رفيقي ضحيتان من ضحايا القضاء والقدر، اما انا فقد جلبت لنفسي الهموم والمصائب، وكدت أهلك ذاتي بيدي.

انا الملك عجيب ابن الملك خصيب، مات والدي فحكمت بعده، وعدلت، واحسنت إلى الرعية ما شاء الاحسان، وكانت مدينتي على شاطيء البحر الواسع، وحولنا جزائر كثيرة وعظيمة في وسط هذا البحر الذي كان لي فيه مئات المراكب التجارية، ومئات منها للتنزه والمتعة، واكثر من ذلك للحرب والقتال.

واردت احد الايام أن ازور هذه الجزائر فاتفرج بها وامتع نفسي بجديدها، وكان بي حب جامح لركوب البحر ورغبة عارمة في السفر، فاخذت عشرة مراكب وزاد شهر كامل.

وفي احدى الليالي هبت علينا رياح مختلفة، وهاج البحر وطغى، وتلاطمت امواجه تلاطم الجبال بالجبال، وادلهمت السماء، وقطب جبينها، فسادت الجو ظلمة قاتمة، مكفهرة، فقلت: «ليس المخاطر بمحمود ولو سلم!» واستغثنا بالله، انا ومن معي من رجالي، وابتهلنا اليه.

وما زالت الرياح تعصف وتزأر، وهي تختلف وتحتدم، فطوراً تهب من الشمال، وطوراً من الجنوب.. وما زالت الامواج تتعالى وتتضارب، مزبدة مهددة، إلى أن لاح الفجر وانتشر، فهدأت الريح وصفا الجو، وخف هيجان البحر. واشرفنا، عندما اشرقت الشمس، على احدى الجزر، فارسينا وخرجنا إلى البر، وهيأنا بعض الطعام واكلنا. وطفنا في الجزيرة يومين تعرفنا فيهما إليها، وروحنا عن نفوسنا بعض العناء.

في قبضة المخاطر

ثم تابعنا سفرنا في جو صاف وبحر هادىء، فلما انقضت عشرون يوماً على ركوبنا البحر، اختلفت علينا المياه، فاستغرب رئيس بحارتنا الامر، فقال للناظور الذي يراقب احوال المياه ويستطلع خبر البحر:

- اكشف البحر واخبرنا بما ترى.

فصعد حتى بلغ السارية، فنظر إلى البحر ملياً ثم عاد يقول:

- ايها الرئيس رأيت إلى يميني سمكاً يطفو على وجه الماء، ونظرت إلى وسط البحر فرأيت بعيداً، جسماً يلوح تارة اسود وتارة ابيض.

فلما سمع الرئيس كلام الناظور ضرب بعمامته الارض ونتف لحيته وقال:

- لقد تم هلاكنا جميعاً فلن يسلم منا احد!

وشرع يبكي ويعول ونحن لا نعرف عن حقيقة الحال شيئاً، فقلت:

- ايها الرئيس اخبرنا بما رأى الناظور.

فتنهد وقال بحزن:

- اعلم يا مولاي اننا منذ بكرة ذلك النهار الذي اقلعنا فيه عن شاطىء الجزيرة ونحن نتيه في عرض اليم، وليس من ريح توجهنا إلى ما نحن قاصدون.. وسنصل غداً إلى جبل من الحجر اسود يسمى حجر المغناطيس، فتجرنا المياه كرهاً إلى اسفله، فتنشق المراكب ثم تتحطم، ثم تنزع منها المسامير وتسرع إلى الجبل فتلتصق به، لأن في حجر المغناطيس سراً هو أن الحديد يجذب إليه.. وفي وسط هذا الجبل قبة من النحاس الاصفر معقودة على عشرة اعمدة، وفوق القبة فارس وفرس

من النحاس، وفي يد ذلك الفارس رمح هو ايضاً من النحاس، وعلى صدره لوح من رصاص منقوشة عليه اسماء وطلاسم.

ثم اضاف قائلاً:

ـ ايها الملك.. ما يهلك الناس الا الراكب على هذه الفرس، وما الخلاص إلا إذا وقع هذا الفارس من مكانه.

وبكى الرئيس بكاءً مراً، فتحققنا أنّا لا محالة هالكون، واخذ كل منا يودع صاحبه بألم وغصة.. ولم يغمض لنا تلك الليلة جفن.

الفارس النحاسي

.وفي الصباح دنونا من ذلك الجبل، وساقتنا المياه كرهاً إليه.. ولما اصبحت المراكب تحته اقتلعت منها المسامير، وكل ما فيها من حديد، وتمّ قول الرئيس، إذ اجتذبت إلى حجر المغناطيس فالتصقت به..

واخذنا نحن ندور حوله طلباً للخلاص، فنجا بعضنا وغرق اكثرنا. اما الذين نجوا وهم قليل، فلم يلتق الواحد منهم بالآخر، لأن الامواج المتلاطمة والرياح المتناوحة قذفت كلاً إلى جانب..

وكنت انا في عداد الناجين، اذ اراد الله شقائي، وعذابي.. فركبت لوحاً من الواح المراكب المحطومة قذفته، الريح فالتصق بالجبل، فوجدت طريقاً كأنها سلالم منقورة، فتسلقتها إلى اعلاه، ولا همّ لي إلا القبة وطريقة الخلاص من الفارس الذي عليها، فأتيتها ونمت تحتها...

وما كدت اغفو، حتى سمعت في منامي هاتفاً يهتف:

ـ يا ابن خصيب.. اذا انتبهت من نومك فاحفر تحت قدميك، تجد قوساً من نحاس وثلاثة اسهم من رصاص نقشت عليها كلمات وحروف. قم خذ القوس والسهم، وارم الفارس الذي على القبة فتريح الناس من هذا البلاء العظيم...

وتابع الهاتف يقول:

ـ فاذا رميته يقع في البحر، وتقع القوس بين يديك، فخذها وادفنها في موضع الفرس.. فاذا فعلت ذلك يرتفع البحر حتى يساوي الجبل، ويعلو سطحه زورق فيه شخص من نحاس غير الذي رميته، فيجيء إليك وفي يده مجذاف، فاركب معه ولا تذكر اسم الله ابداً، ويسافر بك هذا الشخص النحاسي مدة عشرة ايام، حتى يوصلك إلى بحر

السلامة.. فاذا وصلت اليه وجدت من يسير بك إلى بلادك...

وذكرني الهاتف للمرة الثانية بقوله:

ـ أن كل هذا يتم لك اذا لم تذكر اسم الله!

من هول إلى هول

واستيقظت من نومي قوياً نشيطاً، فعملت بما قال الهاتف، ورميت الفارس بالسهم فوقع في البحر..

ووقعت القوس بين يدي، فأخذتها ودفنتها، فهاج البحر وعلا حتى ساوى قمة الجبل وبلغ موطىء قدمي..

فلم البث غير قليل حتى رأيت زورقاً يتهادى على وجه الماء، آتياً نحوي، ولما وصل إليّ وجدت فيه شخصاً من النحاس وفي صدره لوحاً من الرصاص نقشت عليه اسماء ورموز...

فايقنت بصحة الهاتف وصعدت الزورق وانا صامت واجس، فجذّف الشخص النحاسي، واستمر يجذف حتى اليوم العاشر..

وتطلعت إلى الافق واذا بي ارى جزائر السلامة، ففرحت فرحاً عظيماً،



ولشدة فرحي ذكرت اسم الله مهللاً مكبراً...

فما كدت افعل ذلك، حتى انقلب الزورق في البحر بشدة وعنف، وقذفني بين اشداق المياه الصاخبة المزبدة...

وكان قد سبق اني تعلمت السباحة وانا في قصر والدي، فجعلت اسبح مجاهداً الامواج المتعاظمة، وبقيت اعوم طوال ذلك النهار، ولم يأت الليل الا وقد ارهقني التعب وأكلّ ساعديّ...

واشتدت الريح وتعاظم خطرها، فهاج البحر وزمجر، فجاءتني موجة كالقلعة الزاحفة، فحملتني ورمت بي إلى البر مغشياً عليّ، ثم افقت فعصرت ثيابي ونشرتها على الارض، وبتّ ليلتي تلك على ما بي من الخوف والرعب والبرد والجوع...

نفق في غابة

ولما أطلّ الصباح، لبست ثيابي واخذت اطوف شواطيء الجزيرة، فاذا بها صغيرة يحيط بها الماء من كل جانب، فاتجهت شطر اواسطها فوجدت غابة، فجئتها وجلست، واسندت ظهري المتعب إلى ساق شجرة كبيرة وأنشأت افكر في ما مر بي من المصاعب والاهوال.

وبينما انا على هذه الحال وقعت انظاري على مركب يتجه إلى الجزيرة، وفي هذا المركب خلق كثير فنهضت وتسلقت الشجرة واختبأت بين افنانها وأوراقها.

ولما اقترب المركب من الشاطيء خرج منه إلى البر عشرة عبيد يحملون المجارف، ومشوا حتى وصلوا إلى الغابة، فحفروا الارض وكشفوا عن طبق نحاسي فرفعوه، فبدا امامهم باب ونفق عميق، ثم عادوا إلى المركب فنقلوا منه خبزاً ودقيقاً وسمناً وعسلاً واغناماً وطيوراً، كما جاءوا بجميع الادوات التي تعوز المسكن.

وما زال العبيد في صعود المركب ونزول، إلى أن نقلوا جميع ما فيه إلى الحفرة... ثم خرجوا جميعاً يتوسطهم شيخ عجوز لم يبق منه الدهر إلا شبحاً آدمياً، يرتدي خرقة زرقاء بالية تمر في خروقها الريح شرقاً وغرباً، وهو يرتعش هرماً، ويرتجف تحت وطأة العمر وثقل الايام.

وكان ذلك الشيخ يمسك بيد صبي صبيح الوجه، وضّاء الطلعة، مرح الاعطاف، كأنه افرغ في قالب الكمال فحقّ أن تضرب به الامثال...

وما زالوا سائرين حتى انتهوا إلى الحفرة، فنزلوا إلى النفق وغابوا ساعة او اكثر. ثم خرج العبيد والشيخ، ولم يخرج الصبي، واعادوا الطبق النحاسي إلى مكانه، واحكموا اغلاقه، وستروه بالتراب، ونزلوا إلى المراكب وابحروا وغابوا عن عيني.

سر الفتى الحبيس

فـمـا كـان مـنـي الا أن وثـبـت إلـى الارض، ومـشـيـت إلـى مـوضـع الـردم، ونبشت التراب فـانكشـفـت عن الطبق، ولكن بعد عياء وتعب مرهقين، فرفعته فبانت من تحته سلم حجرية يقوم فوقها سقف معقود، فنزلت فيها حتى انتهيت إلى آخرها، فوجدت قاعة نظيفة مفروشة بانواع البسط الثمينة والحرير الاطلسي، ورأيت الصبي جالساً وحده على اريكة عالية، وهو متكىء على مخدة بيضاء، وفي يده مروحة وامامه أزهار ورياحين، فلما رآني امتقع وجهه وبدت عليه آثار الخوف، فحييته وقلت:

ـ هدىء روعك ولا بأس عليك... فأنا انسي مثلك، وقد ساقتني المقادير اليك لأؤنسك في وحدتك وأريحك من بعض همومك، فاخبرني بحكايتك وقل لي ما الذي اتى بك إلى جوف هذه الارض؟!

فلما تحقق أني ادمي مثله، فرح واطمأن باله، وردّ إلى وجهه الجميل لونه الوردي، وقربني إليه وقال:

ـ حكايتي يا اخي غريبة حقاً... فانا ابن تاجر غني عنده من العبيد والمماليك عدد كبير، وقد اتسعت تجارته اتساعاً لا مثيل له وامتدت إلى اقاصي الارض، فتعاظمت ثروته حتى اصبح جميع التجار في بلادنا من عماله، يسافرون له ويتجندون في خدمته...

ولم يرزق والدي اول الامر ولداً، رغم رغبته في أن يكون اباً، فسلخ معظم ايامه حزيناً كئيباً، ثم رأى في الحلم ذات ليلة، انه سيرزق ولداً ولكنه لن يعيش طويلاً، فاستيقظ يبكي ويصرخ جزعاً واشفاقاً...

وصدق حلم والدي اذ اتيت إلى هذا العالم بعد تسعة اشهر، فأولم واطعم، وكاد سروره بي ذلك الحين، يعدل احزانه السالفة او يفوقها، وخطر له أن يجمع المنجمين وحكماء الزمان والعارفين باحكام المواليد، فنظروا في امري وقالوا له:

ـ يعيش ولدك خمس عشرة سنة سليماً معافى، ثم تدركه مخاطر قاسية أن سلم منها عاش زمناً طويلاً.. اما ما نخشى الولد اذاه، فهو أن في بحر المهالك جبل مغناطيس، وعلى هذا الجبل فارس وفرس من نحاس، فاذا وقع الفارس عن ظهر فرسه مات ولدك حتماً بعد خمسين يوماً... وقاتله هو الرجل الذي يرمي ذلك



الفارس، واسمه عجيب بن خصيب!...

فاغتمّ ابي غماً شديداً، واحاطني بعنايته وحنانه، ووقف حياته على اسعادي، إلى أن بلغت الخامسة عشرة..

ومنذ عشرة ايام، علم والدي أن فارس جبل المغنطيس قد سقط في البحر، وأن الذي رماه هو عجيب ابن الملك خصيب.. فخاف عليّ من الهلاك وبعثني إلى هذا المكان، لأكون فيه بعيداً عن الناس وفي منأى عن اي خطر...

وبكى الفتى وقال ملتاعاً حزيناً:

ـ هذه هي قصتي و هذا هو السبب في وحدتي!

الصداقة الوثقى

فلما انتهى من حديثه، عجبت لأمره وزاد عجبي من أنني الرجل الذي ينتظر أن يقتله فهو يكرهه ويخشاه.. فقلت في نفسي:«والله لا اقتله ابداً!»... ولماذا افعل ذلك بفتى في براءة الورد وجمال الصباح...

ثم قلت له مواسياً:

ـ وقيت الاذى يا اخي، لن يمسك باذن الله سوء، ولن يجروء عليك مخلوق.. وسوف ابقى في خدمتك اجلب السرور إلى قلبك والطمأنينة إلى نفسك.. وعند انقضاء فترة الخطر، وعودة

المماليك إليك، نركب البحر معاً لعل احداً يوصلني إلى بلادي باشارة منك.

وجلست احدثه واسليه حتى اقبل الليل، فقمت واوقدت شمعة كبيرة واشعلت القناديل، ثم احضرت الطعام وشيئاً من الحلوى، فأكلنا وجلسنا نتأمل في بيتنا تحت الارض، ونتنادر علّنا ننسى بعض ما صرنا إليه.

ومضت من الليل طائفة، ونحن على هذه الحال، ولم يبق منه الا الهزيع الاخير، فتثاقلت اجفان الصبي فنام، فغطيته وقمت فنمت.

ولما اصبحت سخنّت قليلاً من الماء، ونبهته برفق فاستيقظ، فأتيته بالماء فغسل وجهه وقال:

ـ جزيت خيراً يا فتى.. والله لاحملن ابي على مكافئتك متى سلمت مما انا فيه ومن ذلك السفاح الذي يدعى عجيباً بن خصيب!

وبكى مرة أخرى وقال:

ـ واما اذا لاقيت حتفي فالسلام عليك.

فقلت له وقد اشتد جزعي عليه:

ـ لا كان يوم يصيبك فيه شر او اذى.. وجعل الله يومي قبل يومك.

واتيت بشيء من الطعام فأكلنا، ثم طفقنا نتحدث إلى ان اقبل الليل، فنهضت واوقدت المصابيح، ثم تناولنا طعام العشاء، وسهرنا كالليلة البارحة حتى إنقضى اطول قسم من الليل ولم يبق منه إلا القليل، فنام الصبي فغطيته، ثم قمت فنمت.

وبقينا يا مولاتي على هذه الحال، اياماً عديدة وليالٍ طوالاً، أزددت خلالها حباً له حتى شغفت بصداقته، وكدت انسى همومي ومتاعبي، وكنت اردد في نفسي قولي: «كذب المنجمون وضلوا... والله لا اقتله ابداً ولا أؤذيه، ولو كان في أذيته حياتي وسعادتي».

القاتل بالرغم منه

ولم ازل أخدمه وانادمه واسامره حتى كانت الليلة الاربعون، حين ابدى الصبي فرحه العظيم بقرب خلاصه من الموت اذ قال:

ـ يا اخي، احمد الله الذي نجاني من الموت بفضل عطفك وحنانك وبنعمة قدومك، وأسأله بحرارة وإيمان أن يردّك

سالماً إلى بلادك.. وأرجو الآن أن تأتيني بشيء من الماء الساخن لاستحم.

فشاطرته فرحه وقلت:

ـ اني لقائم بكل ما ترغب فيه.

وسخنت ماء ودخلت به عليه، وغسلت جسده غسلاً جيداً، ودلكته وضمخته بالطيب، وغيرت له ثيابه، ثم بسطت فراشاً عالياً، فجاء الفتى فاستلقى عليه وقال:

ـ اقطع لنا بطيخة وذوب بها قليلاً من السكر فنأكلها معاً.

فدخلت خزانة الطعام فوجدت بطيخة موضوعة في طبق، فقلت:

ـ اما في هذه الخزانة سكين يا مولاي؟

فقال: ها هي فوق رأسي على هذه الصفّة العالية.

فقمت مسرعاً وتناولت السكين ورجعت إلى الوراء، فعثرت رجلي، لسرعتي وانهماكي، بجسم الفتى، والسكين في يدي، فوقعت عليه، فدخل نصلها في صدره فمات!...

فلما علمت اني قتلته بيدي، صرخت صرخة عظيمة ولطمت وجهي وشققت ثيابي وقلت:

ـ اعلى يدي كان أجل هذا المليح الطيب؟!

وغصصت بدمعي، وتمنيت لو قضيت نحبي قبله، اذن لسلمت من مصيبة جديدة كانت اثقل على نفسي من كل ما اصابني ولحق بي..

وتعاظم المي، وغزرت دموعي، فلم يبق باستطاعتي البقاء إلى جانب من احببته واخلصت له الصداقة والود، وانا اراه مقتولاً بيدي فصعدت السلم واغلقت الطبق النحاسي، ورددت عليه التراب، ونظرت إلى البحر فرأيت المركب يشق عباب الموج باتجاه البر، فخفت وقلت:

ـ الآن يصيبون ولدهم مقتولاً فيعرفون اني قاتله فيدركني أجلي...

لوعة أب

وعمدت إلى شجرة عالية فتسلقتها واستترت بأوراقها.. وما كدت استقر بين اغصانها، حتى خرج العبيد يتوسطهم الشيخ العجوز والد الفتى، فجاؤوا إلى المدخل ونزلوا فوجدوه مستلقياً على الفراش، وقد اشرق وجهه بفعل

الاستحمام، وهو يرتدي ثياباً نظيفة كأنها لعيد او عرس، والسكين مغروزة في صدره، والدماء تسيل منه...

فصرخوا وبكوا ولطموا وجوههم، وغشي على الشيخ ساعة طويلة ظن العبيد خلالها أنه لن يعيش بعد موت ولده، وارخوا على الفتى ملاءة من الحرير، وساروا به إلى سطح الارض..

ثم استفاق الشيخ وخرج وراءهم، فنظر إلى ولده من جديد فوقع على الارض ومرغ رأسه بالتراب، ونتف لحيته، وصرخ وأعول، فغشي عليه ثانية، فجاءه العبيد بقطع من حرير فلفوه بها، ومددوه على مقعد، وجلسوا حوله يبكون ويتأوهون.



جرى كل هذا يا مولاتي، وانا في الشجرة فوق رؤوسهم، انظر إليهم بدمعة وغصة، ولولا خوفي لغلب عليّ العويل لهول ما فعلت...

وما زال الشيخ في غشيانه، فاقداً كل وعي وحس، إلى أن قرب الغروب، فاستفاق ونظر إلى ولده وخاطبه قائلاً:

ما كان أحسننا والدار تجمعنا

ونحن في غبطة، والعيش متصل!

ثم حدق اليه ملياً بعينين كليلتين، كأنما يلقي عليه آخر نظرات الوداع... وشهق ففاضت روحه وفارق الحياة!

فصرخ العبيد واجهشوا في البكاء، وحملوا الشيخ وولده إلى المركب، ورفعوا الاشرعة وأبحروا...

فلما غابوا عبر المياه، نزلت من الشجرة إلى القاعة، والتفت إلى حيث سالت الدموع وخفقت القلوب، فوقعت انظاري على بعض ثياب القتيل وحوائجه ملقاة على الارض، فاشتعل فؤادي حزناً والماً، وسكبت دموعاً كانت اصدق ما سكبت من دموع، ورددت وانا اغص بكاء وعيناي لا تجوزان امتعة الصبي البريء:

ارى آثارهم فأذوب شوقاً

واسكب في مواطنهم دموعي

وأسال من قضى بالبعد عنهم

يمنّ عليّ يوماً بالرجوع

وخرجت إلى سطح الارض، وجعلت اطوف في الجزيرة طوال ذلك النهار، منشداً الشعر الحزين، ولما اقبل الليل عدت إلى القاعة وبت على الم وقلق حتى الصباح، ثم خرجت اطوف في الجزيرة...

واقمت على ذلك شهراً كاملاً كان الماء يقل خلاله من جهة الغرب وينقطع تياره... وما أن انتهى الشهر حتى كان القسم الغربي من البحر قد جف او كاد، فعجبت من ذلك عجباً عظيماً، وخضت ما بقي فيه من الماء، وخرجت إلى البر فلقيت كثبان رمل تغوص فيها قوائم الجمال حتى ركابها، فشددت عزيمتي وسرت...

عشرة شبان عور

وكان الليل قد اقبل، ولكن ذلك لم يمنعني من مواصلة المسير، وما زلت اواجه الصعاب والمخاطر إلى أن بدت لي نار تلوح من بعيد، فقصدتها وقلت، وقد شع في نفسي بارق من الامل:



عسى ولعل الدهر يلوي عنانه

ويأتي بخير، والزمان غيور

ويسعف آمالي ويقضي حوائجي

وتحدث من بعد الامور امور

فلما اقتربت من النار رأيت قصراً بابه من النحاس الاصفر، فمكثت حتى اشرقت الشمس، فاذا بالقصر يتوهج كأنه جذوة من نار، ففرحت برؤيته واقتربت من بابه النحاسي وجلست امامه...

ولم يطل جلوسي حتى اقبل عشرة شبان يرتدون الثياب الفاخرة، ومعهم شيخ عجوز. وكان الشبان العشرة عوراً بالعين الشمال، فتعجبت من هذا الاتفاق الغريب، وخالجتني الريبة في امرهم...

ولما رأوني سلموا عليّ، وسألوني عن حالي، فرويت لهم ما جرى لي فاستغربوا حكايتي، وطلعوا بي إلى القصر، وأدخلوني قاعة فسيحة رأيت فيها عشرة أسرّة ذات فرش واغطية زرقاء، وفي وسط تلك الاسرة سرير آخر صغير هو ايضاً ازرق بكل ما عليه.

فصعد كل شاب إلى سريره واستلقى عليه، وصعد الشيخ إلى السرير الصغير وقال لي:

ـ يا فتى.. اقم في هذا القصر اذا شئت، ولكن اياك أن تسأل عن احوالنا وعن عور عيوننا...

ثم نهض واحضر لكل شاب طعاماً في وعاء، وشراباً في اناء، واحضر لي مثل ذلك.. وبعد أن اكلنا وشربنا، اخذوا يسألونني عن احوالي فاخبرهم بها، واستزادوني فأسهبت.. وبقينا بين سؤال وجواب إلى أن ذهب النهار ومعظم الليل، فقال الشبان:

ـ إلى فريضتنا ايها الشيخ فقد حان وقتها...

فنهض الشيخ ودخل مخدعاً في القصر، وغاب قليلاً ثم عاد وعلى رأسه عشرة اطباق يستر كلا منها غطاء ازرق. واوقد شموعاً وغرز في كل طبق شمعة، وقدم لهم الاطباق، ثم كشف عنها الاغطية فبان تحتها رماد وفحم مسحوق..

فشمر الجميع عن سواعدهم وبكوا وانتحبوا وشقوا ثيابهم، وقرعوا بشدة على صدورهم، ومرغوا وجوههم بما في الاطباق من رماد وفحم، واخذوا يرددون:

ـ كنا سعداء فرحين؛ ولكن فضولنا لم يبق لنا سعادة او فرحاً!

وما زالوا على هذه الحال حتى قرب الصبح، فقام الشيخ وسخن لهم ماء، فغسلوا وجوههم ولبسوا ثياباً جديدة.

فلما رأيت ذلك يا مولاتي، ذهب عقلي واشتغل سري، وكدت انسى ما جرى لي، ولم استطع السكوت دون استفهامهم فقلت لهم:

ـ اي شيء اوجب هذا ايها الاخوان العقلاء؟ اني اسألكم بحق كل عزيز عليكم أن تطلعوني على حالكم، وعلى سبب قلع عيونكم وتمريغ وجوهكم بالرماد ومسحوق الفحم...

فالتفتوا إليّ وقال:

ـ يافتى... لا تكن فضولياً ولا تتعرض لما لا يعنيك!

سر القصر المسحور

وفي الليلة التالية عاد الجميع وكرروا ما فعلوه الليلة البارحة... ومضى شهر كامل وهم على هذه الحال...

فضقت ذرعاً بما أرى، وبلغت بي الحيرة حداً قصياً، حتى اني اضربت عن الاكل والشرب.. وازداد بي الفضول فقلت لهم:

ـ ايها الاخوان، لم لا تزيلون همي فتخبروني بسر اعمالكم هذه؟

فقالوا ناصحين محذرين:

ـ كتمان سرنا أولى بك.

فقلت وقد اشتد بي الحنق:

ـ لا بد من أن تخبروني سبب ذلك!

فقالوا للمرة الاخيرة:

ـ في اطلاعك على سبب ما نفعل مشقة لك ومتاعب...

فقلت متخذاً قراري الحاسم:

ـ لا بد من ذلك مهما يكن من أمر!

فعمدوا إلى كبش فذبحوه وسلخوه وقالوا لي:

ـ خذ بيدك هذه السكين، وادخل هذا الجلد فنخيطه حولك، فيأتيك طير يدعى الرخ فيحملك حتى اعلى طبقات الجو، ثم يحط بك على قمة جبل، فمزق الجلد حينئذٍ واخرج منه، فيخافك الطير فيخليك ويمضي لسبيله...

ثم امش نصف نهار تلق قصراً مدهش الصنعة عجيب الشكل، فادخله تعرف سبب ما صرنا اليه، اذ أن دخولنا هذا القصر هو الذي كان سبب قلع عيوننا وتمريغ وجوهنا بالسواد كل ليلة...

وقد يطول بنا الحديث اذا حاولنا أن نطلعك بالتفصيل على ما مرّ بنا في ذلك القصر... فلكل منا حديث يستغرق ليالي طويلة!

في القصر المسحور

ففرحت بذلك برغم تفكيري في هول ما انا صائر اليه اذا اصررت على موقفي.. وطلبت اليهم أن ينجزوا ما وعدوا به ففعلوا...

وجاء الطير فحملني وحط بي على الجبل، فخرجت من الجلد ومشيت حتى وجدت القصر، فدخلته واذا فيه اربعون

غانية حسان الوجوه ناهدات الصدور، يضفي عليهن الشباب الغض روعة الجمال وسمات الفتنة...

فلما رأينني رحبن بي وأجلسنني على اريكة وثيرة، وأتينني بطعام وشراب فأكلت واياهن وشربت، وقام بعضهن وجئن بعود فضربن به وغنين، فتملكني من الغبطة ما انساني تلك الآونة ذكريات الماضي وهمومه.

واتفق أن كان تلك الليلة عيد السنة الجديدة، فقلن لي:

ـ ليتك لم تأت إلى هذا القصر ايها الشاب، فليس فيه ما يغري بالاقامة.

واخذن يبكين، فقلت لهن:

ـ ما الخبر؟

فقلن: نحن بنات ملوك نجتمع هنا منذ عدة سنيَن، نغيب في كل منها اربعين يوماً ثم نعود إلى هذا القصر، نسعد ونطرب، ثم نغيب... ثم نرجع... وهذا دأبنا مذ حللنا هذا المقام وإنّا لنخشى أن تخالفنا بعد أن نغيب عنك في ما نأمرك به... فها نحن نسلمك مفاتيح القصر وفيه اربعون غرفة نأذن لك بفتح تسع وثلاثين منها.. ولكن حذار أن تفتح الباب الاربعين فينالك الاذى وتفارقنا إلى الابد!

فقلت لهن مطمئناً:

ـ لن افتحه ابداً.

ثم ودعنني وذهبن إلى حيث لا ادري.. وبقيت في القصر وحدي...

ولما قرب المساء فتحت باب الغرفة الاولى ودخلته فاذا وراءه دار كأنها الجنة، امامها بستان مخضر الاشجار يانع الاثمار، اطياره صادحة ومياهه، متدفقة... فاطمأن خاطري، واخذت اتدرّج بين الاشجار اتنشق الروائح العطرة، واترنح من غناء الطير، وما أجمل ما رأيت من تفاح وبرقوق، وفواكه تروح الوانها بين اصفرار واحمرار...

ثم خرجت من ذلك المكان واغلقت الباب، ولما كان الغد فتحت باباً ثانياً ودخلته، فاذا بي في ميدان كبير فيه نخل باسق، ونهر جار، وورد وياسمين، وبنفسج ونسرين.. ينتثر على جوانبه النرجس، وتفرش ارضه روائع الزهور.. ومر النسيم على تلك الرياحين، فانتشر الطيب في جوها فانتشيت طرباً ومتعة، ثم خرجت من ذلك المكان فرحاً بما وجدت فيه من جمال وفتنة.



وفي اليوم التالي فتحت باب الغرفة الثالثة، فرأيت وراءه قاعة كبيرة فرشت طبقتها السفلى بالرخام الملون والمعادن الثمينة والاحجار الكريمة، وفيها من الطير كل صادح غريد، يغني في قفص من ذهب او معدن ثمين.

ثم فتحت الغرفة الرابعة فوجدت بيتاً كبيراً فيه اربعون خزانة مفتحة الابواب، فدخلتها الواحدة تلو الاخرى، فرأيت من اللؤلؤ والياقوت والزبرجد والزمرد والجواهر النفيسة ما لا يوصف بلسان.. فأخذتني الدهشة من ذلك وقلت:

ـ انا الآن ملك زماني وواحد أواني!..

وما زلت اتنقل من باب إلى باب، حتى مضى تسعة وثلاثون يوماً فتحت فيها الغرف كلها الا تلك التي منعنني عن فتحها.

الغرفة الاربعون

ولكن خاطري بقي يا مولاتي، مشغولاً بامر الغرفة الاربعين.. وحكم عليّ فضولي بأن افتحها، اذ لم أجد صبراً على ذلك، فمشيت اليها ولم يكن باقياً من الميعاد الا يوم واحد.

وعالجت بابها فانفتح، ودخلت فاذا رائحة ذكية قوية لم استروح مثلها في حياتي، تسطع منها وتنتشر، وخامرت رأسي تلك الرائحة فسقطت إلى الارض مغشياً عليّ بعض الوقت.

ثم شددت عزيمتي ووغلت في الغرفة حتى انتهيت إلى بهو متسع الارجاء، فرشت ارضه بالزعفران، وتدلت من سقفه قناديل الذهب وهي تتقد نوراً... ووقعت انظاري على مبخرتين عظيمتين، مملوءتين بالعود وبضروب من الطيب، وقد تعطر المكان من عرفهما.

والتفت شمالاً فرأيت جواداً ادهم كسواد الليل اذا اظلم، امامه معلف من

البلور الابيض فيه سمسم مقشور، ومعلف آخر فيه ماء ورد ممسّك.

وكان الجواد مشدوداً ملجماً وعليه سرج من الذهب الاحمر، فقلت في نفسي:

ـ لابد من أن يكون لهذا الجواد شأن عظيم.

وأضلني الشيطان فأخرجته واعتليت متنه، فلم يبرح من مكانه. فرفسته فلم يتحرك.. فأخذت المقرعة وضربته بها، فلما احس بالضربة صهل صهيلاً كالرعد القاصف، ونشر جناحين واسعين، وطار بي في الجو ساعة ثم حطني على سطح.. وضربني بذيله فقلع عيني اليسرى وذهب عني...

فنزلت من على السطح، فوجدت الشبان العشرة العور، فقالوا لي:

ـ لا مرحبا بك ولا اهلاً!

فقلت لهم متوسلاً:

ـ ها قد صرت مثلكم، وارغب في أن تقبلوني بينكم أسوّد وجهي واندب حظي!...

فلم يرضوا بذلك، وطردوني بازدراء، فضاق بي الامر وحلقت لحيتي وشعر رأسي حزناً على حالي..

واخذت اطوف في بلاد الله، إلى أن كتبت لي السلامة ووصلت إلى بغداد في مساء هذه الليلة، فوجدت هذين الرفيقين يقفان حائرين، فسلمت وقلت:

ـ انا غريب.

فقالا: ونحن ايضاً غريبان!

هذا يا مولاتي، سبب قلع عيني وحلق لحيتي!

فقالت له صاحبة السرير:

ـ املس رأسك واذهب.

فقال: والله لا اذهب قبل أن اسمع قصة هؤلاء.

في قصر الخلافة

ثم التفتت الصبية إلى الخليفة وجعفر ومسرور وقالت لهم:

ـ وانتم ما هي اخباركم، وما الذي جاء بكم؟

فتقدم جعفر منها وقص عليها ما قاله لاختها البوابة قبل دخولهم.. فلما سمعت كلامه اشفقت عليهم وقالت لهم:

ـ وهبت بعضكم لبعض!...

فخرج الجميع وساروا، ولما توسطوا الطريق قال الخليفة للدراويش:

ـ إلى اين انتم قاصدون ايها الاخوان والفجر لا يزال بعيداً؟

فقالوا حائرين:

ـ لا ندري يا مولانا إلى اي مكان نتجه.

فقال: سيروا وبيتوا عندنا.

وخاطب جعفر قائلاً:

ـ امض بهم هذه الليلة، واحضرهم غداً لننظر في امرهم.

فامتثل جعفر ما امره به الخليفة.. وسار هارون الرشيد إلى قصره فلم يستطع النوام طوال ذلك الليل لما سمع من غرائب الاحداث وعجائب الاقدار.

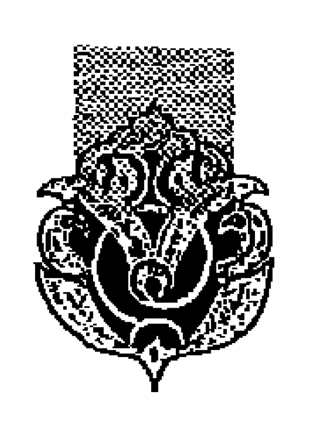
ولما كان الصباح جلس الخليفة على عرشه، والتفت إلى جعفر بعد أن حضر وزراء الدولة وكبار ر جالها، وقال له:

ـ جئني بالصبايا الثلاث والكلبتين والدراويش.

فنهض جعفر واحضرهم بين يديه، وعرّفهم بنفسه، وبما كان منهم ليلة أمس، ثم خاطب الصبايا قائلاً لهن:

ـ انتن في قصر الخلافة، وبين يدي الخامس من خلفاء بني العباس، امير المؤمنين هارون الرشيد، فاخبرنه قصتكن ولا تخبرنه الا حقاً.







الحب الخائب

اقتربت صغرى البنات الثلاث من امير المؤمنين وقالت:

- يطول حديثي يا مولاي اذا حاولت أن اخبركم بكل ما مررت به وعانيت.. ولكني اوجز فاقول:

ان هاتين الكلبتين السوداوين اختاي. فقد كنا ثلاث شقيقات من ام واب. واما هاتان البنتان فهما اختاي لأبي. فلما مات والدنا اخذت كل منا حصتها من الميراث. وبعد ايام توفيت والدتنا وخلفت لنا ثلاثة آلاف دينار، فاخذت كل منا الف دينار.

وكنت اصغرهن سناً، فهيأت اختاي ما تحتاجان اليه، وتزوجت كل منهما برجل لتقضي عمرها إلى جانبه، في ظل حياة عائلية سعيدة.

الزوجان المغامران

وكان أن اخذ كل من الرجلين الدنانير

الالف من زوجته لابتياع ما يتاجر به في بلاد بعيدة، ورحل الجميع عني، فبقيت وحيدة لا تؤنسني الا ذكرى شقيقتي اللتين كنت احبهما حباً جماً.

واتفق أن اضاع زوجاهما ما معهما من المال في مغامرات طائشة خاسرة، فافلسا وتخليا عنهما تخليهما عن سلعتين من المتاع.

وبعد خمس سنوات جاءتني شقيقتي الكبرى بزي متسولة، تغطي جسمها الهزيل ثياب رثة ممزقة، وازار وسخ قديم، وهي على اسوأ حال.

فلما رأيتها انكرتها ولم اعرفها.. فعرفتني بنفسها. فابديت دهشتي واستغرابي، وذهبت بها إلى الحمام، والبستها حلة جديدة، وقلت لها:

ـ ستكونين لي يا اختي اماً واباً، تتصرفين بميراثي كما تشائين، وتأمرين في هذا البيت وتنهين.

وأحسنت اليها غاية الاحسان، وأقمنا معاً فرحتين بجمع شملنا من جديد..

وبعد انقضاء سنة كاملة جاءتنا اختنا الاخرى بحال تهون إلى جانبها حال الاخت الكبرى حين وصولها.. فاحسنت اليها اكثر مما احسنت إلى الاولى.

وبعد مدّة قالتا لي:

ـ لم يبق لنا صبر يا اختنا على البقاء بلا زوج وعائلة واولاد، فقد عيينا بحالنا كل العياء.

فقلت لهما مستغربة:

ـ لقد جربتما الزواج يا اختيّ، وعلمتما أن ليس فيه صلاح او خير. فالرجل الكريم الشمائل الطيب الصفات عزيز اليوم، بل مفقود.. فلم تفكران في ما جرّ عليكما التعاسة والشقاء؟

فلم تأخذا بنصيحتي وتزوجتا على رغمي وكره مني، فلم أجد بداً من اعطائهما كمية من الحلى والمال.

ومضتا مع زوجيهما، واقامتا معهما مدة يسيرة، فغرّرا بهما واستلبا ما كان معهما وتركاهما وحيدتين بائستين تندبان حظهما العاثر.

فجاءتا إليّ واعتذرتا قائلتين:

ـ لا تؤاخذينا بذنبنا وتعاقبينا عليه.. فانت اصغر منا سناً، ولكنك اكمل عقلاً. ولن نذكر الزواج بعد اليوم، فاقبلي بنا جاريتين نضمن لك الخدمة وتؤمنين لنا

لقمة العيش.

فتأثرت من قولهما وقلت لهما:

ـ مرحباً بكما يا اختيّ.. وهل في الوجود اعز منكما واحب؟

واكرمتهما كل الاكرام، وبالغت في عطفي عليهما...

الاخوات الثلاث يتاجرن

وخطر لي بعد مضي سنة على مجيئهما أن اتجه شطر الهند قصد الاتجار، فجهزت مركباً كبيراً بالبضائع المختلفة وكل ما احتاج اليه، وقلت لأختيّ:

ـ هل لكما أن تقيما في المنزل إلى أن اعود؟

فقالتا بحماسة وحرارة:

ـ كلا، لن نمكث هنا، وانما نريد أن نسافر معك فأنا لا نستطيع على فراقك صبراً.

فاصطحبتهما معي، وركبنا البحر جميعاً وقد افعمت نفوسنا آمال كبار.

وكنت قد قسمت مالي نصفين، اخذت منهما نصفاً لانفقه في تجارتي، واستودعت النصف الباقي في مكان امين.

وبعد ايام تاه بنا المركب اذ غفل الرئيس عن الطريق، ودخل بحراً غير الذي نريد، فاشتد بنا القلق وقضينا فترة عصيبة من الهم والضيق..

الا أن الناظور فاجأنا ذات يوم وقد بدا عليه السرور وقال لنا:

ـ ابشركن بقرب النجاة، فانا اصبحنا على مقربة من البر، وقد رأيت مدينة نتمكن من النزول إليها ساعة نشاء.

ولم ينقض قليل من الوقت حتى لاحت لنا تلك المدينة جلية واضحة، فقلنا للرئيس:

ـ ما اسم هذه المدينة التي اشرفنا عليها؟

فقال: لا اعلم، لاني لم اعبر حياتي كلها هذا البحر.. ولم يبق، لكن الآن الا أن تدخلنها وتعرضن بضائعكن، فتبعن فيها ما معكن وتبتعن مما فيها.

ونزلنا إلى البر وطلبنا من الرئيس أن يسبقنا إلى المدينة فيستطلع اخبارها ويأتينا بها.

ففعل ثم عاد دهشاً حائراً، فسألناه عما رأى، فقال في ذهول:

ـ سرن إلى هذه المدينة وتعجّبن من صنع الله في خلقه واستعذن من سخطه!

شعب من حجارة

فسرنا اليها وقد اشتد بنا الفضول.. فلما اتينا الباب رأينا اناساً بأيديهم عصي ورماح ودروع، فدنونا منهم فاذا هم ممسوخون احجاراً سوداء.. فدخلنا المدينة فوجدنا كل من فيها قد مسخ حجراً اسود...

وطفقنا نخترق الاسواق والشوارع، فوجدنا بضائعها معروضة، وذهبها وفضتها باقيين على حالهما، ففرحنا وقلنا:

ـ لسوف نصبح غنيات موسرات!

وتفرقنا في شوارع المدينة، واشتغلت كل منا عن اختيها بجمع المال والطرائف الثمينة.

اما انا فقد طفت في شوارع المدينة كلها، ثم صعدت إلى قصر الملك فوجدت فيه ما لم تقع عليه عين انسي من الذهب والفضة.. ورأيت الملك جالساً على عرشه يحيط به حجابه ووزراؤه، وعليه من الملابس ما يبهر النظر...

فدنوت منه ونظرت إلى عرشه فاذا هو مرصع بالدرر والجوهر، وإلى حلته فاذا هي من الذهب الخالص وفيها جواهر تضيء كالنجوم، وحوله من الحراس خمسون مملوكاً في ايديهم سيوف مجردة.. فأخذت بما رأيت، وازداد دهشي وعجبي...

ثم دخلت احدى المقاصير فوجدت على جدرانها ستائر من الحرير تشتبك فوقها قضبان من الذهب، ورأيت الملكة نائمة وعليها حلة من اللؤلؤ الرطب وعلى رأسها تاج وفي عنقها قلائد وعقود، وعلى مقربة من السرير عدد من الجواري وكلهن قد مسخن احجاراً سوداء...

والتفت يمنة فرأيت باباً مفتوحاً فدخلته، وصعدت سبع درجات وجدت وراءها موضعاً مرخّماً مفروشاً بالبسط المذهبة، فيه سرير مرصع بالدر والجوهر وبرمانتين من الزمرد، وعليه كلّة مرخاة منظومة باللؤلؤ، يتلامع بين شقيها نور ساطع، فدنوت من السرير فاذا بذلك النور ينبعث من جوهرة بحجم بيضة الاوزة موضوعة داخل الكلّة على كرسي صغير.

وقد فرش ذلك السرير بانواع من الحرير قد لا يحدّث عن مثلها انس او جن!

واسترعت انتباهي في تلك المقصورة شموع موقدة فقلت:

ــ لا بد من أن احداً اوقد هذه الشموع!...

ومضيت اتنقل من قاعة إلى قاعة ومن مقصورة إلى أخرى، وقد نسيت نفسي وشقيقتيّ لما تملكني من الدهشة والعجب، إلى أن خيم الليل ففطنت إلى ضرورة الرحيل، وحاولت الخروج فلم اعرف الطريق إلى باب القصر، وتهت في اروقته وابهائه، ولما تحققت عجزي عن الخروج في تلك الليلة، عدت إلى المقصورة ذات الشموع الموقدة، واستلقيت على السرير والتحفت بالحرير، واردت النوم فلم استطع لما ساورني من القلق...

ترتيل شجي في مدينة الاموات

ولما انتصف الليل سمعت ترتيلاً شجياً لكنه ضعيف خافت، ففرحت وتتبعت الصوت حتى انتهيت إلى مخدع، ففتحت بابه فاذا بي في مكان تتقد فيه قناديل معلقة وشمعتان كبيرتان، وفيه سجادة مبسوطة على الارض يجلس عليها شاب حسن المنظر جميل الصورة يقرأ في القرآن الكريم، فتعجبت وقلت في نفسي:

ـ كيف سلم هذا الشاب من دون اهل المدينة؟

ودخلت فسلمت عليه، فرفع بصره وردّ عليّ السلام، فقلت له:

ـ اخبرني يا سيدي، بحق كل عزيز عليك، سبب وجودك هنا وخلاصك من دون قومك اهل هذه المدينة؟

فنظر إليّ وابتسم قائلاً:

ـ ايتها الامة.. اخبريني سبب دخولك هذا المكان، فاخبرك بما جرى لي ولاهل هذه المدينة، وكيف نجوت مما يعانون!

وقصصت عليه حكايتي، وجاء دوره فقال:

ـ اعلمي يا امة الله، أن والدي هو ملك هذه المدينة الذي رأيته على العرش وقد مسخ حجراً اسود. اما الملكة التي رأيتها على السرير فهي والدتي، وجميع اهل هذه المدينة مجوس كانوا يعبدون النار، دون الملك الجبار. وكانوا يقسمون بالنار والنور، والظل والحرور، والفلك.

ولم يكن لأبي في شبابه ولد، ولم

يرزقني الا في شيخوخته، فاحاطني بعناية منقطعة النظير، فنموت ونشأت في أحضان السعادة والطمأنينة.

وكان عندنا عجوز طاعنة في السن تؤمن بالله، في الباطن، ايماناً لا ريبة فيه، وتوافق اهلي في الظاهر. وكان لوالدي ثقة بهذه العجوز لما هي عليه من الامانة والفضيلة، وهو يعتقد بانها على دينه المجوسي.

فلما كبرت اوكلني إليها وقال لها:

ـ ارعي هذا الولد ولقنيه اصول ديننا ومعتقداتنا، وقومي بخدمته وتوجيهه.

فأخذتني العجوز وهدتني إلى الاسلام، وطلبت إليّ أن احفظ القرآن الكريم، ففعلت، وقالت لي باخلاص:

ـ لا تعبد سوى الله تعالى ولا تؤمن بغيره اذ لا إله الا هو وحده لا شريك له!

ولما أنهيت دروسي في الدين الجديد قالت لي متوسلة:

ـ يا ولدي.. اكتم هذا الامر عن ابيك ولا تخبره به لئلا يقتلك.

فكتمته عنه على مضض شديد، لشدة رغبتي في الجهر بايماني ودعوة الناس اليه..

وبعد ايام قلائل توفيت السيدة العجوز، فحزنت عليها وحافظت على سرها.

غضب الله

وضل اهل المدينة، وكفروا وعتوا، وتجبروا وبغوا، وتمادوا في الفساد والضلال.. فسمعوا ذات يوم صوتاً كالرعد يتردد في ارجاء المدينة قائلاً:

ـ يا اهل المدينة، ارجعوا عن عبادة النيران، وآمنوا بالخالق الرحمن، وكفّوا عن الفساد والعدوان..

فداخل اهل المدينة خوف عظيم، وفزعوا إلى قصر والدي الملك، وقالوا له مذعورين:

ـ ما هذا الصوت الرهيب الذي سمعناه فأخافنا وادخل الرعب في قلوبنا؟

فقال لهم مهدئاً مطمئناً:

ـ لا يهولنّكم هذا الصوت وإياكم أن ترتدوا عن دينكم.

فعادوا إلى ما كانوا عليه من عبادة النار، وازدادوا عتواً وطغياناً...

واستمر الصوت الخفي ينذرهم ويحذرهم ويدعوهم إلى الايمان بالله والعمل بشريعته وهديه، وهم عنه معرضون، وفي لجة الفساد يتخبطون..

وكان هذا النداء الكريم ينادي اولئك الضالين مرة في كل عام، فلما انقضت ثلاث سنوات كاملة دون أن يلبوا النداء ويستجيبوا لدعوة السماء، حلّ عليهم الغضب الآلهي، فمسخوا احجاراً سوداء، ولم يسلم من اهل المدينة غيري، واراني منذ ذلك الحين وحيداً لا مؤنس لي غير هذا القرآن المجيد الذي أعكف على ترتيل آياته آناء الليل واطراف النهار.

قالت صغرى البنات:

ـ كان الشاب يحدثني، يا امير المؤمنين، وفؤادي يخفق حباً له وتعلقاً به، فقلت له مأخوذة بجماله، مسلوبة بذكائه وحلو حديثه:

ـ يا هذا... هل لك أن تسير معي إلى مدينة بغداد حيث يقيم العلماء والفقهاء، فتزداد فيها علماً وفقهاً؟ واعلم أن الفتاة التي تخاطبك وتدعوك إلى مرافقتها، هي سيدة في قومها، تملك خدماً وغلماناً كثيرين...

وما زلت الاطفه واتحيل عليه، حتى قبل بما ارتأيت ورضي بمرافقتي إلى بغداد، فبت تلك الليلة وانا لا اصدق ما اسبغ الله عليّ من غبطة وسعادة.

ولما اقبل الصباح دخلنا خزائن القصر، واخذنا منها ما خف حمله وغلا ثمنه، ونزلنا إلى المدينة فالتقينا بالعبيد ورئيس المركب وهم يبحثون عني، فأخبرتهم بما رأيت، ورويت لهم حكاية هذا الشاب، وسبب اللعنة التي حلت بأهل المدينة!

الاختان الحاسدتان

ولما رأتني اختاي، هاتان الكلبتان، ورأتا معي ذلك الشاب، وعلمتا أنه ابن ملك المدينة وقد عزم على أن يرافقني ولعله يتزوجني، تولاهما الغيظ والحسد واضمرتا لي الشر...

وصعدنا إلى المركب، واقمنا ننتظر هبوب الريح إلى أن طابت لنا مجاريها، فنشرنا القلوع وابحرنا...

وقالت لي اختاي في بعض الطريق:

ـ يا اختنا ما شأن هذا الشاب بيننا؟

فقلت لهما فرحة:

ـ اود أن اتخذه زوجاً لي.

ثم التفت اليه وقلت:

ـ ايها الشاب سأقول لك شيئاً اود الا تخالفني فيه..

فقال بعذوبة ورقة:

ـ سأقوم بكل ما تطلبين.

فقلت وقد علت خدّيا حمرة الخجل:

ـ اريد اذا بلغنا بغداد أن تكون زوجاً لي، وكلانا لذلك اهل!

فقال بغبطة:

ـ هذا ما سيكون.

والتفت إلى اختيّ قائلة:

ـ سيسعدنا هذا الشاب وسوف نسعده بدوره، فكل ما غنمناه هو له.

فقالتا دون أن تفصحا عما في قلبيهما من حقد:

ـ نعما ما تقولين!

وما زلنا نشق عباب اليم حتى قربنا من مدينة البصرة، ولاحت لنا اسوارها البيضاء مع مغيب الشمس.

ولما نشر الليل عباءته السوداء ولفّ بها ارجاء الارض، تولانيَ النعاس فنمت نوماً عميقاً، في حين سهرت اختاي ثم حملتاني والقتا بي في البحر، وكذلك فعلتا بالشاب، وكان لا يحسن السباحة فاغرقته الامواج...

وكم تمنيت لو ابتلعني الموج كما ابتلع هذا الشاب الذي احببته حباً صادقاً تملك عليّ جميع حواسي..

ولكن الله شاء لي أن أكون من السالمين، فقد انتبهت من نومي حين القيت في الموج، وتحسست على وجه الماء قطعة من الخشب وقعت عليها انظاري الزائغة، فعلوتها وتمسكت بها، وقذفتني الامواج ورمت بي على شاطىء احدى الجزر، فمشيت في الجزيرة باقي ليلتي...

وكشف لي الصبح عن طريق كان قد حجبها الظلام، تصل الجزيرة بالبر، وتكاد تضيق عن موطىء قدم الانسان.

فجففت ثيابي، واكلت من ثمار الجزيرة وشربت من مائها، وسرت في تلك الطريق الضيقة المحفوفة بالخطر.

الافعى المحسنة

وظللت اسير بحذر شديد إلى أن دنوت من البر، واذا انا بحية في غلظ

النخلة، تسعى سعياً مسرعاً وهي متجهة إليّ، وقد تدلى لسانها على الارض واخذت تجرف به التراب، وخلفها ثعبان بطول الرمح يطاردها، وهي تهرب منه، تلتفت يميناً وشمالاً وتفح لشدة خوفها فحيحاً عقد لساني وادخل الرعب في قلبي..

وشعرت برغم خوفي بالشفقة على هذه الحية لما رأيت من ملاحقة الثعبان لها، فعمدت إلى حجر ورميت به رأس الثعبان فمات لفوره، فنشرت الحية جناحين وطارت في الجو إلى أن توارت عن عيني.

فجلست اتامل في ما رأيت واستعيد ما وقع لي، وقد تعبت من السير المتواصل وعييت، وغمرني النعاس فنمت على ذلك الشريط الضيق من الارض.

ولما افقت من نومي وجدت إلى جانبي فتاة حسناء ومعها كلبتان، فخجلت منها واستويت جالسة وقلت لها:

ـ يا أختي من تكونين؟

فقالت ضاحكة:

ـ ما اسرع ما نسيتني.. فانا تلك التي طوقت عنقها بجميل لن تنساه..

فعجبت لقولها وتمتمت:

ـ ولكنني لم ارك من قبل الآن يا اختاه.. ولست اذكر الجميل الذي تتحدثين عنه.

فاشتد ضحكها وقالت:

ـ انت التي قتلت عدوي وانقذتني من الموت!

فلم افهم ما تقول.. فاستطردت قائلة:

ـ انا الحية التي خلصتها من الثعبان، وكلانا جنّي.. وقد انقلبت حية فانقلب ثعباناً، وهو يطاردني منذ زمن بعيد. وما نجاتي منه إلا بك.. فلما قتلت عدوي هذا طرت إلى المركب الذي رمتك منه اختاك، فنقلت جميع ما فيه من اموال وكنوز إلى بيتك ثم اغرقته.. اما اختاك فقد جعلتهما كلبتين سوداوين!

ثم حملتني الجنية، وحملت الكلبتين، وطارت بنا وحطتنا على سطح دارنا في بغداد..

فنزلت واياها، ومعنا اختاي الكلبتان، فاذا جميع ما كان في المركب قد نقل إلى

بيتنا ولم يضع منه شيء..

ثم قالت لي الحية الجنية:

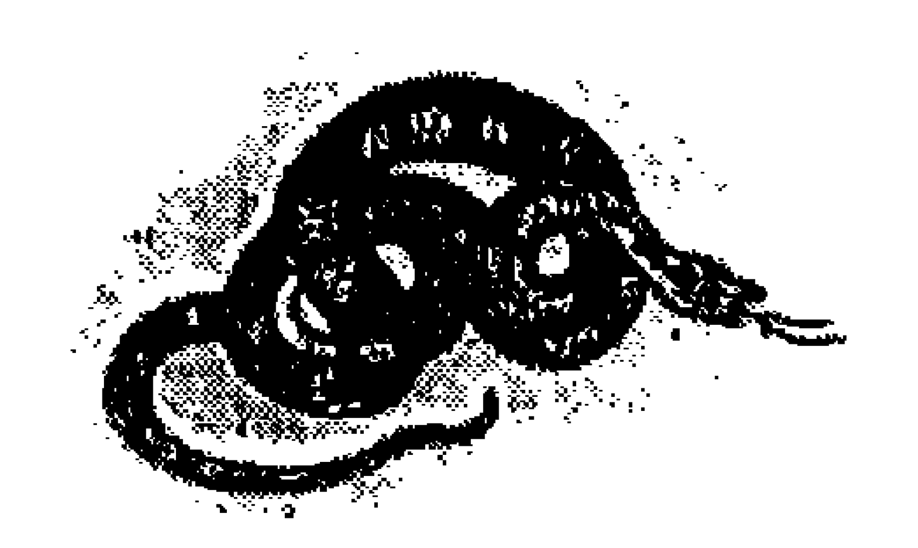
ـ وحق النقش الذي عل خاتم سيدنا سليمان، أن لم تضربي كلا من هاتين الكلبتين ثلاثمائة سوط كل يوم جزاءً لهما على حسدهما لشقيقتهما وخيانتهما لمن احسن اليهما، جئتك وجعلتك مثلهما.

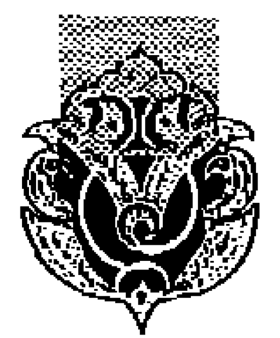
فتولاني الجزع وقلت لها:

ـ سمعاً وطاعة!

وما زلت اضربهما، يا امير المؤمنين، كل يوم، منذ ذلك الحين، ضرباً مبرحاً، وهما تعرفان الا ذنب لي في ضربهما فتقبلان عذري وتغفران لي.

هذه حكايتي، يا مولاي، رويتها لك بإيجاز واختصار.







الزوجة المظلومة

صمت الخليفة هارون الرشيد هنيهة يفكر في ما صارت اليه تلك الفتاة واختاها، ويعجب من تقلبات الايام ومفاجآت القدر، ثم خاطب الصبية الثانية، صاحبة السرير، قائلاً:

ـ وانت ايتها الحسناء، ما سبب الضرب الذي تبدو آثاره على جسدك؟

فتنهدت الصبية الحسناء وقالت:

كان لي والد موسر طائل الثراء، فتوفي وخلف لي مالاً كثيراً.

ومرت فترة من الزمن تزوجت بعدها برجل كان من اطيب اهل زمانه واشرفهم قلباً وانبلهم خلقاً، فاقمت معه سنة واحدة كانت من اسعد ايام حياتي.. الا أن القدر لم يشأ لهذه السعادة ان تستمر ولتلك العشرة الطيبة أن تبقى، فتوفي زوجي في حادث مفاجيء وورثت عنه ثمانين الف دينار..

فازدادت ثروتي وتعززت مكانتي، وشاع خبر اموالي الطائلة بين الناس، وجرى باحاديث نعمتي كل لسان..

دعوة إلى عرس

وذات يوم دخلت عليّ عجوز باسنان مهشمة، ذات وجه انمش ولحظ اعمش، وشعر اشهب وجسم أجرب، وقدّ مائل ولون حائل، كأنما قصدها الشاعر حين قال:

عجوز النحس ابليس يراها

تعلمه الخديعة بالسكوت

تقود من السياسة الف بغل

اذا نفروا، بخيط العنكبوت

وسلمت المرأة عليّ وقبلت الارض بين يدي، وقالت:

ـ لي بنت يتيمة الاب، ستزف إلى عريسها هذا المساء، ونحن غرباء لا نعرف احداً في هذه المدينة، فهل استطيع أن ارجوك حضور عرسها فيكون لك الاجر والثواب عند الله، وتعرف سيدات المدينة بحضورك هذه الحفلة فيقبلن عليها، فتكتمل فرحتنا وتطيب سهرتنا، ولا نقضي هذه الليلة السعيدة ممزقي القلب مكسوري الخاطر...

فتولاني شعور قوي بالعطف والشفقة على هذه الاسرة البائسة، واحسنت معاملة المرأة المسنة وقلت لها:

ـ سيتم لك ما تريدين، وسوف اجلو ابنتك بحللي الخاصة..

ففرحت العجوز وغمرتها موجة من الغبطة وقالت:

ـ جازك الله خيراً وانعم عليك بكل ما تستحقين من ثواب، فاستعدي للذهاب، وسوف اعود إليك قبل العشاء فاسير بك إلى منزلنا..

وقبلت يدي وذهبت.

وقمت فهيأت نفسي، واعددت للعروس هدية ثمينة، واذا بالعجوز قد اقبلت وقالت:

ـ لقد ابلغت سيدات المدينة بحضورك هذه الليلة ففرحن، وقبلن دعوتي، وها هن في انتظارك.

فائتزرت، واصطحبت جوارٍ، وسرنا جميعاً وراء العجوز حتى دخلنا زقاقاً ضيقاً، فاقتربنا من باب مقنطر بقبة من الرخام، فطرقته العجوز ففتح لنا ودخلنا، واذا بنا في دهليز مفروش بالبسط، فيه قناديل موقدة وشموع مصفوفة، وفيه طرائف انيقة ومعادن ثمينة..

واجتزنا الدهليز فوصلنا إلى قاعة لم اعرف في حياتي لها نظيراً: غطيت ارضها بالسجاد النادر، وارخيت على جدرانها الستائر الحريرية، واوقدت في زوياها الشموع والقناديل، وفي صدر هذه القاعة سرير من العرعر، مرصع بالدر والجوهر، ارخيت عليه كلة من الاطلس المزرر.

مفاجأة غريبة

واني لأتأمل فيما حولي بدهشة واعجاب، اذا بصبية تخرج من وراء الكلة، فنظرت فاذا هي كمطلع الربيع فتنة وجمالاً...

واتجهت الفتاة نحوي وقالت لي:

ـ اعذريني يا سيدتي اذا فاجأتك بامر لم تنتظريه.. أن لي اخاً من اجمل شباب المدينة وانكاهم واغزرهم علما، وقد رآك في بعض الاماكن فأحبك حباً مبرحاً، وهو سيد في قومه رفيع المكانة عالي المقام، ويريد أن يتزوج بك ليسعد إلى جانبك وتسعدي أنت...

ولاحظت الفتاة دهشتي وارتباكي فاستطردت قائلة:

ـ لقد خشينا أن نخطبك بالطريقة المألوفة فترفضي طلبنا اعتقاداً منك باننا نطمع في ثروتك، ويكون في ذلك القضاء على اخي لانه متيم بك ولن تطيب له الحياة الا برفقتك...

ولم يكن باستطاعتي حينذاك، وانا في قلب الدار، ودون الشارع دهاليز وابواب، وحرس وخدم، فتظاهرت بالموافقة على ما دعتني اليه...

ففرحت الصبية وصفقت بيديها، وسارت إلى أحد الابواب وفتحته، فاطل منه شاب معتدل القامة بهي الطلعة، فلما رأيته مال قلبي اليه.. واقبل نحوي وجلس إلى جانبي، فاخذنا نتجاذب اطراف الحديث ساعة شعرت خلالها باني قد احببته وبأنه يسعدني أن احقق طلبه واستجيب لرغبته.

وادركت الصبية ذلك فصفقت بيديها، فاذا بباب قد فتح ودخل منه قاض واربعة شهود، فسلموا وجلسوا، ثم عقدوا قراننا وانصرفوا.. فالتفت الشاب إلي وقال:

ـ ليلة مباركة أن شاء الله...

فابتسمت وتمنيت لكلينا حياة زوجية سعيدة.



ثم استحلفني الشاب أن اخلص له ولا اميل إلى أحد سواه، فحلفت فسّر وكاد يجن فرحاً، وصفق بيديه قائلاً:

ـ احضروا لنا السماط.

فأكلنا وشربنا وتسامرنا، وشعرت بانني اسعد الناس.

قبلة في السوق

واستمرت سعادتنا شهراً كاملاً، مضى كما تمضي الاحلام، ثم استأذنته ذات يوم في أن امضي إلى السوق لابتاع شيئاً من النسيج، فاذن لي، فاصطحبت المربية العجوز واحدى الجواري وذهبت.

ولما وصلنا إلى السوق، قادتني العجوز إلى مخزن تاجر شاب تعرفه، وقالت لي:

ـ هذا شاب مات ابوه وخلف له مالاً كثيراً، ومتجره من اعظم المتاجر في المدينة، ولسوف تجدين فيه كل ما تطلبين.

ثم قالت له:

ـ هات اعز ما عندك من الاقمشة لهذه الغادة الحسناء..

فقال وقد بدا عليه السرور:

ـ لك ما تطلبين.

فأثنت العجوز عليه، فنهرتها قائلة:

ـ لا حاجة إلى ثنائك عليه.. وكل مرادنا أن نبتاع ما يعوزنا ونعود إلى منزلنا...

وأتانا الشاب بما طلبناه، فاخترت بعضه، واخرجت دراهمي لانقده ثمن ما اشتريت فابى أن يأخذ شيئاً منها، وقال:

ـ هذا حقكن عليّ اليوم وانتما ضيفتاي..

فقلت للعجوز حانقة:

أن لم يأخذ هذه الدراهم اعدت إليه بضاعته حالاً..

فقال بدلال سمج:

ـ لن اخذ منها شيئاً.. واذا شئت أن تعطيني لها ثمناً، فقبلة واحدة!

فنظرت إليه شزراً وقلت:

ـ اعوذ بالله من ذلك!..

فلما رأى نفوري وامتعاضي، انقض عليّ ولطمني وعضني عضة قوية غرزت بها اسنانه في خدي، فغشي عليّ لشدة الالم، فاحتضنتني العجوز إلى أن افقت...

وكان الدم يسيل من خدي، فنظرت إلى المتجر فاذا ببابه مغلق وقد هرب صاحبه خوفاً من نتيجة ما فعل.. اما العجوز فقد ابدت حزنها واسفها لما حلّ بي، وقالت:

ـ اذهبي الآن إلى البيت، وارقدي متمارضة، واخفي وجهك بالغطاء فلا يراه زوجك.. وسوف اجيئك بما تداوين به هذه العضة فتبرأ سريعاً...

الزوج الغاضب

ونهضت وانا مقسمة الفكر مروعة الخاطر، ومشيت رويداً رويداً وقد اشتد بي الخوف وثقلت وطأته عليّ، إلى أن وصلت الى البيت وفي ودي لو اختطفني الموت قبل أن اصل اليه، فتمارضت ورقدت في سريري انتظر المصير المجهول الذي ينتظرني، والعقاب الذي سيحل بي لذنب لم اقترفه ولا يد لي فيه!..

ولما هجمت جيوش الظلام، دخل زوجي مقصورتي وقال:

ـ ما الذي اصابك يا حبيبة، وما الذي حلّ بك؟

فقلت بصوت خفيض:

ـ اصبت بثقل في رأسي عقبه الم شديد، فلجأت إلى الفراش علّ في النوم بعض الشفاء.



فنظر إليّ وقد اخفت الظلمة وجهي، فلم يستطع الوقوف على حالي، فغاب قليلاً ثم عاد وبيده شمعة موقدة ودنا مني محدقاً بي فرأى آثار العضة بوجهي فقال:

ـ ما هذا الجرح الذي في خدك؟

فاضطربت وتمتمت:

ـ لقد التقيت حطاباً فزاحمته لضيق الطريق، فشرط الحطب نقابي وجرح خدي!

فقال غاضباً:

ـ غداً اذهب إلى الحاكم واطلب اليه أن يشنق جميع حطابي المدينة.

فتولاني الذعر وقلت:

ـ لا.. لا.. إياك أن تسيء إلى احد هؤلاء المساكين، فليس صحيحاً ما ذكرت، وإنما ركبت حماراً فعثر بي فوقعت على الأرض فصادفني عود خدش خدي وجرحني.

فقال حانقاً معتداً:

ـ غداً اقابل جعفر البرمكي واخبره بهذا الامر فيقتل كل حمار في هذه المدينة.

فهالني الامر وصرخت:

ـ اتود أن تقضي على الناس جميعاً لجرح في خدي؟ أن ما حدث كان قضاء وقدراً.

فقال باصرار عنيد:

ـ لا بد من ذلك.. ويجب أن ترافقيني اليه لتقدمي إليه الشكوى بنفسك.

والح عليّ بالموافقة على ذلك فنفرت منه واغلظت له الكلام، فاعاد النظر إلى خدي، وخشيت أن يكتشف حقيقة الجرح الذي فيه، فبادرت إلى الاعتراف بكل ما حدث.

فاستغرب روايتي وقال:

ـ انت تكذبين.. فليس بين الرجال من يعتدي على امرأة بهذا الشكل وفي زحام السوق، ولا ريب في انك كنت واياه في خلوة حتى أجترأ على هذا الفعل الشنيع...

ودفعني بيده وصرخ بي:

ـ لقد خنت عهدي يا سافلة، ولا بد من أن تعاقبي على جريمتك النكراء!

وصاح صيحة عظيمة، ففتح الباب ودخل منه سبعة عبيد سود، فأمرهم فجروني من فراشي ورموني وسط الدار. ثم امر عبداً منهم أن يجلس على رأسي، وأمر ثانياً أن يجلس على ركبتيّ ويمسك رجليّ وجاء عبد ثالث وبيده سيف مسلول وقال:

ـ أأضربها يا سيدي بالسيف فأقسمها نصفين يحمل كلاً منهما عبد ويرميه في نهر دجلة فيأكله السمك جزاءً لها وعقاباً؟

فقال له زوجي الذي احبني واحببت:

ـ اضربها يا سعد واقض على حياتها الغاشمة.

فلما تحقق العبد الامر، جلس على صدري وقال لي:

ـ اخبرينا بما لك من حاجات قبل أن تلفظي انفاسك، فانت في آخر دقيقة من حياتك.

فقلت له متوسلة:

ـ ايها العبد الكريم.. تمهل قليلاً فأوصيك...

ورفعت رأسي فرأيت زوجي والعبيد

جميعاً يحيطون بي هائجين حاقدين، ورأيتني بينهم ضعيفة ذليلة أسام العذاب بغير حق، فبكيت بكاءً شديداً، ونظرت إلى زوجي وهو يتقد غضباً وغيظاً، وأنشدت على مسامعه ابياتاً رقاقاً فيها عتاب واسترحام، ولما انتهيت من أنشادها عدت إلى البكاء والاستعطاف، فما كان منه إلا أن ازداد غيظاً وحنقاً، ورد إليَّ جوابه شعراً، فبكيت وتضرعت، واخذت الاطفه بالكلام، اشكو اليه حبي وابدي له اسفي على فراقه، وانشدته الشعر المؤثر، فنهرني وشتمني واشاح بوجهه عني...

وبقينا على هذه الحال، نتاخطب نثراً ونتشاجر شعراً، وانا ابكي والتاع، وهو يحنق ويغضب، إلى أن طغى حقده عليه فصاح بالعبد:

ـ اضربها وأرحنا من ثرثرتها جزاءً لها وفاقاً على ما جنت...

فتحققت من الموت، وسلمت امري لله، واغمضت عيني كي لا ارى ما سيحل بي في تلك اللحظة الرهيبة.. وبينما العبد يهم بقتلي، اذا بالمربية العجوز تهرع إلى الدار، وتلقي بنفسها على قدمي الشاب، وتناشده باكية:

ـ يا ولدي.. اعف عن هذه الصبية البريئة، بحق تربيتي لك وخدمتي، فهي لم تفعل ذنباً يوجب هذا العقاب.. واني لاخاف عليك وانت في مطلع عمرك، من أن تحمل ضميرك هذا العبء، وأن تقدم على هذا الاثم.. وقد قيل: كل قاتل مقتول! فخلِّ عنك ما انت فاعل، وارحم هذه المرأة بحق السماء!..

ثم بكت واغرقت في البكاء، وتوسلت واشتدت في التوسل، فتأثر لمرآها وقال لها:

ـ لقد عفوت عنها إكراماً لك، ولكن لا بد من أن ابقي على جسدها اثراً يدوم ما دامت على قيد الحياة!

وأمر العبيد فجذبوني ومددوني وعرّوا ساقيّ وجنبيّ، وظهري، واتى احدهم بقضيب من خشب السفرجل، وجاء الثاني بسوط من الجلد، وانهالا بهما على جسدي ضرباً مؤلماً مبرحاً.. وظلا يضربانني حتى فقدت وعيي وكدت افارق الحياة.

ثم امر العبيد بأن يحملوني تحت جنح الليل إلى بيتي، ترشدهم العجوز اليه، فيرموني فيه.. ففعلوا ما امر به.

ولما بدا الصباح اخذت الطف آلام جسدي بالمراهم واعالج جراحه بالعقاقير.. وبقيت طريحة الفراش طوال اربعة اشهر..

ولما شفيت جئت دار زوجي لاتسقط اخباره فوجدتها خراباً، ولقيت الزقاق مهدوماً، وحاولت معرفة مكانه فلم افلح.. فجئت إلى بيت اختي لامي، فوجدت عندها هاتين الكلبتين السوداوين.. فاخبرتها بما حدث لي، فتنهدت وقالت:

- من ذا الذي سلم من نكبات الزمان يا اختاه؟

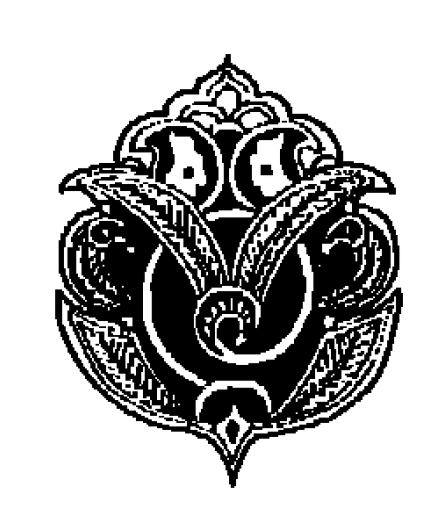
وشرعت تحدثني بما جرى لها مع اختيها وتخبرني بما صارتا إليه..

واقمنا معاً على حب ووداد لا نلهج بالزواج ولا نأتي على ذكره..

ثم جاءتنا اختنا الخامسة هذه واقامت معنا، وهي تخرج إلى المدينة كل صباح، لتأتينا بما نحتاج اليه.

وبتنا على هذه الحال حتى الامس، اذ جاءنا الحمال في صباحه والدراويش الثلاثة في مسائه، فادخلناهم بيتنا واكرمناهم، ولم يذهب من الليل الا القليل حتى انضممت إلينا يا امير المؤمنين مع وزيرك وسيافك.. وقد شرطنا على الجميع شرطاً وافقونا عليه عند دخولهم، وخالفونا فيه بعد ذلك، حين رأوا اختي الصغيرة تضرب الكلبتين ضرباً مبرحاً وهي تبكي رثاء لهما واشفاقاً عليهما، ثم رأوا بكائي ونحيبي وآثار الضرب على جسدي... وقد اردنا معاقبتهم والاقتصاص منهم، لنقضهم العهد واخلافهم بالوعد، ولكنا اشفقنا عليهم فافتدينا كلاً منهم بقصة..

هذه حكايتي يا امير المؤمنين، فهل رأيتم اغرب منها واعجب؟!





الخليفة العادل

تعجب هارون الرشيد من حكايتي المرأتين، وامر بأن تكتبا في خزانة غرائب الاخبار.. فقال لها:

ـ هل تعلمين من امر العفريتة التي سحرت اختيك شيئاً؟

ففكرت قليلاً ثم قالت:

ـ يا امير المؤمنين.. انها اعطتني خصلة من شعرها وقالت لي: اذا اردت حضوري بين يديك فاحرقي شعرة من هذه الخصلة احضر اليك لفوري ولو كنت وراء جبل قاف..

فسرّ الخليفة وقال:

ـ اعطني شعرة منها.

فاخرجت الصبية خصلة الشعر واعطته شعرة منها، فأخذها واحرقها، وما أن مستها النار حتى اهتز القصر بمن فيه، واذا بالجنية تقف بين يدي الخليفة وهي تقول:

ـ السلام عليك يا امير المؤمنين.

فقال هارون الرشيد:

ـ وعليك السلام ورحمة الله.. ما

قصة هذه الصبية وهاتين الكلبتين السوداوين؟

فقالت: اعلم يا مولاي أن هذه الصبية قد صنعت معي جميلاً لا استطيع أن انساه ولا أن اكافئها عليه.. فلقد انقذتني من الموت، اذ قتلت عدوي الذي ما فتىء يطاردني منذ اعوام عدة ليقضي عليّ. وقد رأيت أن انتقم لها من اختيها اللتين القيتاها في البحر، فجال في خاطري أن اقتلهما، ولكني خشيت أن يؤلمها ذلك، فمسختهما كلبتين سوداوين.. وأن اردت الآن أن اعيدهما إلى صورتهما الاولى فعلت ذلك إكراماً لك وإحساناً اليها، فقد علمت انها غفرت لهما ما اتمتا بحقها!

فقال الخليفة:

ـ بادري إلى ذلك فاني مشغول الفكر بامر هذه الزوجة المظلومة، واريد أن احقق في ما قالت، فاذا ظهر لي صدقها اخذت بثأرها ممن قسا عليها وجار.

فقالت الجنية الحسناء:

ـ سوف انقذهما وادلك على من ظلم هذه الزوجة البريئة فهو اقرب الناس اليك!

ثم تناولت طاساً من الماء وتمتمت فوقه ورشت ما فيه على الكلبتين السوداوين وقالت لهما:

ـ عودا إلى صورتكما البشرية الاولى!

فانتفضتا واذا هما صبيتان رائعتا الجمال..

ثم قالت الجنية:

ـ يا امير المؤمنين.. أن الذي قسا على هذه الصبية وضربها ظلماً هو ولدك الامين.. فقد شغفه جمالها فاحتال عليها وتزوج بها دون أن يعرفها بنفسه ويطلعها على حقيقته، ولما جرح وجهها بالطريقة التي روتها لك، ظن أن وراء ذلك خيانة منها ونكثاً للعهد، فاراد قتلها، ولكنه خشي تأنيب الضمير فرجع عن عزمه واكتفى بضربها ذلك الضرب المبرح، ثم اعادها إلى بيتها.

فدهش الخليفة لهذا الامر وقال:

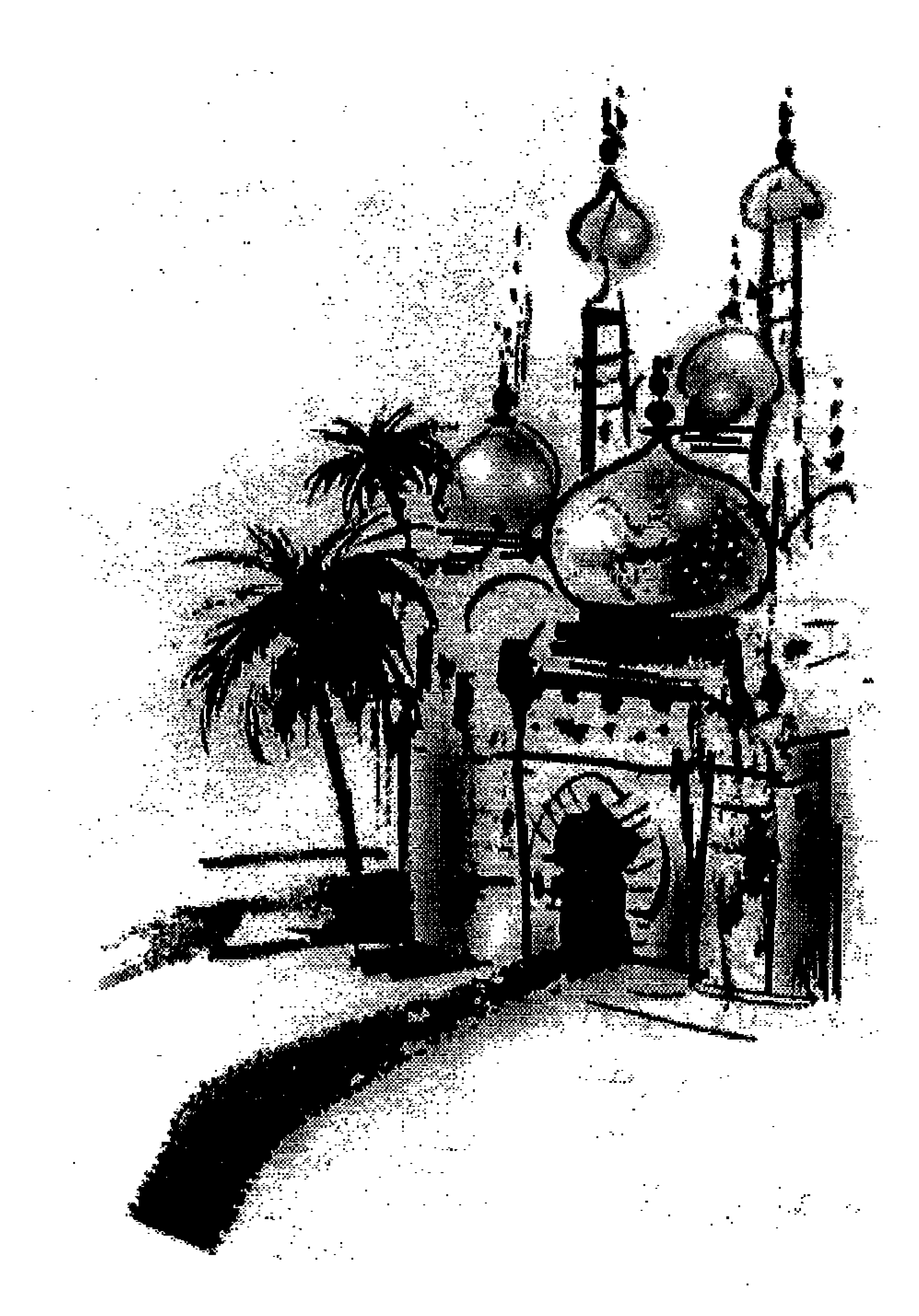
ـ احمد الله الذي منّ عليّ بخلاص هاتين الصبيتين من العذاب، وأنعمّ عليّ بخبر هذه الصبية المظلومة.. والله لاعملن معهن عملاً يذكر..

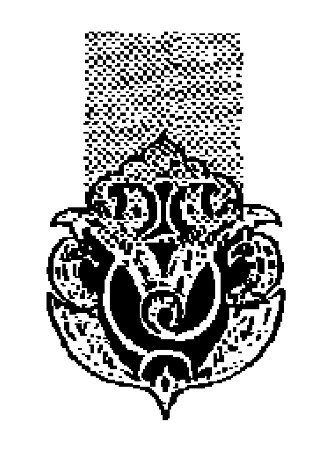
ثم احضر ولده الامين وسأله عن قصة المرأة المظلومة، فاخبره بمثل ما قالت الجنية الحسناء.. فامر باحضار

القضاة والشهود والدراويش الثلاثة والصبية الاولى واختيها اللتين كانتا ممسوختين كلبتين سوداوين، وعقد زواج كل من هؤلاء الحسان على احد الدراويش، واعطى لكل زوجين قصراً، واعاد الزوجة المظلومة لولده الامين واعطاهما مالاً كثيراً وامر بأن يعاد بناء دارهما القديم من جديد..

اما امير المؤمنين فقد تزوج الاخت الخامسة وقدم لها قصراً عظيماً بخدمه وجواريه..

وسرّ الناس من عدل الخليفة وكرمه وحكمته وسماحة نفسه!..







من القاتل؟

بلغت الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد ارفع درجاتها ثروة وعلماً وصولة وسلطاناً، وارتقت بغداد إلى قمة مجدها وذروة فخارها، وهو يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم ومن اشتهر منهم بالعدل والشجاعة ومكافأة المحسن ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولا رحمة.

وفي اصيل احد الايام استدعى الخليفة وزيره جعفر البرمكي وقال له:

ـ هيا بنا ننزل إلى المدينة متخفين فنسأل العامة عن احوال الحكام، ومتولي زمام الامور، والمتصرفين بشؤون الرعية، فمن شكوا منه عزلناه ومن شكروا عمله اوليناه.

فقال الوزير: لك ما تشاء يا امير المؤمنين.

الخليفة والصياد

واصطحبا مسروراً السياف، وسار الثلاثة يخترقون الشوارع والاسواق، إلى أن مروا بأحد الاحياء الفقيرة فرأوا شيخاً عجوزاً يسير متمهلاً، وعلى رأسه شبكة وفي يده عصا، وهو ينشد الابيات التالية:

يقولون لي: انت بين الورى

بعلمك كالليلة المقمرة

فقلت: دعوني من قولكم

فلا علم الا مع المقدرة

فاما الفقير، وحال الفقير

وعيش الفقير.. فما اكدره

اذا ما شكا حاله لامرئ

وبيّن عذراً.. فلن يعذره

اذا كان هذا مصير الفقير

فاصلح ما كان.. في المقبرة

فلما سمع الخليفة انشاده قال لجعفر:

- ما تقول بهذا الشعر الذي سمعناه؟ افلا يدل على عوز منشده واحتياجه؟

فقال الوزير: هذا ما اعتقد يا مولاي.

فاقترب الخليفة من الشيخ وقال له:

- ما صنعتك ايها الشيخ؟

فاجاب حزيناً منكس الرأس:

- انا يا مولاي صياد فقير، وقد خرجت من البيت هذا الصباح، وقصدت نهر دجلة لعلي اظفر بما اقوت به عائلتي فادفع عنها غائلة الجوع.. ولكن الله لم يرزقني هذا النهار بعض ما يعوزني.. وكثيراً ما صادفت في حياتي البائسة يوماً كهذا، حتى كدت اضيق بالحياة ذرعاً، واطلب الموت نجاة من اعبائها واهوالها.

فقال له الخليفة مترفقاً به:

- هل لك أن تعود معنا إلى شاطئ دجلة وتلقي شبكتك فاشتري منك ما تصطاد، مهما كان قليلاً، بمائة دينار؟

فاغتبط الشيخ وقال:

- بكل سرور وشكر.

صندوق في جوف الماء

وسار الاربعة معاً حتى وصلوا إلى النهر، فطرح الصياد شبكته في الماء، وصبر عليها طويلاً، إلى أن احس بها ثقلاً، فجذبها اليه بشدة وعزم، وجرها إلى اليابسة، فاذا بها تحمل صندوقاً مقفلاً ثقيل الوزن. فنظر إليه هارون الرشيد مستغرباً العثور على صندوق كهذا في قعر الماء، ثم ناول الصياد مائة دينار فانصرف شاكراً حامداً

وحمل مسرور وجعفر الصندوق، وسارا به إلى القصر يتبعهما امير

المؤمنين فما كادوا يصعدون إلى القصر حتى أمر الخليفة بالشموع فاوقدت، وتقدم جعفر ومسرور وكسرا الصندوق فوجدا فيه سلة ضمت فتحتها بخيط احمر، فقطعا السلة فرأيا فيها بساطاً، فرفعا البساط فوجدا ازاراً فيه صبية في مقتبل العمر، مقتولة مقطعة ارباً..

فلما رآها الخليفة جزع وحزن، وجرت دموعه على خديه، والتفت إلى جعفر وقال غاضباً:

- ايقتل الناس ايها الوزير في زمني، ويرمون في النهر؟ لا بد من أن اقتص لهذه الصبية ممن جنى عليها واقتلنه شرّ قتلة..

وبلغ به الاسى والالم مبلغاً عظيماً، واستطرد قائلاً:

- ايها الوزير، أن لم تأتني بقاتل هذه الفتاة لاشنقنك على باب قصري واربعين من بني عمك!

فاخذ البرمكي يحاول تهدئة الخليفة والتخفيف من غضبه، وقال له:

- امهلني يا امير المؤمنين ثلاثة ايام.

فقال الخليفة في لهجة المنذر:

- لقد امهلتك!..

وخرج جعفر كئيباً حزيناً وهو يقول في نفسه:

- من اين لي أن اعرف قاتل هذه الصبية فاحضره للخليفة، وأن سمحت لنفسي بأن آتيه بسواه واقول له زوراً: هذا هو القاتل، افلا يقضي عليّ تبكيت الضمير؟

واعتزل في بيته ثلاثة ايام، وهو في حيرة من امره لا يدري ما يفعل في نهايتها، متسائلاً عما سيجري له لدى مقابلته الخليفة!..

الوزير تحت اعواد المشنقة

فلما كان من اليوم الرابع ارسل هارون الرشيد اليه بعض حجابه يطلبه، فذهب اليه حائراً قلقاً، فبادره الخليفة بقوله:

- اين قاتل الصبية؟

فتلعثم الوزير وقال متردداً:

- هل أنا يا امير المؤمنين عالم بالغيب فاعرف قاتلها؟ وكيف يخبرك انسان بامر لم يكن شاهداً عليه؟

فاغتاظ الخليفة وتملكه الغضب وامر بشنقه على باب قصره، وبعث احد



حجابه ينادي في شوارع بغداد:

ـ من اراد أن يتفرج بشنق جعفر البرمكي وزير الخليفة وشنق اربعين برمكياً من اولاد عمه، على باب قصر الخليفة، فليأت القصر فيتفرج...

فهرع الناس ليشاهدوا اعدام جعفر واولاد عمه، وهم لا يعرفون لهذا الامر سبباً، لا سيما وأن الوزير كان من اقرب الناس إلى الخليفة وادناهم إلى قلبه..

ونصب رجال الخليفة اعواد المشنقة امام القصر، واوقفوا جعفراً واصحابه تحتها، واخذوا ينتظرون الامر ليأتوا عليهم واحداً واحداً..

وبكى الناس جميعاً على جعفر البرمكي الذي احبوه كثيراً، وعلى ابناء عمه الذين اشتهروا بالجود والاحسان ومكارم الاخلاق..

وبينما كان الجلاد يهم بتنفيذ امر الخليفة، اذا بشاب حسن الوجه بهي الطلعة قد وقف بين يدي جعفر وقال له:

ـ سلمت من هذه النهاية يا سيد الامراء وملجأ الفقراء.. اني انا الذي قتلت الصبية التي وجدتموها في الصندوق، فاشنقني وخذ حقها مني...

ايهما القاتل

فلما سمع جعفر قوله فرح بخلاص نفسه وحزن على الشاب الذي افتداه بدافع من نبله ووخز ضميره، لكن حزنه لم يطل اذ اقترب منهما شيخ جليل طاعن في السن، بعد أن دفع الناس وشق بينهم طريقاً للوصول اليهما، وقال مرتعداً لاهثاً:

ـ ايها الوزير.. لا تصدق كلام هذا الشاب فهو لم يقتل الصبية، وليس قاتلها سواي، فاقتص مني...

فقال الشاب بغضب واصرار:

ـ ايها الوزير، لقد اضر الهرم بهذا الشيخ فبات لا يعقل ما يقول.. فانا قاتلها وليس لك الحق بمعاقبة غيري من الناس!

فهمس الشيخ في اذن الشاب:

ـ ايها الفتى.. انك لا تزال في ربيع حياتك، اما انا فقد عرفت من الدنيا خيرها وشرها، وذقت حلوها ومرها، فدعني افديك بنفسي وافدي الوزير وابناء عمه...

ثم التفت إلى جعفر قائلاً:

ـ عجّل بقتلي ايها الوزير، فانا قاتل تلك الصبية المظلومة، وليس من الحق أن يكون لي بعد ما فعلته حياة!

فتعجب الوزير واستولت عليه الحيرة، وسار بالشاب والشيخ إلى هارون الرشيد وقال:

ـ يا امير المؤمنين، لقد احضرنا قاتل الصبية.

فقال الخليفة متلهفاً:

ـ اين هو؟

فقال جعفر مضطرباً:

ـ يتهم هذا الشاب نفسه بقتلها فيكذبه هذا الشيخ، اذ كل منهما يؤكد انه القاتل.. وها هما بين يديك..

فنظر الخليفة اليهما وقال غاضباً:

ـ من منكما قتل هذه الصبية؟

فقال الشاب بحزن:

ـ انا يا مولاي...

وقاطعه الشيخ قائلاً:

ـ ما قتلها غيري...

فقال الخليفة لجعفر مغيظاً:

ـ خذ الاثنين واشنقهما...

فقال جعفر معترضاً:

ـ اذا كان احدهما قد قتل، فنشنق الثاني ظلم وعدوان!..

وقال الشاب مؤكداً:

ـ وحقّ من رفع السماء وبسط الماء، أن قاتل هذه الفتاة هو مخاطبك الآن!

ثم اقام للخليفة البرهان على قتله اياها، ووصف له ما وجده في الصندوق.. فاستغرب الرشيد قصته وقال له:

ـ ما سبب قتلك هذه الصبية البريئة، واي شيء حملك على الاقرار بذنبك والاصرار عليه، وكيف جئت بنفسك لتقول انك مجرم سفاح؟

الصبية المقتولة

تقدم الشاب من الخليفة هارون الرشيد وقال:

ـ اعلم يا امير المؤمنين أن هذه الصبية هي زوجي وابنة عمي، وهذا الشيخ ابوها. تزوجت بها فرزقني الله منها ثلاثة اولاد ذكور. وكان كل منا يحب الآخر حباً عظيماً. وقد مرضت اول هذا الشهر مرضاً ثقيل الوطأة فاحضرت لها الاطباء، فاخذت العافية تعاودها قليلاً قليلاً، فسألتها عما تشتهي، فقالت:

ـ اني اشتهي تفاحة اشم رائحتها واختضم بعضها...

فخرجت إلى المدينة لساعتي، وبحثت عن التفاح فلم اجده.. وعدت إلى البيت وقد شق عليّ ذلك، وقلت لها:

ـ يا ابنة عمي، لقد بحثت طويلاً فلم اجد ما انت راغبة فيه..

فحزنت وازدادت تلك الليلة ضعفاً وهزالاً..

وبت قلقاً مهموماً...

ولما ادركني الصباح خرجت من البيت، واخذت اطوف على البساتين واحداً تلو آخر، فلم اجد فيها تفاحاً..

والتقيت بستانياً عجوزاً فسألته عن هذه الفاكهة فقال:

ـ يا ولدي هذا ثمر قلّ وجوده هذه الايام.. ولا يمكنك الحصول على شيء منه الا اذا سرت إلى البصرة، ففيها بستان لامير المؤمنين فيه قليل من التفاح يدخره له حارس البستان...

فجئت البيت فهيأت نفسي وسافرت إلى البصرة، واتيتها بثلاث تفاحات اشتريتها من بستاني الخليفة بثلاثة

دنانير، فناولتها اياها فلم تفرح بها واهملتها...

وكانت صحتها آخذة بالتحسن، فلم تنقض ايام قليلة حتى عوفيت تماماً، فغادرت البيت وقد اطمأن قلبي إلى حالها، وذهبت إلى حانوتي اشتري وابيع...

من الذي اخذ التفاحة

وبينما أنا جالس في الحانوت عند الظهيرة، اذا بعبد اسود قد دخل عليّ وفي يده تفاحة من تلك التفاحات الثلاث، فقلت له:

ـ من اين لك هذه التفاحة ايها العبد.. اخبرني فاجيء بمثلها لانها ثمر نادر في هذه الايام؟!

فضحك بغبطة وقال:

ـ اهدتني اياها صديقتي إثر غيابي الطويل عن بغداد.. واخبرني بانها كانت مريضة طريحة الفراش، فذهب زوجها إلى البصرة واشترى لها ثلاث تفاحات بثلاثة دنانير من بستان الخليفة.. وقد اعطتني احداها!

وتابع الفتى حديثه فقال:

ـ فلما سمعت يا امير المؤمنين كلام العبد، تجهمت الدنيا في وجهي، واسود لون الافق، فقمت واغلقت الحانوت واسرعت إلى البيت وانا ذاهب العقل من شدة الغضب.. ولحظت التفاحات فلم اجد منها الا اثنتين، فقلت لزوجتي:

ـ اين الثالثة؟

فقالت دون اكتراث:

ـ لا ادري!

فتحققت قول العبد، واشتد اضطرابي وخفقان قلبي، فتناولت سكيناً واهويت بها على صدرها دون أن استفهمها الامر...

ثم قطعت رأسها وجمعتها في السلة، ولففتها بالازار، وغطيتها بقطعة من بساط، واطبقت عليها صندوقاً؛ وحملته على بغلتي ورميته في نهر دجلة دون أن يعلم بامرها احد...

ولما عدت إلى البيت رأيت ابني البكر يبكي ولا ينقطع به زفير وشهيق، ولم يكن له اي علم بما جرى لامه، فقلت له:

ـ ما يبكيك يا ولدي؟..

فقال ودموعه تنسكب على خديه:

ـ اني اخذت تفاحة من التفاحات

الثلاث ونزلت بها إلى الزقاق لالعب مع اخويّ، واذا بعبد اسود طويل القامة قد اختطفها مني وقال لي:

- من اين جاءتك هذه التفاحة؟

فقلت له متضرعاً:

- لقد جاء بها ابي من البصرة من أجل امي وهي مريضة، وقد اشترى مثلها ثلاثاً بثلاثة دنانير...

فسار ولم يلتفت إليّ.. فلحقت به باكياً معولاً، فضربني ضرباً شديداً ومضى بها، فخفت من امي وخرجت مع اخويّ إلى ظاهر المدينة هرباً منها.. واقبل المساء فلم يعد بامكاننا البقاء حيث كنا، فجئنا، وانا ابكي الآن لما قد يلحقني من اذية اذا علمت امي بذلك...

ندم الزوج القاتل

فلما سمعت كلام ولدي علمت ان العبد هو الذي جنى على زوجتي الأمينة المخلصة، وانها قتلت ظلماً بكذبة ولؤمه وافترائه.. فتملكني حزن شديدد، واخذت ابكي بلوعة وحنين.. واذا بهذا الشيخ، وهو والدها، يدخل عليّ فاخبرته بما كان، فجلس إلى جانبي وبكى.. وبقينا ننتحب طوال الليل...

وها انا الآن بين يديك، وقد افترس الالم نفسي،واظلم عيشي، اخبرك بقتلها ظلماً، فبرحمة اجدادك عجّل باعدامي، اذ لا حياة لي بعدها..

فلما سمع الخليفة حديث الشاب المفجوع، تألم كثيراً وقال:

- لن اعدم الا العبد الملعون.. سأشفي بقتله غليلي واقتص لشبابها المظلوم..

والتفت إلى جعفر وقال له:

- احضر لي العبد الذي كان سبب هذه المأساة، وأن لم تحضره حلّ بك ما يجب أن يحلّ به..

فخرج البرمكي دون أن يرى هذه المرة املاً بالنجاة. فمن اين له مصادفة ثانية يعثر بها على من يبحث عنه؟ وقال في نفسه:

- لم يبق في الامر حيلة... فليفعل الله بي ما يشاء!

واقام في بيته ثلاثة ايام، يبكي ويودع اولاده واصدقاءه ومحبيه...

ولما كان اليوم الرابع جاءه رسول من لدن الخليفة وقال له:

ـ أن امير المؤمنين في اشد حالات الغضب، وقد طلب مثولك بين يديه واقسم قائلاً: لن يمضي هذا النهار الا وانت مشنوق!

سارق التفاحة

فلما سمع جعفر قول الرسول بكى، وبكى اولاده وعبيده وذووه... واقبل على اولاده يضمهم إلى صدره واحداً واحداً... ولما اخذ ابنته الصغيرة بين ذراعيه ليقبلها قبلة الوداع الاخير، وكان لها في قلبه مكانة خاصة، احس في جيبها شيئاً مكتلاً، فسألها بلهجة الوالد المحب الذي يحاول ان يسمع من ولده الصغير لآخر مرة ما ينطق به من كلمات حلوة تبقى في سمعه وقلبه حتى الدقيقة الاخيرة من حياته:

ـ ما الذي في جيبك يا صغيرتي؟

فقالت له بسذاجة؛

ـ يا ابت.. هذه تفاحة كتب عليها اسم مولانا الخليفة، وقد جاء بها عبدنا ريحان منذ اربعة ايام، ولم يعطني اياها الا بدينارين...

فلما سمع جعفر ما قالته ابنته الصغيرة وثب مبتهجاً وادخل يده في جيبها واخرج التفحة قائلاً:

ـ لقد دنت ساعة الفرج!

ثم امر باحضار العبد ريحان فجيء به، فقال له:

ـ ويحك يا ريحان.. من اين لك هذه التفاحة؟

فتولاه الذعر وقال:

ـ والله يا مولاي لم اسرق هذه التفاحة من قصرك ولا من قصر الخليفة ولا من بستان امير المؤمنين.. وانما كنت منذ خمسة ايام اسير في المدينة فدخلت بعض الازقة فرأيت صغاراً يلعبون، وكان مع ا حدهم هذه التفاحة فاختطفتها منه، فبكى ولحق بي فضربته، فاعول وقال:

ـ ايها العبد.. هذه التفاحة لامي وقد اتاها بها والدي من البصرة، مع تفاحتين غيرها بثلاثة دنانير...

ثم اشتد بكاؤه فلم التفت اليه، وسرت بها إلى قصرك هذا، فرأتها سيدتي الصغيرة فابتاعتها مني بدينارين ذهباً... وتلفت ريحان حواليه خائفاً واستطرد قائلاً:

ـ هذه هي حكاية التفاحة يا مولاي لا تحوير فيها ولا تبديل!

فلما سمع جعفر هذه القصة اسف لتلك المأساة، وقتل الصبية البريئة بذنب عبده، وحزن لكونه سيده...

ثم امسك بيده وذهب به إلى الخليفة واخبره بقصته، فاشتد الحزن بهارون الرشيد لما اصاب الصبية بسبب تلك المصادفة العجيبة، وامر بقتل العبد، وبان تؤرخ هذه الحكاية وتضاف إلى خزانة غرائب الاخبار..

فقال جعفر وقد التمعت في ذهنه فكرة جريئة:

- لا تعجب يا امير المؤمنين من هذه القصة، فما هي باغرب من قصة الوزير نور الدين واخيه شمس الدين!

فقال الخليفة دهشاً:

- فاخبرنا بها أن كان ما تقول حقاً:

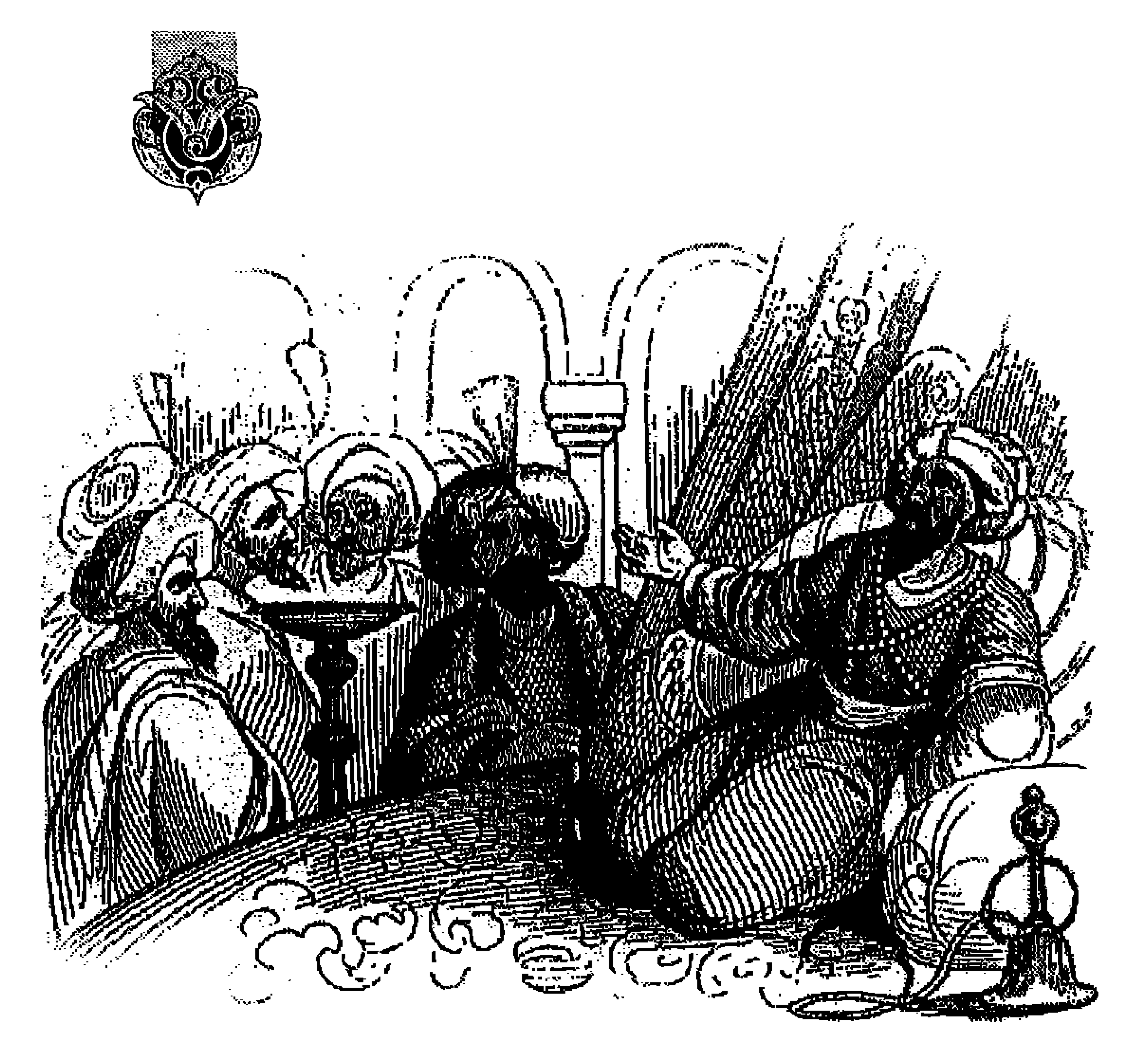
فاجاب جعفر متابعاً خطته الجريئة:

- انني لا احدثك بها يا امير المؤمنين الا اذا وعدت بالعفو عن عبدي ريحان، فقد قتلت الصبية بسببه ولكن دون علمه او رأيه.. وانما هو قضاء وقدر اراده الله!

فقال الخليفة مبتسماً:

- قصّ علينا قصتك، فأن رأيناها اعجب من حكاية الصبية المقتولة عفونا عنه!





خصام الحمقى

قال الوزير جعفر وقد طمع في انقاذ عبده ريحان بهذه القصة:

ـ اعلم يا امير المؤمنين انه كان في سالف الزمان بأرض مصر، سلطان عادل محسن كريم، يحب الفقراء ويجالس العلماء، وكان له وزير عاقل اشتهر بحسن ادارته وعمق حكمته، وقد رزقه الله ولدين كأنهما قمران، لم ير مثلهما حسناً وجمالاً، الا أن صغيرهما واسمه نور الدين علي، كان اعرق في الصباحة والملاحة من اخيه الكبير شمس الدين محمد، حتى كان الناس يقبلون من البلاد القصية لرؤية منظره البهي وجماله الرائع...

في صحبة السلطان

وكان هذا الوزير شيخاً طاعناً في السن، فلم يلبث حتى توفي، تاركاً هذين الولدين في غمرة الوحدة الموحشة والحزن المقيم، فتأثر السلطان لمصابهما وقال لهما:

ـ انتما في منزلة ابيكما عندي، فلأكن في منزلته عندكما، فلا تستسلما إلى

الحزن، وتعاليا إلى القصر تجدا في سيده اباً لكما يغدق عليكما حنانه وحبه...

وما عتم أن عهد اليهما بادارة شؤون الملك، شأن ابيهما من قلبهما، فقاما بتلك المهمة على احسن وجه، وكان السلطان اذا اراد السفر إلى مدينة او ناحية اصطحب احدهما واناب الثاني عنه...

ويبدو أن هذين الاخوين الوسيمين، البارعين في ادارة شؤون الحكم، كانت تساورهمافي بعض الاحيان نزوات طائشة لا تتلاءم مع سنهما ومركزهما، فقد جلسا مرة يتسامران والكبير منهما على اهبة السفر مع السلطان لتفقد احوال المملكة، فقال لاخيه:

ـ يا اخي.. ما رأيك في أن نتزوج كلانا في ليلة واحدة؟

فقال الاخ الصغير نور الدين:

ـ انها فكرة طريفة ليس احب على قلبي من تنفيذها.

فقال شمس الدين بسعادة فائقة:

ـ سيكون ذلك أن شاء الله متى عدت من سفري.

قال الاخ الصغير:

ـ افعل يا اخي ما تريد، فاني لا اخالف لك رأياً:

قال الاخ الاكبر وعيناه تنظران إلى الافق البعيد:

ـ فما امتع أن نتزوج في ليلة واحدة، ثم تضع زوجتانا في يوم واحد.. فترزق انت صبياً وارزق انا بنتاً، ثم تزف ابنتي إلى ولدك، ونعيش كلنا في ظل الوئام والسعادة!

خلاف على المهر!

فصفق نور الدين طرباً وهتف فرحاً:

ـ يا لها من فكرة بارعة.. بل يا له من حلم رائع!..

ثم قال مازحاً:

ـ فماذا تأخذ يا اخي من ولدي مهراً لابنتك؟

فقال الاخ الكبير جاداً:

ـ اخذ من ولدك لابنتي ثلاثة آلاف دينار وثلاثة بساتين وثلاث قرى...

فقطب نور الدين جبينه وقال معاتباً:

ـ ما هذا المهر الذي شرطته على ولدي؟ انسيت أننا اخوان، ونحن الاثنين بفضل الله وزيران في مقام واحد، وكان

حرياً بك أن تقدم ابنتك لولدي من غير مهر، وأن كان لا بد من مهر فيكون شيئاً يسجل ويذاع على الناس ولا تقتضي ابني الوفاء به..

وقال شمس الدين مغيظاً:

ـ أن شأنك لعجيب، تفضل ولدك وتستهين بقدر ابنتي من غير سبب .. وقال الاخ الصغير في شيء من الزهو والكبرياء:

فانك تعلم أن الذكر افضل من الانثى، وولدي ذكر، وسنذكر به بين الناس، بخلاف ابنتك...



فضرب شمس الدين الارض بقدمه وقال:

ـ اراك تكبر من قدر ابنك وتجعله افضل من ابنتي.. ولا شك في انك ناقص العقل ولا اخلاق لك، لانك تذكر شركة الوزارة، وانا ما ادخلتك معي فيها الا شفقة عليك ورأفة بك، وما دمت تفكر على هذا الغرار فوالله لا أزوج ابنتي لولدك ولو وزنت ثقلها ذهباً..

فقال نور الدين حانقاً:

ـ هل صدقت انني ازوج ابني ابنتك، والله لا افعل ذلك ابداً...

فصرخ الاخ الاكبر في وجه اخيه:

ـ انني لا ارضاه لها بعلاً.. ولا تحسب أن ابنتي ستعدم زوجاً كفؤاً لها يعرف منزلتها ويكرم قدرها.. ولولا انني على سفر لكنت القيت عليك درساً يجعلك تعرف لاخيك حقه ولابنة اخيك مكانتها.. ولكني لن اقصر في ذلك الوقت متى عدت!

نور الدين يهاجر من مصر

فافترق نور الدين عن اخيه غاضباً، وقضى ليلته في اشد ما يكون من الغيظ، ورحل شمس الدين في صباح اليوم



التالي مع السلطان، دون أن يرى اخاه ويودعه كعادته.. فعظم ذلك على نور الدين وانشأ يستعيد قول أخيه واحتقاره اياه، فاشتد به الغضب واعتزم امراً...

وبادر إلى خزانته فاخذ منها خرجاً وملأه ذهباً وهو يردد قول الشاعر:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه

وانصب فان لذيذ العيش في النصب

ما في المقام لذي عقل وذي ادب

من راحة، فدع الاوطان واغترب

اني رأيت وقوف الماء يفسده

أن سال طال، وان لم يجر لم يطب

والبدر لولا افول منه ما نظرت

اليه في كل حين عين مرتقب

والاسد لولا فراق الغاب ما اقتنصت

والسهم لولا فراق القوس لم يصب

والتبر كالترب ملقى في اماكنه

والعود في ارضه نوع من الحطب

فان تغرّب هذا عزّ مطلبه

وان تغرّب ذاك زاد في الرتب

ثم امر احد غلمانه أن يجهز له بغلته بسرجها، المضرّب، فشد الغلام على تلك البغلة سرجها الذهبي وركابيها الهنديين، ووضع عليها عباءة كسروية ومدّ فوقها بساطاً حريرياً وسجادة ثمينة، وجعل الخرج من تحت الوسادة.. فاعتلى الوزير نور الدين ظهر البغلة وقال لغلمانه وعبيده:

ـ انا ذاهب للطواف خارج المدينة، ثم سائر إلى القيلوبية للمبيت فيها ثلاث

ليال، فلا يتبعني احد منكم، فان في صدري ضيقاً شديداً، وفي عزمي أن اعالجه بالراحة والوحدة...

وغادر نور الدين القاهرة، وما زال يحث مطيته حتى اوصلته إلى بلبيس، فاشترى منها زاداً يأكله وعلفاً لبغلته، واستقبل البر ثانية ومضى يضرب فيه، حتى ادركه الليل وهو في جوار قرية تدعى السعدية، فنزل على مقربة منها، ودنا من شجرة وارفة فربط بغلته بجذعها ونام تحت ظلالها، وهو يجيش غيظاً وحقداً على اخيه شمس الدين الذي كان السبب في ما يلاقيه من عناء وما يتعرض له في رحلته هذه من اخطار...

وما فتىء نور الدين جاداً في سيره، ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن ناحية إلى اخرى، حتى بلغ مدينة حلب فنزل في احد خاناتها الجميلة.

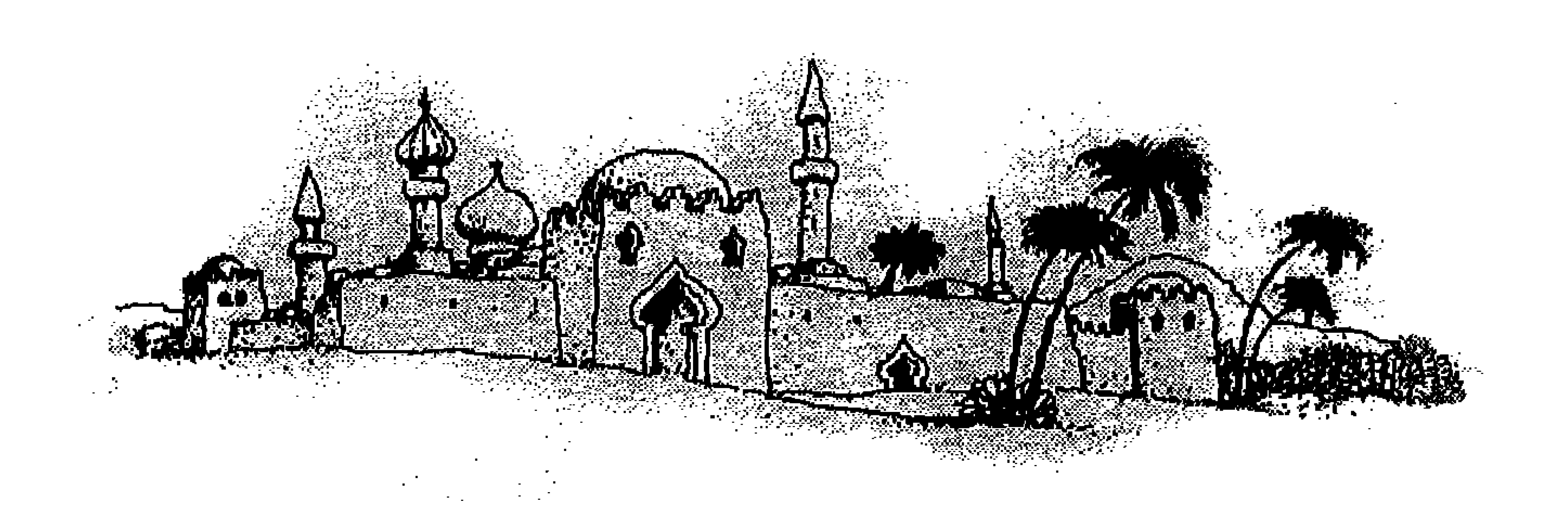
في البصرة

ثم تابع رحلته وهو لا يدري اين يستقربه التجوال، حتى وصل إلى مدينة البصرة، فانتبذ مكاناً في احد خاناتها فرش السجادة فيه وانزل خرجه من على البغلة، وعهد بها إلى البواب ليعنى بها.. فامسك البواب بمقود البغلة ومضى بها إلى النهر ليغسلها.. فبينما هو سائر بها في بعض شوارع المدينة، رآه وزير البصرة من نافذة قصره، فانتبه لجمال البغلة وما عليها من العدة الثمينة، وادرك انها مطية ملك او وزير، فدهش من ذلك وقال لاحد غلمانه:

ـ ائتني بهذا البواب...

فذهب الغلام وجاء بالبواب، فتقدم هذا وقبلّ الارض، فقال له الوزير:

ـ من هو صاحب هذه البغلة؟



فقال البواب مضطرباً:

ـ انه شاب حلو الشمائل من اولاد التجار، تعلوه هيبة ووقار...

فنهض الوزير من فوره ومضى إلى الخان لرؤية الشاب.. فلما شاهده نور الدين مقبلاً اليه، عرف مقامه من هيئته وزيه، وهرع نحوه مسلماً عليه، فعانقه الوزير وسأله:

ـ من اين اقبلت يا ولدي وماذا تريد؟

فارتاح نور الدين لهذا الاستقبال الحار وقال:

ـ اني قدمت من القاهرة يا مولاي، وكان ابي وزيراً فيها وقد انتقل إلى رحمة الله...

ثم قص عليه ما جرى له، وقال:

ـ وقد عزمت الا اعود إلى قومي ابداً حتى اجوب جميع المدن والبلدان...

فقال الوزير بعطف الاب الحادب:

ـ يا ولدي.. لا تطاوع نفسك فترميك في الهلاك، فان البلاد خراب، وانا اخاف عليك من غدر الزمان...

وبادر إلى البساط والسجادة فحملهما على بغلته، ومضى بنور الدين إلى قصره، فأنزله في مكان انيق، واكرمه واحسن إليه.

زوجة وثروة ووزارة

ومضت على ذلك، ايام احب وزير البصرة خلالها، ضيفه الشاب، واعجب بما اكتشف فيه من حسن الخلق ورجاحة الرأي، وكان هذا الوزير شيخاً جليلاً مسناً، فقال لنور الدين يوماً:

ـ يا ولدي.. لقد غدوت كهلاً محني الظهر ضعيف البنية، واخشى أن يفاجئني اجلي قبل أن اطمئن على اهلي، وكأن الله قد ارسلك إليّ لتكون عوناً لي في حياتي وخليفة لي من بعدي، فان الله لم يرزقني ولداً ذكراً، ولكنه انعم عليّ بابنة تضاهيك في الحسن، وقد منعت عنها خاطبين كثيرين، فان قبلتها جارية لك وكنت لها بعلاً، اوصيت لك بثروتي، ومضيت بك إلى سلطان البصرة، وقلت له انك ابن اخي، وجعلتك وزيراً له مكاني، ولزمت انا بيتي لاقضي بقية عمري في دعة وطمأنينة.

فاطرق نور الدين وأجاب قائلاً:

ـ سمعا وطاعة يا مولاي، فانك قد اثقلت كاهلي بنعمتك ومعروفك...

ففرح الوزير وامر خدمه بتزيين قاعة الاعراس، ودعا وجوه المدينة ورجال الدولة وقال لهم:

ـ لقد كان لي اخ اسند اليه منصب الوزارة في الديار المصرية، رزقه الله ولدين، فاوصاني أن ازف ابنتي إلى احدهما متى بلغا سن الرشد، وقد ارسل إليّ الان ابنه هذا لاعقد له على ابنتي وهو اولى بها من رجل غريب.. فان شاء بعد ذلك البقاء بيننا فعلى الرحب والسعة، وأن شاء العودة إلى مصر سيّرته هو وزوجته إلى ابيه.

فنظروا إلى الشاب فاعجبوا به وقالوا جميعاً:

ـ نعّماً ما رأيت!

فاستدعى الوزير القضاة والشهود، فكتبوا عقد الزواج، واحرقوا البخور، وشربوا السكر، ورشوا ماء الورد، ثم انصرفوا...

ولما كان الغد اصطحب الوزير صهره نور الدين وذهب به إلى السلطان، فقال له:

من هو هذا الشاب؟

فقال: هذا ابن اخي.

ـ وكيف يكون ابن اخيك ولم نسمع أن لك اخاً؟

ـ لقد كان لي ايها السلطان اخ وزير في الديار المصرية، وقد مات مخلفاً ولدين، فتولى الكبير منصب والده، وجاء الصغير عندي لأزوجه ابنتي لاني كنت قد حلفت الا أزوجها الا له. وانت ترى يا مولاي انني قد غدوت شيخاً كبيراً، فضعف سمعي وعجز تدبيري، فأرجو مولاي السلطان أن يجعله في منصبي، فانه ابن اخي وزوج ابنتي، وهو اهل للوزارة لانه صاحب رأي وتدبير.

فنظر اليه السلطان وحادثه وسأله عن شؤون كثيرة، فراقه سداد رأيه واعجب به وسكن اليه، فانعم عليه بما أراده الوزير، وامر له بخلعة عظيمة وعيّن له مرتباً كبيراً...

واقبل نور الدين في اليوم التالي إلى القصر ليقوم بمهام منصبه، فنظر بين الناس في امورهم واحكامهم، فبدا من رجاحة عقله وحسن تدبيره، ما زاد السلطان له حباً وبه اعجاباً فاغدق نعمه عليه وغمره بعطفه وخيره...

شمس الدين يبحث عن اخيه

هذا ما كان من نور الدين.. اما اخوه شمس الدين فانه لما عاد من رحلته مع

سلطان مصر، سأل عن اخيه فقال له الخدم:

- لقد غادرنا منذ سفرك مع السلطان، وقال لنا انه مسافر إلى القيلوبية لقضاء بضعة ايام انتجاعاً للراحة، واوصانا بان لا نتبعه او نسأل عنه، وهو لم يعد حتى الان ولم نسمع عنه خبراً.

فاضطرب شمس الدين لسماع هذا الكلام، وقلق على اخيه، وقال لنفسه:

- ويحي لقد آلمته تلك الليلة ونهرته فأثر فيه قولي وغادر مصر، وما كان ذلك الا من طيشي وحماقتي، فما عساه يصنع واين يذهب!

واشتد به القلق والخوف على اخيه، فارسل إلى نوابه وسعاته في جميع انحاء القطر، كي يبحثوا عنه ويردوه إليه معززاً مكرماً.. ولكن عبثاً بحث النواب والسعاة عنه، فلم يقعوا له على اثر.

ولما يئس شمس الدين من العثور على اخيه، تولاه الهم والحزن امداً طويلاً، الا أنه لم يلبث حتى نسيه وتزوج ابنة رجل من تجار مصر، فولدت له بنتاً من اجمل بنات عصرها دعاها سيدة الحسن، كأن الشاعر قد عناها بقوله:

ومهفهف يغني النديم بريقه
عن كأسه الملأى وعن ابريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها
في مقلتيه ووجنتيه وريقه

ومن عجائب الاتفاق انه في اليوم الذي ولدت لشمس الدين وزير مصر تلك الابنة الملائكية الجميلة، ولد لأخيه نور الدين وزير البصرة ولد اجمل واروع، كأن الشاعر قد نظر اليه اذ قال:

أن جيء بالحسن كي يقاس به
ينكّس الحسن رأسه خجلاً
او قيل: يا حسن هل رأيت كذا؟
يقول: اما نظير ذاك فلا

وقد سماه أبوه حسن بدر الدين ولكن غلب عليه اسم حسن البصري فعرف به.





حسن البصري وسيدة الحسن

وانفرطت من سلسلة الزمن اعوام، كان فيها الوزير نور الدين مرعيّ الجانب مكفيّ الحاجة اثيراً لدى السلطان، يعيش مع زوجه وابنه في ارغد غيش واحسن حال..

وقد بذل جهداً كبيراً في تربية ابنه وتثقيفه، فاحضر له المربين والفقهاء، يعلمونه في بيته، فبدت نباهته واتقد ذكاؤه، وتوافرت له معرفة واسعة وهو ما يزال في ميعة الصبي وحداثة السن، وازداد إلى ذلك حسناً وجمالاً حتى لكأن الشاعر قد عناه بقوله:

قمر تكامل في سماء جماله

فالشمس تشرق من شقائق خده

ملك الجمال باسره فكأنما

حسن البرية كلها من عنده

ولما بلغ حسن البصري سن الخامسة عشرة اصطحبه ابوه إلى قصر السلطان، ورآه الناس لاول مرة فدهشوا لجماله، وجلسوا في الطريق ينتظرون عودته ليمتعوا عيونهم بمرآه:

بدا فقالوا تبارك الله

جلّ الذي صاغه وسوّاه

ولم يكن اعجاب السلطان بالفتى الذكي الجميل، بأقل من اعجاب عامة الناس، فاحبه حباً عظيماً، وقربه منه، والحّ على ابيه الوزير باحضاره إلى القصر كل يوم، فانشأ يختلف اليه فيلعب مع اترابه من الامراء واولاد الوزراء، ويتنادرون ويتساجلون الشعر، فأدهشهم بسرعة خاطره واصالة رأيه.

الحنين إلى الوطن

بيد أن الوزير نور الدين كان كلما نظر إلى ولده، ورآه ينمو ويتكامل، شعر بغصة في قلبه، واحس دمعة حارة تنحدر على خده، لذكرى وطنه واهله، وذكر الحماقة التي فرقت بينه وبين اخيه شمس الدين، وقد كان له بمثابة الاب الحادب والصديق الكريم، ولكم جرى لسانه بالشعر معبراً عن المه العميق، وتمتم بلوعة صادقة:

ان شكونا بعداً فماذا نقول

او بلغنا شوقاً فكيف السبيل

او بعثنا رسلاً تترجم عنا

ما يؤدي شكوى المحب رسول

وما زال الالم والحزن يأكلان قلبه، حتى اشتد نحوله ووقع فريسة الهم والداء، فخشي أن يموت قبل أن يفضي لابنه بكل ما وقع له، فناداه اليه وقال له:

- أن لك يا ولدي عماً يدعى شمس الدين وهو وزير في مصر، وكنت قد فارقته على غير رضاه، فخذ هذه الورقة واكتب ما امليه عليك..

ثم املى ما جرى له منذ مغادرته مصر، إلى يوم وصوله إلى البصرة وزواجه بابنة وزيرها فولادة ابنه حسن.. وسلمه تلك الورقة بعد أن مهرها بتوقيعه قائلاً له:

- يا ولدي احفظ هذه الوصية فان فيها اصلك ونسبك، واذا عرض لك في هذه البلاد مكروه، فاشخص إلى مصر واسأل عن عمك واعلمه اني مت غريباً وكان اشد ما يشجيني شوقي إليه.

وصايا الاب لابنه

ثم روى له ما كان بينه وبين اخيه، وقال له:

- اني اوصيك يا ولدي بأن تسأل عن عمك فان كان قد ولدت له ابنة فلا تتزوج غيرها ابداً.. فان اقترانك بها يعيد إليّ

الطمأنينة والسكينة في اعماق قبري..

فطفق حسن يبكي متأثراً من قول ابيه، فقال له الاب المشرف على الموت:

- لا تبك يا ولدي، واعمل بما اقوله لك تنل النجاح الذي تبتغيه وتحظ بمحبة الناس ورضى الاله، وتذكر دائماً هذه الوصايا الخمس:

لا تعاشر احداً وتخالطه الا بعد روية وخبرة، فان السلامة في الاعتزال عن الاشرار والمنافقين، وقد قال الشاعر:

ما في زمانك من ترجو مودته

ولا صديق اذا جاء الزمان وفى

فعش فريداً ولا تركن إلى احد

فقد نصحتك في ما قلته وكفى

ولا تجر على احد يجر عليك الدهر، فالدهر يوم لك ويوم عليك، والدنيا قرض بوفاء، وقد قال الشاعر:

تأنّ ولا تعجل لامر تريده

وكن راحماً للناس تدع براحم

فما من يد الا يد الله فوقها

وما ظالم الا سيبلى باظلم

والزم الصمت، واشتغل بعيبك عن عيوب الناس، فقد قيل: من لزم الصمت نجا، وقال الشاعر:

الصمت زين والسكوت سلامة

فاذا نطقت فلا تكن مهذاراً

فلئن ندمت على سكوتك مرة

فلتندمن على الكلام مراراً

واحذر شرب الخمرة، فان الخمرة مذهبة العقول ورأس كل فتنة، وقد قال الشاعر:

تركت النبيذ وشرّابه

وصرت حديثاً لمن عابه

شراب يضل سبيل الهدى

ويفتح للشر ابوابه

وصن مالك يصنك، واحفظه يحفظك، ولا تفرط فيه فتحتج إلى اقل الناس، وقد قيل في المثل الدارج: «صن الدراهم فهي المراهم» وقال الشاعر:

أن قلّ مالي فلا خل يصاحبني

او زاد مالي فكل الناس خلاني

فكم صديق لبذل المال صاحبني

وصاحبي عند فقد المال خلاني

غضب السلطان

ولم تنقض بعد ذلك ايام معدودة حتى توفي نور الدين وزير البصرة، فحزن ولده حسن البصري عليه حزناً شديداً، ولزم منزله اسابيع عدة لا يخرج، حتى خشي اصحابه أن يودي به الحزن.. وسمع السلطان بخبره فاستدعاه اليه وقربه منه وقال له:

ـ لقد كان ابوك الراحل عزيزاً عليّ حبيباً إلى قلبي، فلن اتخلى عنك من بعده، ولن ادعك تشعر بفقده، وسازوجك ابنتي واتخذك نديماً وسميراً فانت خير من عرفت من شبان مملكتي..

فشكر له حسن البصري جميله، وقال له:

ـ اما زواجي من ابنتك فهو شرف عظيم لي ولكن ارجو أن تعفيني منه لاني وعدت ابي أن اتخذ ابنة عمي شمس الدين وزير مصر زوجة لي، ويشق عليّ أن اخلف وعداً قطعته له:

فقطب السلطان جبينه، وبدا الغضب في عينيه، وغادر قاعة العرش دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة واحدة، فنهض حسن البصري من مجلسه ومضى إلى بيته حزيناً واجماً، فبينما هو يسير في الطريق لحق به خادم من خدم ابيه، فوجده يسير على حاله تلك منكس الرأس منفطر القلب، فاشفق عليه وقال له:

ـ يا سيدي عجّل بالهرب قبل فوات الآوان..

فتولاه الذعر وسأله:

ـ ما الخبر؟

فقال لاهثاً مضطرباً:

ـ ان السلطان قد غضب عليك، وارسل في طلبك لمعاقبتك، وان رسله لمقبلون ورائي..

فبدا الذعر على الفتى وقال في لهجة باكية:

ـ الا أذهب إلى بيتي فأودع امي واحمل شيئاً من المال استعين به على الغربة؟

فاجاب الخادم بحزم:

ـ كلا، فقد كاد رسل السلطان يقبلون.. ومتى اقبلوا فلا نجاة لك من الموت!

فغطىّ حسن البصري جانباً من وجهه بعباءته السوداء، وانطلق من فوره

إلى خارج المدينة، وسمع الناس من حوله يلهجون بامره قائلين أن السلطان قد ارسل وزيره الجديد إلى بيت وزيره المتوفى ليصادر املاكه ويقبض على ولده حسن ويكبله بالحديد ويمضي به إلى السلطان ليقتله!..

صفقة غير منتظرة

ولما بلغ ظاهر المدينة قال في نفسه:

ـ لئن فاتني وداع امي، فلن يفوتنيّ وداع ابي..

واقبل نحو المقبرة، وجلس على قبر ابيه يشكو له ما حلّ به من بعده، ورفع ذيل عباءته من فوق رأسه وكانت منسوجة بالذهب وقد طرز عليها هذان البيتان:

يا من له وجه بدا

يحكي الكواكب والندا

لا زال عزك دائماً

وعلو مجدك سرمدا

وانه لكذلك اذ مرّ به يهودي كأنه صيرفي ومعه خرج فيه ذهب كثير، فتقدم منه وقال له وقد عرفه:

ـ يا سيدي مالي اراك متغيراً؟

فخشي أن ينتبه لامره ويشي به فقال له

ـ لقد كنت نائماً في بيتي فتراءى لي طيف ابي يعاتبني على قلة زياراتي له، فنهضت مرتاعاً وهرعت إلى هنا، مخافة أن يولي النهار دون أن ازوره فلا يغمض لي في ليلتي جفن..

فقال اليهودي متذللاً:

ـ يا سيدي ان اباك كان قد ارسل مراكب للتجارة، وقد اقبل بعضها، واريد أن اشتري منك وسق مركب منها بالف دينار.. فهل تبيعني اياه بهذا الثمن؟

فقال حسن البصري فرحاً:

ـ نعم!..



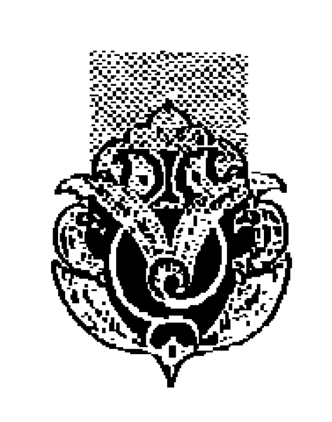
فاخرج اليهودي كيساً من الذهب عدّ منه الف دينار فسلمه اياها وقال:

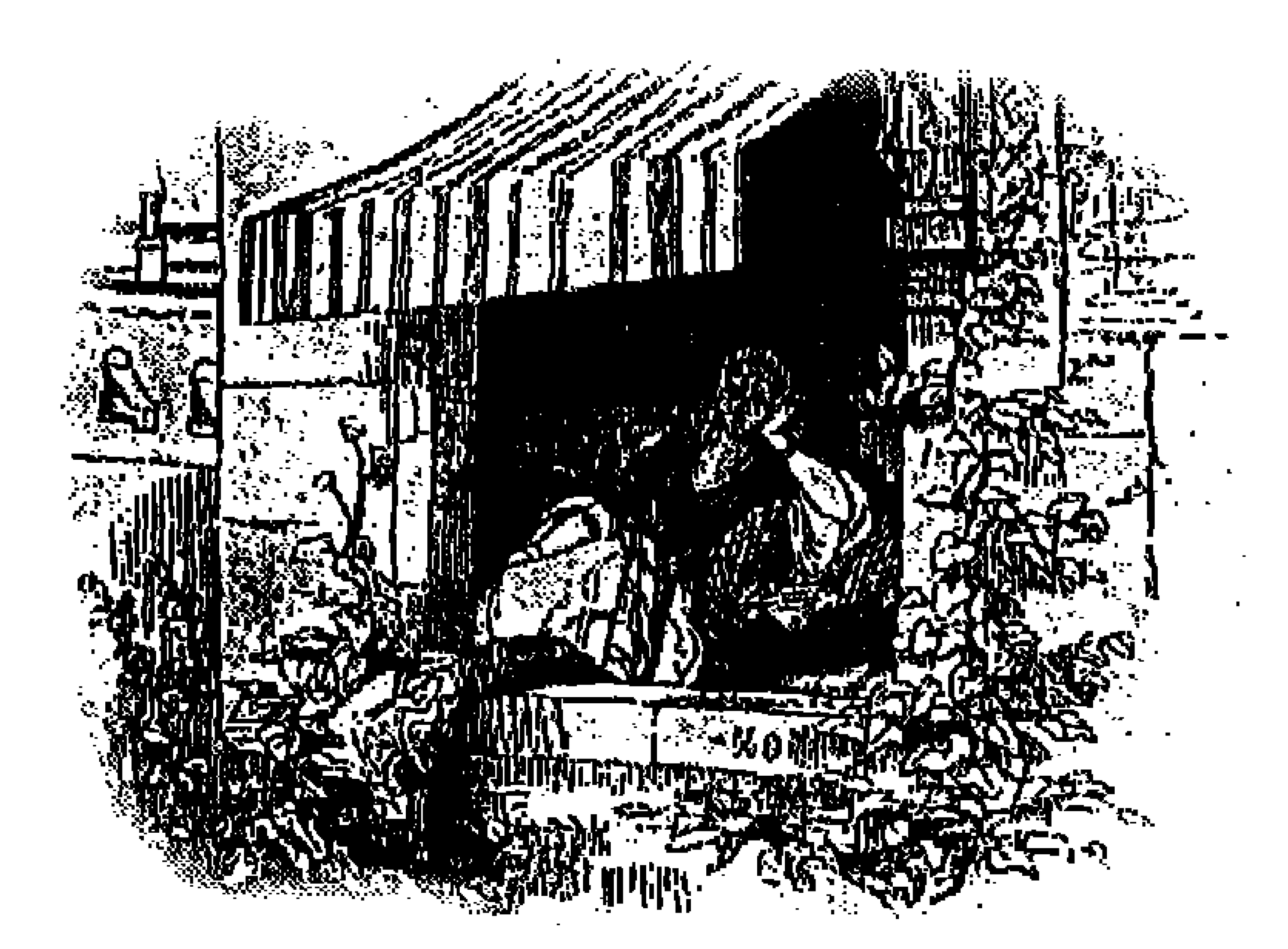
ـ اكتب لي ورقة بذلك وامهرها بخاتمك.

ففعل... ومضى اليهودي في سبيله فرحاً بصفقته، وعاد حسن إلى قبر ابيه وقد اشتدت عليه لوعته وتضاعف شجنه، فطفق يبكي ويردد بحرقة:

ـ الدار مذ غبتم يا ساداتي دار
كلا، ولا الجار مذ غبتم لنا جار
ولا الانيس الذي كنت قد اعهده
بها انيسي، ولا الاقمار اقمار
غبتم فاوحشتم الدنيا ببعدكم
واظلمت بعدكم دور واقطار
ليت الغراب الذي نادى بفرقتنا
يعرى من الريش لا تحويه اوكار
قد قلّ صبري واضنى بعدكم جسدي
وكم تهتك يوم البين استار







دعابة جنية

اسند حسن البصري رأسه إلى قبر ابيه مغمض العينين، وارسل نفسه في الآفاق البعيدة المجهولة، كأنه يود اجتياز تخوم الحياة الواقعية لينغمس في رؤى الغيب وعالم الاحلام..

واخذ النسيم المضمخ بشذا الآس والريحان يهب عليه من خميلة هناك، وظلال المساء تلفه بوشاحها السابغ وانفاسها الندية، والكرى يداعب جفونه المتعبة.. فما لبث حتى استسلم إلى الرقاد العميق..

جنيتان يتناجيان

وخرجت الجن من مخابئها، كعادتها كلما جن الليل وأوى الانس إلى مضاجعهم.. وتلاقى في المقبرة جنيان عريقان.. ذكر وانثى.. فجعلا يسيران الهوينا وكل منهما يروي لصاحبه ما اتصل به من اخبار خوارق، حتى بلغا قبر الوزير نور الدين، وشاهدا حسن البصري راقداً عليه، ووجهه يلمع في ضوء القمر، وانفاسه تتردد من صدره وكأنها اثارة من ذلك الشذا الذي يعطر المكان، فاخذت الجنية بجماله ورقته وقالت لصاحبها:

- لكأنه فتى من فتيان الجنة!

فقال الجني دهشاً:

- لقد صدقت.. فما احسنه وما احلى قسماته!

قالت: فهل رأيت في الدنيا مثيلاً له؟

قال: اني رأيت فتاة تشبهه في مصر،

هي سيدة الحسن بنت الوزير شمس الدين، ولهذه الفتاة قصة عجيبة!

- وما قصتها يا عزيزي؟

- أن هذه الفتاة قد فتنت الناس بجمالها الساحر وقدها الممشوق، فلما ايفعت واكتمل نموها، استدعى السلطان اباها الوزير شمس الدين وخطبها منه، فلم يجب الوزير بل اطرق واجماً مستسلماً للبكاء.. فقال له الملك:

- ما الذي يبكيك؟

فقال الوزير بلوعة وحسرة:

- ايها السلطان اقبل عذري وارحم عبرتي، فانك تعرف أن اخي نور الدين قد فارقني غاضباً عليّ لاني قد عارضته، في حديث احمق دار بيننا، في زواج ابنه من ابنتي، وقسوت عليه في الكلام.. وقد اقسمت مذ علمت برحيله، الا ازوج ابنتي الا من ابنه.. وقد سمعت اخيراً أن اخي قد تزوج ابنة وزير البصرة ورزق منها ولداً، فابنتي سيدة الحسن مخطوبة لهذا الولد، من قبل أن يخلقا.. ولن تكون الاّ له أن شاء الله!

فلما سمع السلطان قوله، غضب عليه غضباً شديداً، وقال له:

- ويحك.. امثلي يخطب ابنتك فتمنعها عنه، وتحتج على ذلك بحجة سخيفة كهذه الحجة، والله لاعطينها برغمك لاقل خدمك شأناً وابشعهم خلقة..

وكان لدى الوزير سائس احدب كهل قبيح الخلقة مدخول العقل، فامر بأن يحضر حالاً ويعقد له على الفتاة..

قال الجني لصديقته الجنية:

وقد تركت هذا الاحدب منذ ساعة بين مماليك السلطان على باب الحمام، وقد اوقدوا الشموع من حوله واخذوا يسخرون منه، اما سيدة الحسن فهي تبكي بين المواشط اللواتي يعنين بزينتها، وقد منع ابوها من رؤيتها حتى الغد!..

واستطرد العفريت قائلاً:

- وما اشبه سيدة الحسن بهذا الشاب، بل هي اجمل منه!

فقالت الجنية حانقة:

انك تكذب، فان هذا الشاب احسن اهل زمانه، وليس لجماله مثيل!

قال الجني مصراً على رأيه:

اقسم لك يا اختاه، بان الصبية احسن

منه، ولكن لا يصلح لها احد غيره، ومن الظلم أن تزف إلى ذلك الاحدب المدخول العقل!

فقالت الجنية وقد اشتد بها الفضول:

ـ يا اخي، دعنا نحمله ونمضي به إلى الصبية التي تقول عنها.. فنرى ايهما اجمل!

فطرب للفكرة الطريفة وقال:

ـ والله ليس هناك احسن من هذا الرأي واطرف من هذه الدعابة..

وعمد إلى حسن البصري فحمله وطار به في اجواء السماء، وحلقت الجنية معهما.. فلم تنقض هنيهة حتى بلغوا مدينة القاهرة، ونزلوا على مقربة من قصر الوزير شمس الدين حيث تجهز سيدة الحسن لتزف إلى السائس الاحدب..

في عرس سيدة الحسن

ثم ايقظ الجني حسن البصري، فبهت لأنه لم يجد نفسه على قبر ابيه، واخذ ينظر يميناً وشمالاً وقد ادرك انه في مدينة غير مدينة البصرة، وساوره من ذلك العجب والخوف، فقال له الجني:

ـ لا تخف فانا الذي حملك إلى هنا، وسأسدي اليك يداً لا تنساها.. فاصنع كما اشير عليك..

واتاه بحلة فاخرة، واوقد له شمعة، وقال له:

ـ خذ هذه الشمعة وارتد هذه الحلة، وامض إلى هذا الحمام فاختلط بالناس، ورافقهم حتى تصلوا إلى قاعة العروس، فاسبق غيرك اليها وادخلها ولا تخش احداً، وقف إلى يمين العريس الاحدب، وكلما دنت منك المواشط والمغنيات ليبعدنك ضع يدك في جيبك تجده مفعماً ذهباً، فاملأ يدك بالذهب وانثره عليهن ولا تخش أن ينفد ما معك بل اعط كل مرة ما معك فيمتلىء جيبك من جديد..

فحار حسن البصري في امره، ولم يدرك لما طلب منه معنى، ولكنه لم يجد بداً من العمل باشارة الجني، فذهب حتى وقف إلى جانب الاحدب، فنظر الناس اليه فشاهدوا حلته الفاخرة وعمامته المطرزة بالذهب، فحسبوه احد اقرباء العروس..

ولم يكد يستقر بينهم حتى اخذ ينثر الذهب على المغنيات والمواشط، وكلما دنت منه احداهن ملأ كفّها دنانير، حتى دهشن من غناه وكرمه فوق دهشتهن من حسنه وجماله..

ولما وصل الموكب إلى قصر الوزير، وقف الحجاب يردون الناس



ويمنعونهم من الدخول، فقالت المغنيات:

ـ والله لا ندخل القصر الا اذا دخله هذا الشاب لانه غمرنا باحسانه، ولا نجلو العروس الا وهو حاضر معنا..

فادخل حسن البصري إلى قاعة العرس، واجلس بمرأى من السائس الاحدب، واصطفت نساء الامراء والوزراء صفين، وقد ضربت كل منهن على وجهها خماراً وامسكت بيدها شمعة كبيرة موقدة، فلما رأين الشاب انكرن وجوده بينهن، فقالت لهن المغنيات:

ـ أن هذا المليح قد نثر علينا الذهب الاحمر فلا تقصرن في خدمته..

فأنشأت النساء ينقلن ابصارهن بين حسن البصري والسائس الاحدب ويقلن بعضهن لبعض:

ـ ليت سيدة الحسن قد زفت إلى هذا الفتى، فهو بها خليق.. وليت الذي امر بأن تزف إلى هذا السائس الاحدب يلاقي جزاء ما اثمت نفسه، فقد ظلم الصبية وظلم جمالها الساحر وشبابها الريان!

وما لبثت سيدة الحسن أن دخلت القاعة تحيط بها المواشط وقد طيبنها وزينها والبسنها الحلي الثمينة والحلل الرائعة التي تتألق وتبرق كأنها قد احضرت من خزائن الملوك.. فضربت المغنيات بالدفوف وعزفن على الاتهن شجي الانغام، وغنين باصواتهن الرخيمة.. وتحلقت النسوة حولها

بشموعهن فبدت اشبه بالبدر الساطع بين النجوم.. فخفق قلب حسن البصري لمرآها، وظن نفسه في حلم، ونظرت هي اليه فشغفها حباً وقالت:

ـ اللهم اجعل هذا زوجي ونجّني من السائس الاحدب الذي فرض عليّ!

اما السائس فكان منطوياً على نفسه في احدى زوايا القاعة، مشغولاً بشمعة امامه لا يكاد يشعلها حتى تنطفىء.. وقد نسي العروس، ولم ينتبه إلى حسن البصري الذي اقبل نحوها مرحباً مستبشراً وكأنه الرجل الذي تزف اليه!

غلطة مستحبة

ولما اقبل الشيوخ لكتابة عقد الزواج، حسبوا حسن البصري صاحب العرس، فكتبوا العقد باسمه.. ولم يفطن احد إلى تلك الغلطة.. حتى السائس الاحدب نفسه لم ينتبه إلى ذلك، وظل مشغولاً عما حوله بالشمعة التي لا يكاد يشعلها حتى تنطفىء من جديد..

ولما كتب العقد وانصرف الشيوخ، اذن للناس بالانصراف، ودخلت المواشط بالعروس إلى مخدعها ليغيّرن ما عليها من الحلل والحلى، فخرج الجميع ولم يبق في القاعة غير حسن البصري والسائس الاحدب، فقال هذا الفتى:

ـ لقد آنستنا الليلة يا سيدي وغمرتنا باحسانك، ونرجو أن نلقاك في وقت آخر..

فلم يجب حسن البصري ولم يدر ما يصنع، فقال له الرجل:

ـ لقد انصرف الجميع، ولم يبق غيرك، فهلا تريد الذهاب؟

فلم يجد الفتى بداً من الانصراف، فنهض وسار إلى الباب، فاذا بالجني يعترضه في الرواق قائلاً:

ـ انتظر هنا قليلاً فاذا غادر السائس القاعة فادخل انت على العروس وقل لها: انا زوجك، ولم يعمد الملك إلى هذه الحيلة الا خوفاً عليك من الحاسدين، وليس هذا الرجل الذي رأيته غير سائس عندنا!

فجمد حسن البصري في مكانه حائراً متردداً، واذا بالسائس قد غادر القاعة ودخل المطبخ ليغسل يديه، فلحق به الجني واستحال امامه إلى فأر، فنهره فتحول إلى قط، فذعر وابتعد عنه، فاذا بالقط قد صار كلباً واخذ يجري وراءه وهو ينبحه ويهم بنهشه، فنظر اليه

وساقاه ترتجفان رعباً فاذا به قد تحول إلى حمار، فانشأ يصرخ مستغيثاً وهو يحاول النجاة بنفسه، واذا بالحمار قد غدا ثوراً كبيراً وسد عليه الطريق، وصرخ فيه بلغة البشر:

ـ ويلك يا احدب.. انظر اليّ..

فطفقت اسنان السائس تصطك، وهوى على الارض من شدة الخوف، فصرخ به الثور:

ويحك ايها الاحدب.. هل ضاقت بك الدنيا فلم تجد فيها غير هذه الصبية تتخذها زوجة لك؟

فلم يتحرك السائس من مكانه ولم يجب بكلمة، فانتهره الثور قائلاً:

ـ ردّ عليّ الجواب والا اسكنتك التراب!

فتمتم السائس مرتبكاً:

ـ ليس الذنب في هذا ذنبي.. ولكنهم غصبوني عليه.. وانا اتوب منه إلى الله ثم اليك..

فحمله الثور بقرنيه ثم القى به فاذا برأسه على الارض ورجليه تتأرجحان في الهواء.. وقال له:

ـ اقسم بانك أن غادرت هذا المكان قبل أن تشرق الشمس قتلتك ومزقت جسدك بقرنيّ.. فابق هنا حتى الصباح، ثم امض إلى سبيلك ولا تعد إلى هذا البيت ابداً..

مع العروس

اما حسن البصري فانه ترك الجني والسائس يتخاصمان، وهرع إلى القاعة فاذا بالعروس تقبل وهي تتألق نضارة وفتنة، وقد وقفت امها في الباب تهتف به دون أن تراه!

ـ أن هذه العروس وديعة بين يديك.. لقد اراد الله ان تكون لك ولا مرد لارادته وقضائه!

وكانت سيدة الحسن تحسب انها ستلاقي السائس في انتظارها فقالت في سرها:

ـ والله لن ادعه يدنو مني ولو زهقت روحي!

فلما رأت حسن البصري خفق قلبها، وقالت متعجبة:

ـ اما تزال هنا يا سيدي، اخشى أن يدخل السائس الآن فيجدك..

فقال حسن البصري:

ـ وما شأن السائس بنا، وما الذي

يدخله علينا في مثل هذه الساعة؟

فقالت مضطربة حائرة:

ـ فمن هو زوجي؟ انت ام هو؟

فقال متودداً مبتسماً:

ـ يا حبيبتي انا زوجك، ونحن لم نحضره الا سخرية به، فان المواشط والمغنيات وقريباتك جميعاً، خفن عليك من كيد الحاسدين، فاستأجر ابوك هذا الرجل بعشرة دنانير ليرد عنك اذى العين الحاسدة.. وقد مثل الآن دوره ومضى لسبيله!

فتألق وجه الفتاة بشراً، وتراقص قلبها فرحاً، واقبلت نحوه في دلال واستحياء وهي لا تكاد تصدق انها نجت من الكابوس الذي كانت تنوء إلى لحظات قليلة بعبئه المرهق، وقالت له وهي تتنفس ملء صدرها وتضحك ضحكاً عذباً رقيقاً:

ـ لقد اطفأت ناري وأزلت همي واعدت إليّ نعيم الحياة..

وجلسا يتسامران ويتنادمان إلى منتصف الليل..





وتبدد الحلم الجميل

وجاء الجنيان العابثان قبيل الصبح، فوجدا العروسين نائمين، فضحكا طويلاً وقال الجني لصاحبته:

ـ هيا بنا نعيد هذا الشاب إلى مكانه لئلا يدركنا الصبح فانه يوشك أن يسفر وينتشر نوره في الآفاق..

فتقدمت الجنية وحملت حسن البصري على ظهرها وهو نائم، وحلقت به مع رفيقها في السماء، فبينما هما في الطريق إلى البصرة انبثق الصباح، ونادى المؤذنون حيّ على الفلاح.. فأذن الله لملائكته أن ترمي الجني بشهاب من نار فاحترق وهوى إلى الارض رماداً.. وخشيت الجنية أن يصيبها ما اصابه، فهبطت بحسن البصري حيث تناثر رماد رفيقها..

في دمشق

حدث ذلك فوق مدينة دمشق، وقد وضعت الجنية حسن البصري على مقربة من احد ابوابها، وتوارت عن الانظار..

ولما استيقظت المدينة وفتحت ابوابها، رأى الناس ذلك الشاب غارقاً في رقاده العميق، وهو في ثياب النوم الرقيقة الفضفاضة.. فعجبوا من امره وقال بعضهم:

ـ لا ريب في أنه قد خرج من الحانة لبعض شأنه، فغلب عليه السكر، فتاه عن المكان الذي يقصده ووصل إلى باب المدينة، فلما وجده مغلقاً رقد إلى جانبه..

وقال آخرون غير ذلك..

وتجمهروا حوله، وقد اشتدت حيرتهم وكثر لغطهم، فانتبه حسن البصري من نومه ببطء وتثاقل كأنه طيف شارد من حلم.. وبحث عن سيدة الحسن فلم يجدها إلى جانبه وانما وجد فوقه وحواليه وجوهاً متسائلة لا عهد له بها، ورأى أنه نائم في ثيابه الرقيقة على الارض الصماء وليس على السرير الوثير، وفي مكان لا يعرفه من قبل.. فانتصب على قدميه مذعوراً وناشد القوم بقوله:

ـ اين انا يا قوم، وما سبب اجتماعي بكم، وما حكايتي معكم؟

فقالوا وهم اكثر دهشة منه:

ـ لقد رأيناك هنا نائماً على الارض، ولا نعلم من امرك غير هذا، فاين كنت هذه الليلة؟

فقال ببراءة:

ـ كنت هذه الليلة في القاهرة!

فاجابه احدهم ضاحكاً:

ـ لا ريب في انك قد دخنت حشيشاً.. وقال آخر بهزء:

ـ انت مجنون.. اتبيت في القاهرة وتصبح في دمشق، أن هذا لعجب عجاب!

فقال وهو اكثر حيرة منهم:

ـ يا قوم، والله لم اقل الا صدقاً.. لقد بت ليلة البارحة في القاهرة وكنت نهار امس في البصرة!

فقال بعضهم لبعض:

ـ لا شك في أنه مجنون.. فيا اسفاً على شبابه!

وعاد احدهم يسأله من جديد، قائلاً له:

ـ فكّر جيداً في ما تقول.. كيف يكون المرء نهاراً في البصرة، وليلاً في القاهرة، وصباحاً في دمشق.. اجني انت ام نبي؟... لا ريب في انك قد حلمت حلماً

جميلاً خيّل اليك ذلك.

فأنشأ حسن البصري يفكر في امره، مخافة أن يكون ما حدث له حلماً عابراً او خيالاً نسجه الوهم.. غير أنه لم يلبث حتى افتقد ثيابه ونقوده، فقال:

ـ والله لم اقل الا حقاً.. حضرت امس عرساً في القاهرة، وقد جلوا العروس امامي، وكان خطيبها الاحدب جالساً إلى جانبي، ثم زفت إليّ بدلاً منه.. ولو كان ذلك حلماً فاين ثيابي ونقودي التي تركتها في مخدع العروس؟

ودخل حسن البصري المدينة، واخذ يجول في شوارعها ذاهل الفكر موزع النفس، فازدحم الناس من حوله وطفقوا يتبعونه اينما سار، حتى ضاق بهم فدخل اول حانوت عرض له، وكان حانوت طباخ معروف في المدينة بقوة الساعد وشدة البأس، فلما رأوه قد لاذ بهذا الحانوت تولاهم الخوف من صاحبه وتفرقوا عنه..

عند الطاهي

واقبل صاحب الحانوت على حسن البصري يرحب به ويسأله عن امره، فقص عليه خبره بكل تفاصيله، فقال الطاهي:

ـ أن ما جرى لك يا ولدي لم يحدث لاحد بعد، فاكتم امرك عن الناس وانتظر الفرج من الله.. وابق عندي في هذا الحانوت اتخذك ولداً لي فاني لم ارزق ولداً..

ففرح حسن البصري بما عرض الرجل عليه، واقام عنده يساعده في عمله، ويبذل جهده في سبيل مرضاته، لشدة ما احاطه به من عناية متوفورة وحب صادق.

ولم تنقض بضع سنوات حتى اشتهر حسن البصري في مدينة دمشق بأنه ابن ذلك الطباخ..

غير أن هذه السنين المتعاقبة لم تستطع أن تنتزع من قلب حسن ذكريات غالية عليه، كانت تستيقظ في نفسه بين الفينة والفينة فتثير فيها الالم الممض واللذة العميقة متمازجتين متداخلتين، تحمله مرة إلى البصرة حيث تعاني امه وطأة الفراق والوحدة والاضطهاد، وتنقله مرة إلى القاهرة حيث ترك المرأة التي احبها كل الحب واخلص لها كل الاخلاص، وأن كانت عشرته لها لم تدم سوى ليلة واحدة، ولكنها ليلة تعدل عمراً بكامله!



سيدة الحسن

اما سيدة الحسن فقد افاقت صبيحة عرسها مشرقة الوجه ضاحكة العين، فلم تجد حسن البصري إلى جانبها، فاعتقدت بأنه قد سبقها إلى النهوض فلم يشأ ايقاظها من احلامها المعسولة، وذهب يغتسل ولن يلبث حتى يعود..

وذكرت مفاجآت الامس، وكيف انقلبت تعاستها إلى سعادة غامرة واستحال يأسها إلى امل عظيم في الحياة، مذ عرفت انها انما زفت إلى حسن البصري، ذلك الشاب الذكي الجميل الذي شغفها حباً وبهر عقلها بحديثه البارع الممتع، وليس إلى السائس الاحدب، ذلك الكهل الغبي الدميم..

وضحكت سيدة الحسن ملء فمها للدعابة التي انطلت عليها، وتردد صدى ضحكتها الطروب في ارجاء المنزل فبعث الحياة والمرح فيها، واخذت تغني اغنية حلوة تشيد فيها بحظها السعيد وزواجها الموفق.. واذا بابيها شمس الدين يدخل عليها كئيباً مهموماً قد اضناه السهر والحزن، لنقمته على السلطان الذي اضطره إلى التخلي عن ابنته لرجل مشوه ومضطرب العقل، وقلقه عليها طوال الليل، حتى اعتزم أن يقتلها ويريحها منه..

الاب الغاضب

فلما رأت الصبية اباها مقبلاً هرعت نحوه تقبل يديه فرحة ووجهها يفيض نضارة ونوراً.. فانكر الرجل مرحها واستغرب بهجتها، وقال لها ساخطاً:

ـ انت فرحة بهذا الزواج يا لعينة!

فقالت في دلال والدهشة بادية على وجهها:

ـ ولم لا افرح به يا ابت.. فان زوجي احسن الناس جمالاً واكملهم عقلاً؟

فاشتد غضب الاب وصرخ بها:

ـ لعل هذا السائس قد اعجبك يا لعينة، ورضيت به بعلاً، واوهمت نفسك بانك سعيدة معه.. ورحت تزعمين فوق ذلك انه احسن الناس جمالاً واكملهم عقلاً.. الم تنظري إلى شيخوخته الفانية ودمامته الشنيعة وغباوته التي يضرب بها المثل.. ابتعدي عني فلست اريد أن ارى لك بعد اليوم وجهاً!

فقهقهت سيدة الحسن، وشاع المرح في اعطافها، وقالت:

ـ كفاك دعابة يا ابي.. فانت تعرف أن زوجي لا مثيل له بين الناس حسناً وذكاءً وعذوبة حديث.. ولكنك تريد أن تسمع هذا القول مني لتطمئن عليّ وتغتبط لسعادتي!

فجن جنون الرجل، وحسب انها قد اصيبت في عقلها، وانشأ يصرخ حانقاً غاضباً:

ـ اي زوج تعنين؟.. وكيف تزعمين اني اعرف فيه الحسن والذكاء، وانا لم انم ليلتي هذه اشفاقاً عليك لما اعرف فيه من غباوة وبلادة حس؟ لقد ظل سائساً عندي نيفاً وعشرين عاماً لم يقل خلالها كلمة واحدة تدل على أنه انسان كالاخرين، حتى اهملت شأنه وتركته يعيش مع البهائم وكأنه منها لا يفضلها الا بمزية النطق!

ايهما المجنون

فاستمرت سيدة الحسن في ضحكها ومرحها، وقالت له معاتبة:

ـ كفاك دعابة يا ابتاه، وكفاني ما عانيته امس من الم وخزي، وما لقيته من ضحك الناس عليّ وتعبيري بهذا السائس الذي لا يساوي قلامة ظفر من زوجي.. فلا تهزأ بي، ولا تذكرني بذلك الاحدب بعد الان!

فصرخ بها مستغرباً ما تقول:

ـ ويلك.. اي زوج تعنين؟ اليس السائس الاحدب زوجك؟

فقالت بعتاب رقيق:

ـ بالله عليك لا تذكره.. فقد كفاك مزاحاً.. فما كان السائس الا مستأجراً بعشرة دنانير لتمثيل هذا الدور البغيض، وقد قبض اجرته ومضى لشأنه.. ولما انفض الناس اقبل زوجي نحوي فعانقني

واخبرني كل شيء.. فضحكت طويلاً وسررت من نهاية الخدعة بقدر ما حزنت في اولها.

فاحتدم غضبه وقال:

ـ يا لعينة، ما هذا الذي تقولين، هل عانقك رجل لم يعقد له عليك؟..

فاشتد المها وقالت:

ـ يا ابت، لقد مزقت كبدي.. حسبك تثاقلاً عليّ، فان زوجي قد ذهب ليغتسل ولن يلبث حتى يعود فتتحقق من الامر.

الوزير والسائس في الحمام

فهرع الوزير شمس الدين إلى الحمام ليرى الرجل الذي تعنيه، فوجد السائس الاحدب وجهه إلى الحائط ورأسه على الارض ورجلاه تتأرجحان في الهواء، فصرخ به:

ـ ويلك ماذا تصنع هنا، ولماذا تقف على رأسك بدل أن تقف على قدميك؟

فحسب السائس أن الجني هو الذي يكلمه فقال له:

ـ يا سيد العفاريت.. الست انت الذي اوقفتني هكذا؟!..

فكاد الوزير يفقد صوابه لما يسمع من الغاز لا يدرك لها معنى، وصرخ بالرجل:

ـ ويحك.. انظر إليّ.. وكلمني بكلام افهمه!

فطفق السائس يرتجف واجابه دون أن ينظر اليه:

ـ يا سيد العفاريت.. اقسم بكل مقدس انني لن اتزوج سيدة الحسن ولن اتزوج اية امرأة اخرى ما بقيت على قيد الحياة!

فقال الوزير شمس الدين:

ـ احسنت.. احسنت.. ولكن من الذي تزوج سيدة الحسن اذن؟

اقسم لك بانني لم اغادر هذا المكان منذ وضعتني فيه وحظرت عليّ الخروج منه..

فمن الذي دخل على سيدة الحسن؟

ـ لست ادري يا سيد العفاريت.

فصرخ به الوزير:

ـ اي عفاريت.. انني لست عفريتاً ايها الرجل.. انا الوزير شمس الدين ابو سيدة الحسن.

فتنفس السائس الصعداء وقال:

اذا كنت الوزير شمس الدين حقاً، فبادر إلى الخروج من هنا قبل أن يأتيك العفريت.

ـ اي عفريت تعني؟

ـ العفريت الذي فعل بي ما ترى ليمنعني من زواج سيدة الحسن.. كأنه لم ينقصني الا الزواج بعشيقة العفريت.. الا قبحاً لمن زوّجني بها ولمن كان السبب فيها..

ـ هيا فانهض من وقفتك الشنيعة هذه وغادر هذا المكان حالاً.

ـ هل جننت حتى اغادر هذا المكان بغير اذن العفريت؟ لقد انذرني بالقتل أن انا غادرته قبل مطلع الشمس!



ـ أن الشمس قد طلعت منذ ساعات، فتعال حدّثني بما جرى لك.

فوقف السائس على قدميه، وتمطى طويلاً، وتنفس ملء رئتيه، ثم شرع يروي للوزير ما جرى له وهو يتأوه ويتنهد ويملس اعضاءه ليرى هل اصيب بسوء، وختم حديثه بقوله:

ـ الا قبّح الله العروس ومن زوّجني بها!

اكتشاف السر

فانتهره الوزير وصرفه، وعاد إلى ابنته وهو حائر في امرها، فقال لها برفق:

ـ يا ابنتي.. اخبريني بكل ما حدث لك؟

فقالت وقد ضاقت باسئلته ذرعاً:

ـ أن الرجل الذي تزوجته البارحة شاب راجح العقل موفور القوة حلو الصفات لم ار في حياتي من يضاهيه جمالاً وذكاءً.. وأن لم تصدقني فها هي عباءته وعمامته وثيابه..

فنظر الوزير إلى ثياب حسن البصري، وأنشأ يتفحصها دهشاً، فوجد بينها كيساً فيه الف دينار، ورأى حرزاً

مخيطاً في العمامة ففتقه فاذا فيه ورقة فأخذ يقرأها وقد ارتسمت على وجهه امارات التعجب العظيم، ثم التفت إلى ابنته في فرح غامر وقال وهو لا يكاد يصدق نفسه:

ـ اتعرفين بمن اقترنت يا ابنتي؟

فنظرت اليه بفضول وقالت بلهفة:

ـ كلا.. من هو؟

فقال وقد بدت عليه السعادة والطمأنينة:

ـ انه ابن عمك حسن بدر الدين.. ابن اخي نور الدين.. وهذا مهرك وقدره الف دينار.. لقد ارسله الله بعد دهر طويل ليكون زوجاً لك كما شئت انا وشاء ابوه، كي تطمئن نفسي في شيخوختي ويستريح ضميري واموت هادىء البال قرير العين!

وتلا عليها ما جاء في الورقة التي وجدها في الحرز، وفيها نبأ رحيل اخيه نور الدين عن القاهرة ووصوله إلى البصرة وزواجه بابنة وزيرها وارتقائه إلى منصب الوزارة وولادة ابنه حسن بدر الدين.. وأنشد قائلاً:

اری آثارهم فأذوب شوقاً

واسكب في مواطنهم دموعي

واسأل من بفرقتهم رماني

يمنّ عليّ يوماً بالرجوع

ثم قال وهو يعجب من تصرفات الايام واحكام القدر:

ـ لقد جرت الامور بتوافق غريب وتدبير عجيب كما تمنينا انا واخي نور الدين، فتزوج على بعد المسافة بيننا وانقطاع الصلة، في اليوم الذي تزوجت فيه.. ثم رزق صبياً ورزقت بنتاً كما اردنا وجئتما انت وهو إلى العالم في يوم واحد مثلما توقعنا.. وها انت قد اقترنت به في ظروف عجيبة ما تزال تكتنفها الاسرار، دون علمي وبرغم ارادة السلطان.

اختفاء الزوج

الا أنه ما لبث حتى هتف في حيرة وقلق:

ـ ولكن اين عقد الزواج؟.. الم يعقد باسم السائس اللعين؟

فهرعت سيدة الحسن إلى صندوق مجوهراتها فاخرجت العقد الذي سلمها اياه الشيوخ في الليلة الفائتة، وفتحته بيد

مرتجفة، ونظرت فيه قلقة مترددة، واذا بها تصرخ بغبطة عظيمة:

ـ انه هو يا ابتاه.. لقد كتب العقد باسمه.. وهذا توقيعه: حسن بدر الدين!

وناولته العقد فوجد انه قد كتب باسم ابن اخيه حسن بدر الدين، ومهر بتوقيعه، فازدادت دهشته من تصرف الاقدار ذلك التصرف العجيب، وهتف من اعماق قلبه:

ـ الا شكراً لك يا رباه فقد رحمت شيخوختي واعدت الطمأنينة إلى قلبي..

والتفت إلى ابنته قائلاً في حيرة:

ـ ولكن اين هو يا ابنتي.. اين زوجك وابن عمك لاقبله واباركه واكحل عيني بمرآه؟!

فقالت وهي اشد حيرة منه:

ـ لست ادري والله.. فقد افقت في رأد الضحى فلم أجده إلى جانبي في السرير.. ولكني وجدت ثيابه فقلت أنه قد دخل إلى الحمام ولن يبطىء حتى يعود.. ولكن ها قد مضت ساعة وبعض الساعة وهو لم يعد بعد.. فاين هو وماذا حدث له؟

وهرعا يبحثان في انحاء القصر فلم يجداه.. ومضى الوزير إلى السلطان واخبره بما جرى لابنته فتعجب من حديثه وفارقه غضبه عليه، وامر بالبحث عن حسن بدر الدين في انحاء المملكة.. ولكن عبثاً بحث الوزير وابنته وعبثاً بحث الملك ورجاله.. فان حسن بدر الدين قد اختفى ولم يبد له اي اثر.

وعاود الوزير شمس الدين الحزن والهم، وامر بان تغلق الغرفة التي نام فيها ابن اخيه وان تترك الاشياء التي فيها كما كانت في تلك الليلة الهاربة من عالم الاحلام!





فتى يبحث عن أبيه

لم تنقض بضعة اسابيع على تلك الليلة العجيبة، حتى بدت آثار الحمل على سيدة الحسن.

وما هي الا تسعة اشهر مضت حتى وضعت غلاماً صبوح الوجه رقيق القسمات، ابى جده الا أن يسميه عجيباً لما اكتنف مولده من احداث عجيبة!..

ونما عجيب في كنف جده شمس الدين وامه سيدة الحسن التي وجدت فيه عزاء لها عن ابيه، وهو الزوج الذي لم تكد تتعرف عليه حتى فقدته، تاركاً في قلبها حباً دفيناً لا تزيده الايام الا قوة ولوعة..

الفتى عجيب

ولم تقص المرأة على ابنها تلك القصة الفاجعة التي وسمت حياتها بميسمها الصارخ، فدرج وهو لا يعرف له اباً غير جده الحادب عليه، حتى اعتقد بانه ابوه ثم تحوّل ذلك الاعتقاد فيه إلى يقين.

وقد كان هذا اليقين خليقاً بان يرافق الفتى عمره، فلا يضيره في ذلك شيء، بل يسبغ عليه ظلال الحنان الذي ينشده الابن في كنف ابيه، لولا أن الاقدار التي تركت في كل مرحلة من حياة هذه الاسرة اثراً بارزاً من آثار عبثها، كانت تخبىء لها

مفاجأة جديدة..

ذلك أن الفتى عجيب قد كبر وايفع. واخذ يختلف إلى المدرسة ليتلقى فيها مبادىء العلوم، فبينما هو يلعب في فنائها يوماً مع اترابه الطلاب، اختصم واياهم في من تكون له الرئاسة عليهم، فاستطال عليهم وذكرهم بانه ابن الوزير شمس الدين الذي لا يقدم السلطان على امر الا بمشورته، فغضبوا وتفرقوا عنه ساخطين.. ثم اقبلوا يشكونه إلى المعلم زاعمين أنه يشاكسهم في كل امر، ولا يفتأ يعاندهم ويفرض رأيه عليهم، لان اباه اكبر مقاماً من آبائهم واعلى مرتبة..

فقال لهم المعلم، وكان رجلاً حقوداً حسوداً يضمر الشر لعجيب لما يرى من نباهته وذكائه:

ـ ساعلمكم شيئاً تقولونه له فيمتنع عن الحضور إلى المدرسة. فسروا بذلك وهتفوا قائلين:

ـ وما هو ذلك الشيء ايها المعلم؟

فقال في خبث ومكر:

ـ اذا جاء غداً فاجلسوا معه، وليقل بعضكم لبعض: تعالوا نلعب بالكرة والصولجان، على أن يسمي كل من يريد الاشتراك في اللعب اسم امه واسم ابيه، ومن لا يعرف اباه وامه لا يلعب معنا!..

فقال الاطفال ببراءة:

ـ واذا قال لنا انا ابن الوزير شمس الدين!

ـ فقولوا له أنه ليس بأبيك!

فلما اتى عجيب في اليوم التالي إلى المدرسة كعادته، التف زملاؤه من حوله، وقال بعضهم لبعض:

ـ سنلعب بالكرة والصولجان، وعلى كل من يريد مشاركتنا في اللعب أن يسمي اسم امه واسم ابيه، فنحن لا نريد أن يشاركنا في اللعب فتى لا يعرف ابويه!

فقال احدهم:

ـ اسمي ماجد، وامي علوية، وابي عز الدين.

وقال آخر:

ـ اسمي احمد، وامي فاطمة، وابي فاضل، ولما جاء دور عجيب قال مزهواً:

ـ اسمي عجيب، امي سيدة الحسن، وابي شمس الدين وزير مصر.

فقالوا هازئين:

ـ أن الوزير ليس بابيك.

فاعترض بدهشة واصرار:

بل انه ابي..

فانشأوا يضحكون منه، ويصفقون بايديهم، ويعيرونه بقولهم:

- لا يعرف اباه.. لا يعرف اباه..

وصرخ به احدهم:

- اليك عنا.. فنحن لا نريد أن يشاطرنا اللعب فتى لا يعرف اباه!

ثم تفرقوا عنه ضاحكين هازئين.. فاقبل يشكوهم إلى المعلم، فقال له هذا وهو يتظاهر بالعطف عليه:

- نحن نعرف أن الوزير جدك وليس اباك.. اما ابوك فليس يعرفه احد، لأن السلطان كان زوّج امك للسائس الاحدب، ولكنها انفصلت عنه منذ ليلة العرس!

من ابي؟

فغادر عجيب المدرسة لساعته، وذهب تواً إلى امه، واخبرها بما حدث له وهو يشهق بالبكاء.. فتفطر قلب الام شفقة عليه وقالت له:

- لا تبك يا ولدي فان اباك وزير مصر!

فقال لها متوسلاً:

- لا تكذبي علي فان الوزير ابوك انت لا ابي، فمن هو ابي؟

فتضاعف الالم في قلب سيدة الحسن، فتركته وهرعت إلى مخدعها، وانشأت تبكي بدموع غزيرة، وهي تردد بلوعة ساحقة:

اهاجوا الوجد في قلبي وساروا
وقد شطت بهم تلك الديار
وبان تجلدي من حيث بانوا
وفارقني هجوع واصطبار
وقد ساروا ففارقني سروري
وقد عدم القرار فلا قرار
واجروا بالفراق دموع عيني
فادمعهم ببعدهم غزار
اذا ما اشتقت يوماً ان اراهم
وزاد لهم حنين وانتظار
يمثل شخصهم في وسط قلبي
غرام واشتياق وافتكار
ايا من ذكرهم اضحى دثاري
ومالي غير ودهم شعار
احبّتنا إلى كم ذا التمادي
وكم هذا التباعد والنفار

وبينما هما على هذه الحال، دخل الوزير شمس الدين فوجد حفيده يبكي على المقعد حيث تركته امه، فسأله عما يبكيه فلم يجبه الا بالنحيب والشهيق، ومضى يستوضح امه الخبر فوجدها تبكي احر بكاء، فتمزق قلبه لوعة عليهما، وسأل سيدة الحسن عما يبكيهما فاخبرته بما اتفق لابنها مع رفاقه، فطفرت دموعه من عينيه، ودنا من عجيب فعانقه واخبره بقصة ابيه، ثم مضى إلى السلطان فاستأذنه بالسفر إلى البصرة للبحث عن اخيه وابنه، فاذن له وزوده برسائل إلى جميع السلاطين يرجوهم فيها مساعدته في العثور على ابن اخيه واخذه من اي مكان وجد فيه..

البحث عن حسن البصري

اعتزم الوزير شمس الدين أن يجوب البلاد شرقاً وغرباً، فلا يستقر له قرار، ولا يسمح لنفسه بقسط من الراحة، حتى يجد ابن اخيه ويعود به إلى القاهرة، ليعيش مع زوجه وابنه تحت سقف واحد آمنين راغدين..

وأبت سيدة الحسن وابنها عجيب الا أن يرافقاه في رحلته الشاقة، فتجهزوا للسفر جميعاً، وغادروا القاهرة قاصدين البصرة، فمروا في طريقهم بمدينة دمشق، فوجدوها ذات اشجار وارفة وأنهار مطردة وزهور ورياحين، كما قال فيها الشاعر:

من بعد يومي في دمشق وليلتي
حلف الزمان بمثلها لا يغلط
بتنا وجنح الليل في غفلاته
ومن الصباح عليه فرع اشمط
والطلّ في تلك الغصون كأنه
درّ يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة
والريح تكتب، والغمام ينقط

فنزل الوزير في ميدان الحصى، ونصب خيامه فيه، وقال لغلمانه:

ـ سنبقى هنا يومين، فليقض كل منكم حوائجه ويتزود بما يحتاج إليه قبل موعد الرحيل.

فدخل الغلمان المدينة وتفرقوا فيها، هذا يبيع وهذا يشتري، وهذا يدخل الحمام، وهذا يزور جامع امية الذي يعد من اجمل الجوامع في الدنيا..

وذهب عجيب مع خادمه الاسود إلى



السوق يتفرج ببضائعها الجميلة المتنوعة، حتى وقف على حانوت الطاهي الذي التجأ إليه ابوه حسن البصري منذ بضعة عشر عاماً اذ ضاق ذرعاً بالناس الذين تجمهروا حوله وتبعوه، يوم تركته الجنية نائماً في غلالة رقيقة على أحد ابواب دمشق..

الاب والابن

وكان الطاهي صاحب الحانوت الذي حمى حسن البصري وتبناه، قد توفي وترك له كل ما يملك، فخلفه في حانوته وتابع عمله فيه.. فلما رأى الفتى عجيباً قد وقف على باب الحانوت شعر بالحنين اليه واحس كأن قلبه يثب من صدره لمرآه، فتقدم منه وقال له:

هل لك يا سيدي أن تتكرم عليّ بدخول حانوتي وتتفضل فتأكل من طعامي؟

ودمعت عيناه وهو يحادثه وقد استفاقت في نفسه ذكريات مبهمة

ومشاعر غامضة.. فخالج عجيباً ميل شديد إلى الرجل وقال لخادمه:

ـ أن قلبي قد مال إلى هذا الطاهي.. ويبدو لي أنه قد فارق ولداً له فهو حزين عليه وقد انس بنا.. فتعال نحسن إليه ونقبل ضيافته لعل الله يجازينا خيراً فيجمع شملنا بابينا..

فاخذ الخادم يمانعه في الدخول قائلاً:

ـ هل يليق بك وانت ابن الوزير أن تأكل في حانوت طباخ؟!

فنظر اليه حسن البصري بالم وقال له متوسلاً:

ـ يا رجل.. لماذا لا تحسن اليّ بدخولك إلى حانوتي.. يا من كأنه قسطل اسود وقلبه ابيض.. يا من قال فيه بعض واصفيه..

فضحك الخادم وقال:

ـ اي شيء قال.. بالله قل واوجز..

فانشد حسن البصري:

لولا تأدبه وحسن وفائه

ما كان في دار الملوك محكماً

وعلى الوليد، فيا له من خادم

من حسنه خدمته املاك السما

فقهقه الخادم ودخل الحانوت مع الفتى عجيب، فملأ حسن البصري اناء من حب الرمان مع اللوز والسكر، فأكلا منه بشهية واستمتعا به كثيراً..

ثم قال الفتى عجيب لحسن البصري:

ـ كل معنا يا عم لعل الله يجمعنا بمن نريد.

فقال حسن البصري مشفقاً:

ـ يا ولدي اعلى صغر سنك بليت بفرقة الاحباب؟

فقال عجيب متنهداً من قلب جريح:

نعم يا عم لقد احترق قلبي بفراق ابي، وقد خرجت انا وجدي نطوف البلاد باحثين عنه..

ودمعت عيني الفتى الكحيلتين، فتأثر الطاهي وازداد المه، وقال والدموع تنهمر على خديه:

ـ لا فرّق الله بين قلبين متحابين... وجمع شمل كل حبيبين متباعدين!

ثم خرج الفتى وخادمه، بعد أن ودعا الطاهي وشكرا له كرمه واتجها شطر مضارب الوزير شمس الدين.

جرح على جرح

ووقف حسن البصري يشيعهما حزين القلب دامع العين، فما كادا يغيبان عن نظره حتى احس كأن روحه قد فارقت جسده لترافق ذلك الفتى في مطافه الشاق بحثاً عن ابيه..

وما لبث أن تبعهما مسرع الخطى حتى حاذاهما، فأنشأ يسير الهوينا على مقربة منهما، وقد سمرت نظراته بالفتى كأن سحراً آسراً قد جذبه إليه وعقد قلبه على محبته فلم يعد يستطيع الافتراق عنه.

والتفت الخادم فرآه فقال له غاضباً:

ـ ما لك تتبعنا؟

فقال متلعثماً مضطرباً:

ـ أن لي حاجة في المدينة وقد اردت أن ارافقكما حتى ابلغ المكان الذي اقصده..

ـ هذا الذي كنت اخاف منه.. لقد اكلنا لقمة كانت شؤماً علينا، فها هو الطاهي يتبعنا من مكان إلى آخر!

فحنق الفتى وصعد الدم إلى وجهه وقال للخادم:

ـ دعه يسير في هذه الطريق العامة، فاذا خرجنا إلى خيامنا ورأينا أنه لا يزال يتبعنا، طردناه..

وسارا حتى خرجا من المدينة واتجها شطر خيامهما، فاذا حسن البصري يتبعهما إلى ميدان الحصى وينظر إليهما بعين والهة وقلب كسير، فغضب عجيب وظن في الطاهي الخيانة، فتناول حجراً وضربه به فسال الدم على وجهه ووقع مغشياً عليه.

ولما عاد إلى حسن البصري رشده، نهض يتحامل على نفسه، ومسح الدم عن وجهه، وقال في نفسه:

ـ انني انا الذي ظلمت الفتى اذ اغلقت حانوتي وتبعته حتى ظن اني خائن غادر.

وعاد إلى المدينة وهو يتذكر ماضيه وحاضره، ويبكي على فراق امه وزوجه ويردد يائساً:

لا تسأل الدهر انصافاً

فتظلمه

فلست فيه ترى يا صاح

انصافاً

خذ ما تيسر والق الهم ناحية

لا بد من كدر فيه وأن صافى

في بيت نور الدين

اما الفتى عجيب فقد تابع طريقه إلى الخيام، ثم ارتحل مع جده وامه ومن معهم جميعاً، وما زالوا يشخصون من مدينة إلى اخرى، ويبحثون عن حسن بدر الدين في كل مكان، حتى بلغوا مدينة البصرة، فدخل الوزير شمس الدين من فوره، على سلطانها وسأله عن اخيه نور الدين، فقال له السلطان:

ـ أن اخاك نور الدين قد انتقل إلى رحمة الله منذ دهر طويل، اما ابنه حسن بدر الدين فانه لم يمكث في هذه المدينة بعد وفاة ابيه الا شهراً واحداً فارقنا على اثره ولم نعرف المكان الذي ذهب إليه.. غير أن امه زوجة اخيك ما تزال عندنا لانها ابنة وزيري الكبير، وهي تسكن قصر ابيها حيث عاش اخوك نور الدين..

فهرع شمس الدين إلى قصر الوزير ليرى زوجة اخيه، فلما دخله ذكر اخاه وكيف غادر القاهرة ناقماً عليه، فجعل يقبل جدران القصر وينشد دامع العين:

امر على الديار ديار صحبي
اقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

ثم دخل إلى بهو كبير فوجد باباً معقوداً بالحجر مفروشاً بالرخام الملون، ورأى اسم اخيه منقوشاً على ذلك الباب ومرصعاً بالذهب، فقبّل الاسم وبكى وقال:

استخبر الشمس عنكم كلما طلعت
واسأل البرق عنكم كلما لمعا
ابيت والشوق يطويني وينشرني
في راحتيه ولا اشكو له وجعاً
احبابنا أن يكن طال المدى فلكم
قد قطع القلب مني بعدكم قطعا
فلو مننتم على طرفي برؤيتكم
لكان احسن شيء بيننا وقعا
لا تحسبوا انني بالغير مشتغل
أن الفؤاد لحب الغير ما وسعا

وسار حتى بلغ القاعة التي تقيم فيها زوجة اخيه، وكانت هذه الزوجة المفجوعة والام الرؤوم قد يئست من رجوع ابنها حسن بدر الدين فشيدت له في وسط القاعة الكبرى ضريحاً من الرخام، وأنشأت تبكي عليه ليلاً ونهاراً..

فحياها شمس الدين واعلمها أنه اخو

زوجها، واخبرها بقصته معه، وقال لها أن ابنها حسن بدر الدين قد اقترن بابنته منذ نيف وعشر سنين واختفى عند الصباح، وان ابنته قد رزقت منه ولداً اسمه عجيب، وقال لها:

- أن عجيباً معي الان وهو ولدك وولد ولدك من ابنتي سيدة الحسن..

فلما علمت أن ابنها حي، وانه قد رزق ولداً هطلت دموعها على خدها الذاوي الذي ذهبت الايام والالام بنضارته ولونه وانشدت:

لله در مبشري بقدومهم

فلقد اتى باطايب المسموع

لو كان يقنع بالخليع وهبته

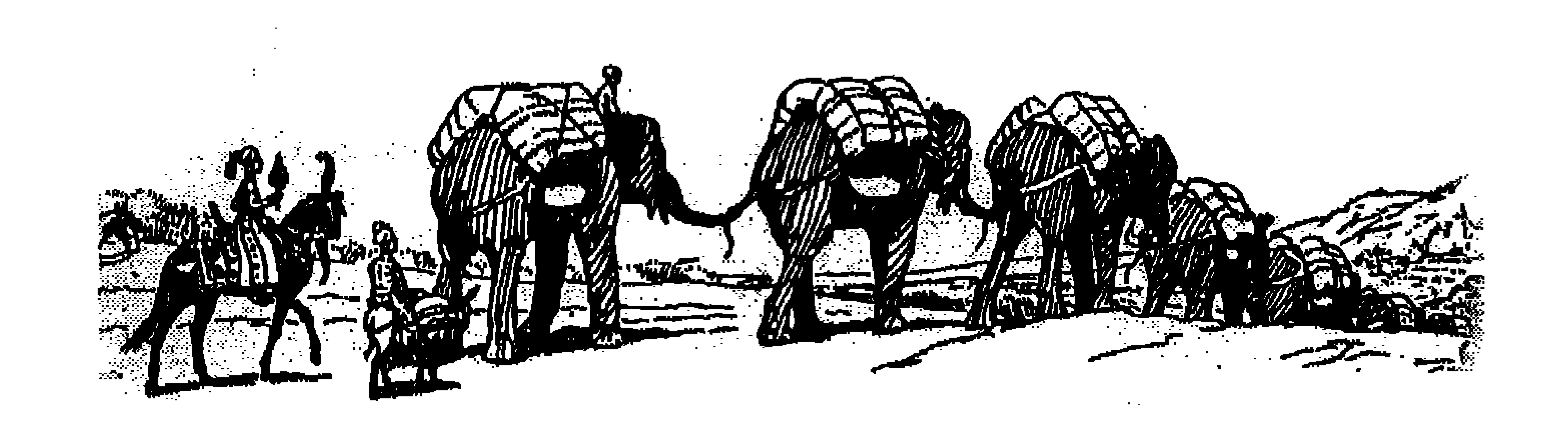
قلباً تقطع ساعة التوديع

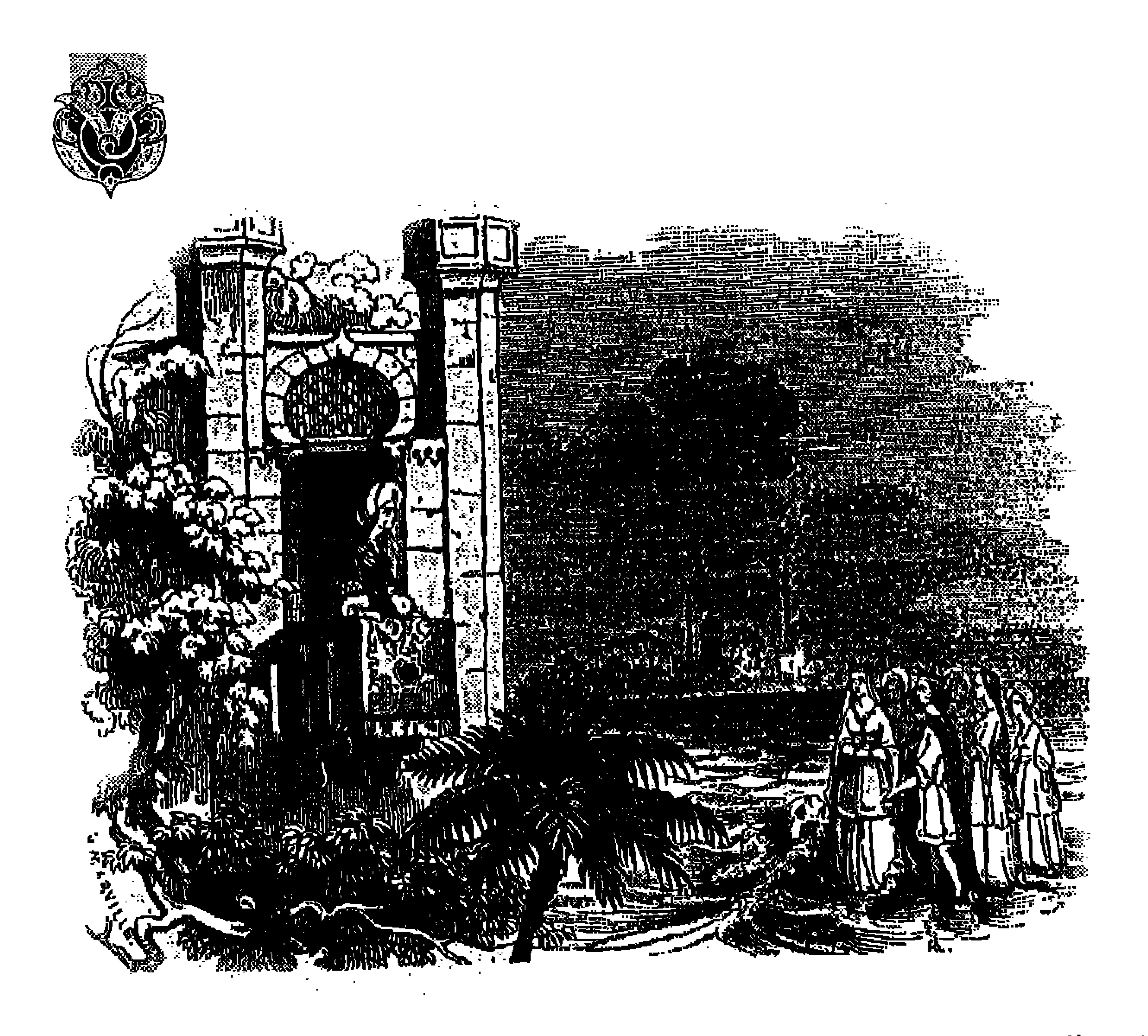
ثم ارسل احد خدمه لاحضار عجيب، فلما رأته الام الملتاعة عرفت فيه ملامح ابيه في فتوته المرحة وشبابه الطروب، فاخذت تعانقه وتبكي من اعماق قلبها الحزين.. فقال لها الوزير شمس الدين:

- ما هذا وقت بكاء، بل وقت تجهيزك للسفر معنا إلى مصر، عسى الله أن يجمع شملنا وشملك بولدك حسن..

ففرحت بهذه الدعوة التي تنتشلها من بين براثن اليأس القاتل والوحدة المفجعة، وتهيب بها إلى الامل والحياة.. ونهضت من فورها فاعدت امتعتها وجهزت نفسها لمرافقة القافلة الصغيرة التي تبحث عن ابنها الحبيب.

وارتحلوا جميعاً يقصدون مصر بطريق الشام.





اللقاء السعيد

كان لا بد للوزير شمس الدين من أن يمر بدمشق مرة ثانية، في طريق عودته إلى القاهرة، فلما وافى رياضها الغناء وبساتينها المعطار وغوطتها الوارفة الظلال؛ ضرب خيامه في ميدان الحصى شأنه في المرة الاولى، وتفرق رجاله في المدينة كل يسعى في غرضه..

ومس هاجس رفيق قلب الفتى عجيب، فقال لخادمه الاسود وقد شعر بشوق خفي يدفعه لرؤية الطاهي الذي احبه واستضافه:

ـ هيا ننزل إلى السوق فنرى ما حدث لذلك الطاهي الكريم الذي أكلنا طعامه وشججنا رأسه، فأسانا اليه وقد احسن الينا..

ففكر الخادم قليلاً ثم قال:

ـ سمعاً وطاعة.

عند الطاهي حسن

وانطلقا فدخلا المدينة، وسارا حتى وصلا حانوت الطاهي، فوجداه واقفاً وسط الحانوت، فلما رآه عجيب ورأى اثر

الجرح في جبينه، خامره الحنين اليه والشفقة عليه، فقال له:

ـ السلام عليك يا هذا.. اعلم اني قد ندمت على ما فعلت معك فاعذرني على ما بدر مني..

فخفق قلب الرجل واراد أن يجيبه فامتنع الكلام عليه لفرط فرحه وتأثره، فأنشد قائلاً:

تمنيت من أهوى فلما رأيته
ذهلت فلم املك لساناً ولا طرفا
واطرقت أجلالاً له ومهابة
وحاولت اخفاء الذي بي فلم يخفا
وكنت معداً للعتاب صحائفاً
فلما اجتمعنا ما وجدت ولا حرفا

ثم قال معتذراً:

ـ اعلم ايها الفتى انني ما نظرت إليك مرة الا خفق قلبي لسبب لا اعلمه، ولم اتبعك ذلك اليوم الا لما خامرني نحوك من حنان عظيم اشبه بحنان الاب نحو ابنه..

وكان الطاهي قد صنع طعاماً من حب الرمان، فدعاهما إلى مشاركته فيه، فقال عجيب ضاحكاً:

ـ لقد اكلنا عندك مرة لزمتنا بعدها وأبيت أن تفارقنا، ونحن لا نأكل الآن طعامك الا اذا حلفت بانك لن تخرج وراءنا ولا تتبعنا، ونحن مقيمون هنا اسبوعاً كاملاً، وقد نزورك خلاله غير مرة..

فسرّ الطاهي واقسم لهما ألا يتبعهما متى غادرا حانوته، واقبلوا يأكلون جميعاً طعامه الفاخر، والرجل ينظر إلى الفتى مبهوتاً لا يدري اي جاذب خفي يجذبه إليه. فقال له عجيب مازحاً:

ـ الم اقل لك انك ثقيل.. فحسبك لا تطل النظر إلى وجهي..

فاجابه حسن البصري منشداً:

لك في القلوب سريرة لا تظهر
مطوية وحديثها لا ينشر
يا فاضح القمر المنير بحسنه
وبوجهه افتضح الصباح المسفر
لي في سناك امارة لا تنقضي
ومعاهد ابداً تزيد وتكثر
أأذوب من حرقي ووجهك جنتي
وأموت من ظمئي وثغرك كوثر؟

وأخذ حسن البصري يطعم عجيباً مرة والخادم الاسود مرة، حتى اكتفيا، ونهضا، فسكب على ايديهما الماء،



ومسحها بمنديل من حرير، ورش عليها ماء الورد، وخرج من الحانوت وعاد بقلّة شراب معطر بالمسك، وقدمها بين ايديهما قائلاً:

- اتما احسانكما

طعام الجدة

فشربا من ذلك الشراب اللذيذ، وخرجا وقد شبعا اكثر من عادتهما، واسرعا في العودة إلى الخيام، ودخل الفتى عجيب على جدته فعانقته وتذكرت اباه حسن بدر الدين فتنهدت من كبد مقروحة، وقالت له:

- اين كنت يا ولدي؟

وخشي أن يخبرها بامر الطاهي فقال لها:

- كنت اتفرج بمدينة دمشق!

فاحضرت له طعاماً ونادت خادمه الاسود ليأكل معه، وقالت له:

- لقد هيأت لك اليوم لوناً من الطعام افضله على كل طعام آخر ولا يجاريني في تحضيره احد..

فنظرا فوجدا صحناً من حب الرمان محضراً على طريقة الطاهي الذي اكلا عنده منذ ساعة، ولكنه لا يعد له في

حسن صنعه وطيب طعمه.. فذاق كل منهما لقمة منه وأبعداه عنهما قائلين:

ـ ما هذا الطعام الرديء؟

فقالت الجدة معاتبة:

ـ يا ولدي اتعيب طعامي؟..

فقال عجيب ببراءة:

ـ اني لم استسغه يا جدتي..

فقالت غاضبة:

ـ لقد حضرته لك بنفسي، ولا يحسن احد تحضير هذا اللون من الطعام كما احضره انا غير ابني حسن بدر الدين، فقد كان يحبه حباً جماً وتعلم صنعه مني ففاقني في تجهيزه وتفنن فيه..

اي الطعامين أفضل؟

فساءه أن يغضب جدته وقال لها مترفقاً:

ـ يا جدتي، لقد رأينا الساعة طاهياً في المدينة من عامة الناس، صنع طعاماً كطعامك ولكنه اطيب منه مذاقاً والذ نكهة، وأن رائحته لينفتح لها القلب.. واصدقك يا جدتي أن قلت أن طعامك لا يساوي بالنسبة إليه شيئاً.

فامتعضت الجدة وصرخت بالخادم الاسود:

ويلك يا مسعود، لقد افسدت ولدي ودخلت به إلى حوانيت الطباخين!

فخاف الخادم وانكر ذلك قائلاً:

ـ اننا لم ندخل الحانوت بل مررنا بها.. ولم نذق الطعام بل شممنا رائحته الزكية.

فقال عجيب بعناد:

ـ بل دخلنا الحانوت واكلنا من طعام صاحبه وهو افضل من طعامك هذا.

فمضت الجدة إلى أخي زوجها واوغرت صدره على الخادم الذي ادخل حفيدها حانوت طباخ من عامة الناس.. فاقبل الوزير شمس الدين وقال للخادم منتهراً:

ـ لم دخلت بولدي حانوت الطباخ؟ فخاف الخادم وقال:

ـ ما دخلنا حانوتاً ولا اكلنا شيئاً...

الا أن عجيباً اصر على عناده قائلاً:

ـ بل دخلنا واكلنا من حب الرمان حتى شبعنا ثم سقانا الطاهي شراباً مثلجاً معطراً...

فازداد غضب الوزير على الخادم،

وسأله مرة ثانية فانكر، فقال له:

ـ أن كنتما لم تأكلا حقاً فكلا الآن من هذا الطعام امامنا..

فدنا الخادم من الطعام، وحاول أن يأكل منه، ولكنه ما لبث حتى القى اللقمة التي غمسها وقال:

ـ يا سيدي.. انني شبعان لكثرة ما اكلت البارحة!

فعرف الوزير كذبه، وايقن بانه قد اكل مع عجيب في حانوت الطاهي، فامر رجاله بان يطرحوه ارضاً، وانهال عليه بالضرب الوجيع وهو يبكي ويستغيث، فقال له شمس الدين:

ـ لن اكف عن ضربك حتى تحدثني بحقيقة الامر.

فقال وقد اشتد به الالم:

ـ يا سيدي، اقسم لك بان اقول الصدق.

فكف عن ضربه وسأله عما حدث لهما، فقال:

ـ لقد دخلنا حانوت الطاهي حقاً، وكان يحضر طعاماً من حب الرمان، فدعانا إلى مشاركته بالطعام فأجبنا دعوته، واقسم لك بانني لم اذق في حياتي اطيب من طعامه.. واين منه هذا الطعام الكريه!

فكبر ذلك على الجدة وقالت غاضبة:

ـ لا بد من أن تذهب الساعة فتحضر لنا قليلاً من طعام هذا الطباخ ليذوقه سيدك ويتحقق من كذب قولك وقول عجيب...

مصادفة تكشف السر

فمضى الخادم إلى حانوت حسن البصري واشترى قليلاً من طعامه وعاد به، فلما رأته الجدة وذاقته صرخت ووقعت مغشياً عليها، فبهت الوزير وعجيب والخادم، وهرعوا إليها يعالجونها بالمنعشات حتى افاقت، فلما نظرت وقد تألبوا حولها حائرين مرتاعين، قالت لهم في لهفة عظيمة:

ـ أن كان ولدي حسن بدر الدين على قيد الحياة، فما صنع هذا الطعام الا هو.. أنه هو لا شك فيه.. فان هذا اللون من الطعام لا يحضره على هذا النحو غيره، لاني انا التي علمته اياه وقد ابتدعته ابتداعاً لم يسبقني اليه احد ولم يتعلمه مني احد!

فقال الوزير شمس الدين مستشبراً:

- اواثقة انت مما تقولين؟

- كل الثقة.

- هل تعتقدين بان هذا الطاهي هو ابنك؟

- ليس عندي في ذلك ريب.

فهتف وهو يتنفس الصعداء:

ــ شكراً لك يا رباه على هذه المصادفة العجيبة التي هدتنا إلى حبيبنا الذي نبحث عنه!

وصرخ الفتى عجيب:

- اهو ابي يا جداه؟ هل تقولان أن هذا الطاهي ابي؟ والله انه لهو ما في ذلك ريب، فقد وقعت محبته في قلبي مذ رأيته ولا ادري ما الذي جذبني اليه.. اما هو فقد احبني اعظم الحب وكبده ذلك اعظم العناء، اذ تبعنا في المرة الماضية إلى مضاربنا فرميته بحجر ادمى جبينه..

والتفت إلى الخادم الاسود هاتفاً بتأثر شديد:

- اتسمع يا مسعود.. انه ابي.. ومع ذلك فقد ضربته بالحجر على رأسه فشجّه.. الا شلت يدي من يد اثيمة.. هيا بنا نمضي اليه ونعتذرمنه.. اني اريد أن اعانقه واقبل يديه وابللهما بدموعي.. فلطالما تشوقت إلى هذه الساعة!

فقال الوزير شمس الدين مهدئاً حفيده:

- تريث قليلاً يا ولدي.. فاني اخشى الا يكون اباك.. وان يعرف بقصتنا فيزعم أنه هو.. فيضللنا ويمكر بنا.. لقد انتظرت دهراً طويلاً فانتظر بضعة ايام ريثما اتحقق من امره بنفسي.

القبض على الطاهي

ونادى الوزير رجاله فقال لهم:

- ليمض عشرون رجلاً منكم إلى دكان الطاهي الذي يرشدكم اليه العبد مسعود، فيهدموها ويقبضوا على صاحبها ويبقوه موثقاً بينهم من غير أن يصيبوه باذى حتى احضر اليهم.

ثم سار إلى قصر الحاكم، واطلعه على رسالة السلطان، فقال له:

ــ وهل وجدت الرجل الذي تبحث عنه؟

فقال: نعم، وجدته في هذه المدينة.

فارسل معه نفراً من شرطته قائلاً لهم:



ـ اذهبوا مع ضيفنا الوزير شمس الدين إلى السوق وسلموه الرجل الذي يدلكم عليه.

فذهب رجال الشرطة معه إلى دكان الطاهي، فوجدوا رجال الوزير قد سبقوهم اليها فقلبوا عاليها سافلها، واوثقوا صاحبها، وجلسوا في انتظار سيدهم، فلما رأوه هرعوا إليه قائلين:

ـ هذا هو غريمك!

وقال الطاهي متضرعاً إليه:

ـ يا سيدي ما هو الذنب الذي اقترفته، وأية اساءة اسأت إليك؟

فالقى إليه نظرة فاحصة وسأله:

ـ هل انت الذي طبخت حب الرمان؟

فاجاب متعجباً:

ـ نعم.. فهل وجدتم فيه شيئاً يوجب ضرب العنق؟

فقال الوزير بجد:

ـ هذا اقل جزائك!

وأمر رجال الشرطة بأن يسيروا به إلى خيامه، وما كادوا يصلون إلى هناك، حتى اهاب برجاله إلى الاستعداد للرحيل، واشار إلى بعضهم فوضعوا الطاهي في صندوق واقفلوا عليه.. ثم ساروا شطر القاهرة، فلما كان الليل نزلوا فأكلوا واستراحوا قليلاً، وأخرجوا الطاهي فأطعموه وأعادوه إلى الصندوق، وواصلوا سفرهم إلى مصر.

وما زالوا كذلك حتى بلغوا تخوم مصر، فأخرج الوزير الطاهي من الصندوق وقال له:

ـ هل انت الذي طبخ حب الرمان؟

فازداد عجب حسن البصري وقال:

ـ نعم يا سيدي.

فقال الوزير:

ـ قيدوه!..

فقيدوه واعادوه إلى الصندوق.

من اجل الفلفل!

وتابعوا طريقهم حتى بلغوا مدينة القاهرة، فنزلوا في ضواحيها، وامر الوزير باخراج الطاهي واحضار نجّار، فجاء رجاله بالطاهي والنجّار إلى بين يديه، فقال للنجّار:



ـ اصنع لهذا الرجل علبة من خشب..

فعجب حسن البصري وقال له:

ـ وما تصنع بها؟

فقال الوزير جاداً:

ـ اشنقك عليها واسمّرك على العلبة ثم اطوف بك المدينة كلها..

فقال دهشاً مرتعداً:

ـ ولم تفعل بي ذلك؟

فقال الوزير منتهراً:

ـ على سوء طعامك الذي طهيته وارسلته الينا، فقد كان ينقصه الفلفل..

فظن حسن البصري أن مخاطبه مجنون، وقال له:

ـ أمن اجل الفلفل تصنع بي هذا كله.. الم يكفني انكم خربتم حانوتي وحبستموني في الصندوق وحرمتموني الطعام الا مرة واحدة في اليوم.. فانتم تريدون فوق ذلك شنقي، وكل ذلك من اجل الفلفل!

فقال له الوزير بغضب:

ـ ما جزاؤك الا القتل!

فقال حسن البصري متوسلاً:

ـ يا سيدي اعف عني.. وعليّ يمين الله أن اجعل الفلفل في طعامي بعد الان اضعافاً مضاعفة!

فقال الوزير باصرار:

ـ لا بد من شنقك!

وكان النجار يصنع خلال ذلك الخشبة التي طلبت منه، والطاهي ينظر اليه ذاهلاً مذعوراً.. فقال له الوزير:

ـ لقد انقذك هبوط الليل، ولكن اذا كان الغد شنقتك منذ انبثاق الصبح..

فأخذوه والقوه في الصندوق.. ولما ايقن الوزير بانه قد رقد حمل الصندوق على جواده ودخل به المدينة، وقال لابنته سيدة الحسن:

ـ لقد جمع الله شملك بابن عمك.. فافتحي الغرفة التي نام فيها ودعي كل شيء كما تركناه يومئذٍ.. وضعي ثيابه حيث وضعها.. واوقدي الشموع كأنك ما تزالين في ليلة العرس.. فاذا دخل عليك فقولي له:

ـ لقد ابطأت في رجوعك..

وتحدثي معه كأنه لم يفارقك الا ساعة او بعض ساعة.. لنتحقق من امره ونتثبت من انه ابن عمك!

ثم اخرجه من الصندوق برفق، وفك القيود من رجليه ويديه، وخلع عنه ثيابه تاركاً اياه في غلالة رقيقة، ووضعه في رواق القصر، وتركه نائماً هناك وتوارى عنه..

العودة إلى ليلة العرس

ولم يمض الا وقت قليل من الوقت حتى افاق حسن البصري فوجد نفسه في رواق منير، فحسب انه يحلم، ونهض فسار قليلاً واذا به في البيت الذي عقد له فيه على سيدة الحسن، وأطل على مخدع العروس، فاذا بها مستلقية حيث كانت تلك الليلة، ووجد كل ما في الغرفة على حاله لم يتغير، ورأى ثيابه في المكان الذي وضعها فيه، فبهت وتردد في الدخول، وطفق يتساءل: احالم انا ام يقظان؟

ومسح جبينه وقد تفصد عرقاً؛ وهو يقول لنفسه ذاهلاً:

ـ لقد كنت منذ لحظات مقيداً في صندوق مغلق، وها انا الآن في مخدع سيدة الحسن كما تركته ليلة العرس منذ بضعة عشر عاماً.. فهل عاد الزمان القهقري.. ام انني في حلم.. ام تراني جننت؟!

واذا بسيدة الحسن تناديه من سريرها وقد عرفته:

ـ يا سيدي.. الا تدخل فانك قد ابطأت!

فلما سمع كلامها ضحك وقال:

ـ لا ريب انني في حلم!

ودخل حائراً مضطرباً.. فلم يكد يفحص ثيابه ويجد كيسه وفيه الالف دينار حتى تعاظم شكه وحيرته.. واذا بسيدة الحسن تناديه قائلة:

ـ ما لك تتعجب وتبهت على غير عهدي بك في اول الليل؟

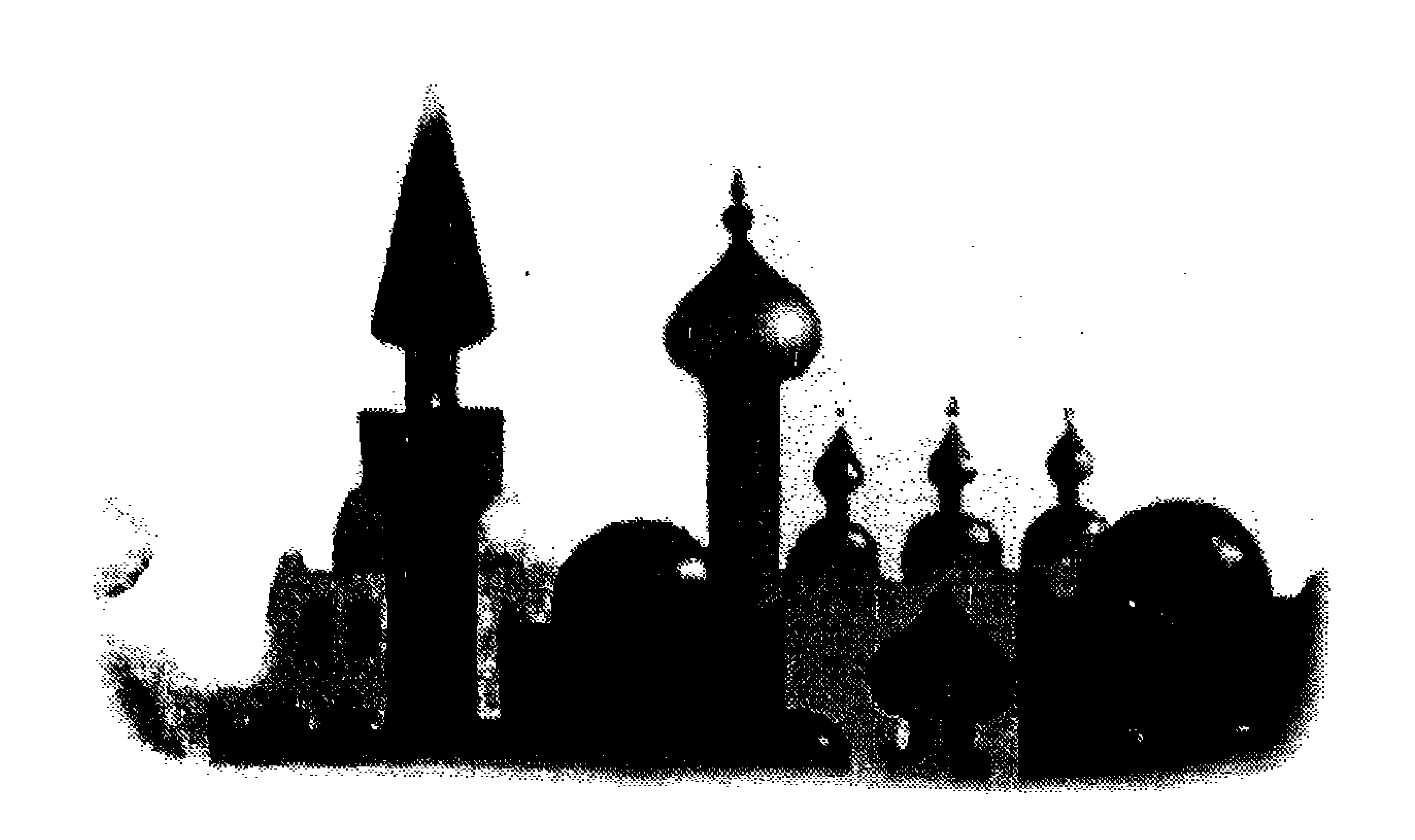
فضحك وقال وهو لا يصدق اذنيه وعينيه:

ـ كم انقضى من الوقت على غيابي عنك؟

فقالت مبتسمة:

ـ نصف ساعة.. لقد خرجت لتغسل يديك وتعود.. فابطأت في عودتك حتى ضجرت وكدت استسلم إلى الرقاد لولا اني رأيتك مقبلاً وانت تقدم رجلاً وتؤخر اخرى، وقد بدت عليك امارات القلق والاضطراب..





يقظة ام حلم؟

فاسترسل حسن البصري في الضحك وقال:

ـ صدقت.. ولكني لما خرجت من عندك حلمت باني ذهبت إلى دمشق واصبحت طاهياً فيها، ولبثت على ذلك نيفاً وعشر سنين، ثم جاءني فتى من اولاد الامراء ومعه خادم اسود..

ولمس جبينه فرای فيه اثر الجرح فقال:

ـ يا سيدتي.. لكأن ذلك حقيقة لا حلماً من نسج الخيال.. لان الفتى قد ضربني على جبيني فشجه وهذا اثر الجرح ما زال بادياً فيه..

وتولته الحيرة مرة اخرى وقال:

ـ كأني ارى اني طبخت حب رمان قليل الفلفل..

وانتبه إلى سيدة الحسن وهي تنظر اليه متصنعة الدهشة، فضحك باستحياء وقال:

ـ والله ما كأني الا قد نمت ورأيت هذا كله في المنام..

فقالت متظاهرة بالفضول:

ـ بالله عليك.. ماذا رأيت ايضاً؟

فقال وقد استغرقه الذهول:

ـ لولا اني انتبهت من نومي لشنقت وسمرت على لعبة من خشب!

فقالت: لماذا؟

فقال: لقلة الفلفل في حب الرمان!

قالت: امن اجل هذا الشيء اليسير تشنق وتصلب؟

قال: نعم والله.. لقد خربوا دكاني وحطموا صحوني، وكبلوني بالقيود، ووضعوني في صندوق، وحملوني من الشام إلى حيث لا ادري، ثم ارادوا شنقي وصلبي.. وكل ذلك من اجل الفلفل!

فضحكت سيدة الحسن حتى استلقت على ظهرها، وقالت تقلده مداعبة اياه:

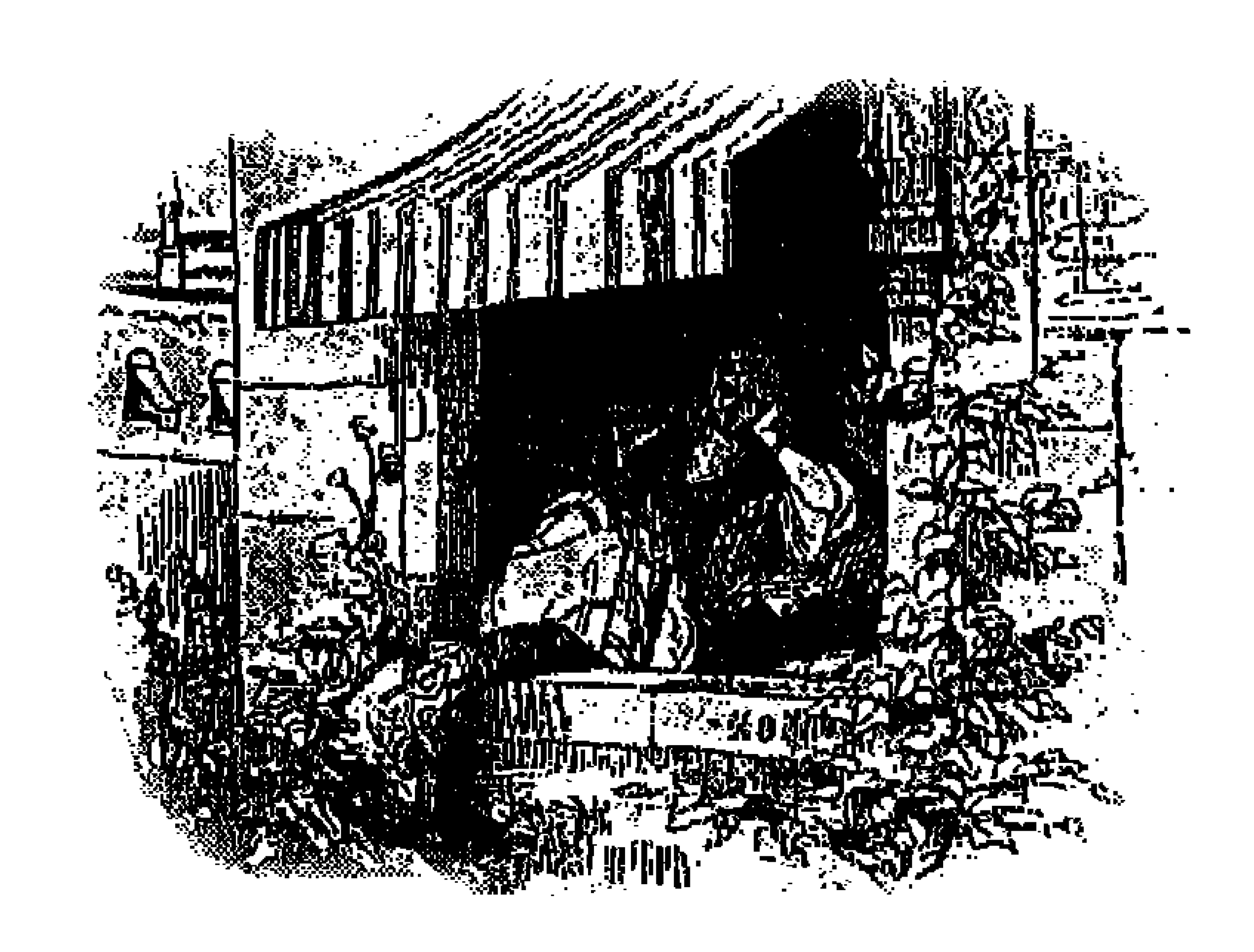
ـ وكل ذلك من اجل الفلفل!

فتولاه الخجل مما يقول وتمتم موهماً نفسه بان ما جري لم يكن الا اضغاث احلام:

ـ الحمد الله على ان ذلك قد جرى في المنام وليس في اليقظة..

المشنقة تلاحقني

غير انه لم يكد يستقر في مجلسه حتى ساورته الشكوك من جديد، فقضى ليلته وهو حائر في امره تارة يقول: اني حلمت! وتارة يقول: لقد كنت في اليقظة! ويلمس اثر الجرح الباقي على جبينه.



ولما تنبه الصبح، دخل عليه عمه شمس الدين، فهرعت نحوه سيدة الحسن مشرقة مهللة، وقالت لزوجها:

ـ هذا ابي يا ابن عمي، وهو خير الآباء!

ثم قالت لابيها:

ـ وهذا زوجي يا ابتاه، وهو خير الازواج!

فنظر اليه حسن البصري وارتدّ عنه مذعوراً، فهتفت به سيدة الحسن:

ـ ماذا بك.. الا تحب ابي.. مالك ترتعد منه؟

فصرخ بها غاضباً متوسلاً:

ـ اخرجيه من هنا بربك.. فهو الرجل



الذي اراد شنقي وصلبي.. وقد انذرني بقتلي في الصباح.. وها هو آت لتنفيذ ذلك. ان المشنقة تلاحقني إلى هذا المكان.

وجرى يريد الهرب، فلحق به الوزير شمس الدين صارخاً:

ـ لا تهرب.. اياك ان تهرب ثانية.

فقال حسن البصري لزوجته وهي تنظر اليهما ضاحكة مغرقة في الضحك:

ـ الا ترين كيف يلحق بي ليقلتني؟.. اما سمعت انذاره اياي؟.. فما بالك تضحكين كأن الامر لا يعنيك في شيء؟..

فجرت سيدة الحسن وراء ابيها وامسكت به وقالت له:

ـ امن اجل الفلفل تريد ان تقتل زوجي وتصلبه؟

فقال بعطف وحنان:

ـ بل من اجلك انت!



فصرخ حسن البصري متعجباً:

ـ امن اجلها تريد قتلي..

فقال لائماً معاتباً:

ـ اجل.. لانك فارقتها ليلة عرسها وهجرتها هذه السنين الطوال!

فانتبة حسن البصري وقال:

ـ لم اكن حالماً اذن.. نعم لقد فارقتها صباح العرس.. ولكني لا ادري كيف حدث ذلك.. ولا ريب في ان الجني الذي حملني من البصرة إلى هنا، قد حملني من هنا ثانية ووضعني على ابواب دمشق.. ولكن اي جني اعادني إلى هذا الفردوس من جديد؟

فاشار شمس الدين إلى الفتى عجيب وقد اطل من باب الغرفة، وقال:

ـ ان هذا الجني هو الذي حملنا على البحث عنك، ثم كان السبب في عثورنا عليك.

فنظر حسن البصري إلى حيث اشار وقال:

ـ هذا هو الفتى الذي شج رأسي بالحجر جزاء لي على حبي له واكرامي اياه..

فهتف الفتى وهو يجري نحوه:

ـ نعم يا ابتاه.. هذا هو ابنك العاق!

فعجب حسن البصري من قوله، واخذ يعانقه، بينما كان الوزير شمس الدين يفسر له كل ما غمض عليه، ويخبره بكل ما جرى منذ ليلة العرس، فادرك سر الجاذب الخفي الذي عقد قلبه على محبة الفتى منذ وقعت عينه عليه، وعانقه عناقاً حاراً مؤثراً، وانشد ودموع الفرح تطفر من عينيه:

ولقد بكيت على تفرق شملنا

زمناً، وفاض الدمع من اجفاني

ونذرت ان عاد الزمان يلمنا

ما عدت اذكر فرقة بلساني

هجم السرور عليّ حتى انه

من فرط ما قد سرني ابكاني

ثم انتبه لغياب والدته فقال:

ـ ولكن اين امي التي قلتم انها اقبلت معكم؟

فخرجت امه من وراء ستار كانت قد اختفت خلفه، وهرعت اليه تعانقه باكية منشدة:

الدهر اقسم لا يزال مكدري

حنثت يمينك يا زمان فكفّر

وهكذا ابتسمت الحياة لهذه الاسرة بعد عبوس، وتجمع شملها بعد شتات، فعاشت في ظلال وارفة من الحب المتبادل والنعيم المقيم.

نديم السلطان

واصطحب الوزير شمس الدين يوماً ابن اخيه حسن البصري إلى قصر السلطان،وعرفه به، وقص عليه كل ما وقع له، فعجب مما لاقاه افراد هذه الاسرة من شدائد، وما تعرضوا له من اهوال جسام، وحمد النهاية السارة التي انتهوا اليها، واراد امتحان حسن البصري ليعرف مقدرته ويسبر غوره، فسأله اسئلة تاريخية وعلمية عديدة اجابه عليها بالراي السديد والجواب المحكم والاحاطة الشاملة...

ثم انشأ يمازحه فسأله:

ـ الك علم بتفصيل الحسن؟

فقال: نعم.. الصباحة في الوجه، والوضاءة في البشرة، والجمال في الانف، والحلاوة في العينين، والملاحة في الفم، والظرف في اللسان، والرشاقة





في القد، واللباقة في الشمائل، وكمال الحسن الشعر.. وقد جمع هذا كله في هذه الابيات:

صباحة للوجه قل والبشرة

لها وضاءةفكن ذا تبصرة

وبالجمال الانف حقاً يوصف

وبالحلاوة العيون تعرف

نعم، وقالوا للفم الملاحة

فافهمه عني لاعدمت الراحة

والظرف في اللسان، والرشاقة

للقد، والشمائل اللباقة

ثم كمال الحسن قالوا في الشعر

فاصغ إلى نظمي وكن ممن عذر

فضحك السلطان وطرب، وقال له:

- فما معنى قولهم في المثل: شريح ادهى من ثعلب!

فقال: ان شريحاً خرج ايام الطاعون إلى النجف، وكان اذا قام يصلي جاء ثعلب فوقف إلى جانبه واخذ يحاكيه، فيشغله عن صلاته ولا يستطيع ان يقطعها للقبض عليه. فلما تكرر فعل الثعلب، نزع شريح قميصه يوماً فجعله على قصبة، واخرج منها كميّه، وجعل عمامته عليها، وشد وسطها، ونصبها في محل صلاته.. فاقبل الثعلب على عادته فوقف بازاء القصبة وهو يظنها شريحاً، فاتاه هذا من خلفه فقبض عليه، فضرب ذلك المثل!

فسر السلطان وقال له:

- هل تنظم الشعر؟

فاجابه بقصيدة ارتجلها في مدحه قال فيها:

لي همام قد سما اوج العلى

وهو في نهج الكرام الغرّسالك

امّن الاقطار طراً عدله

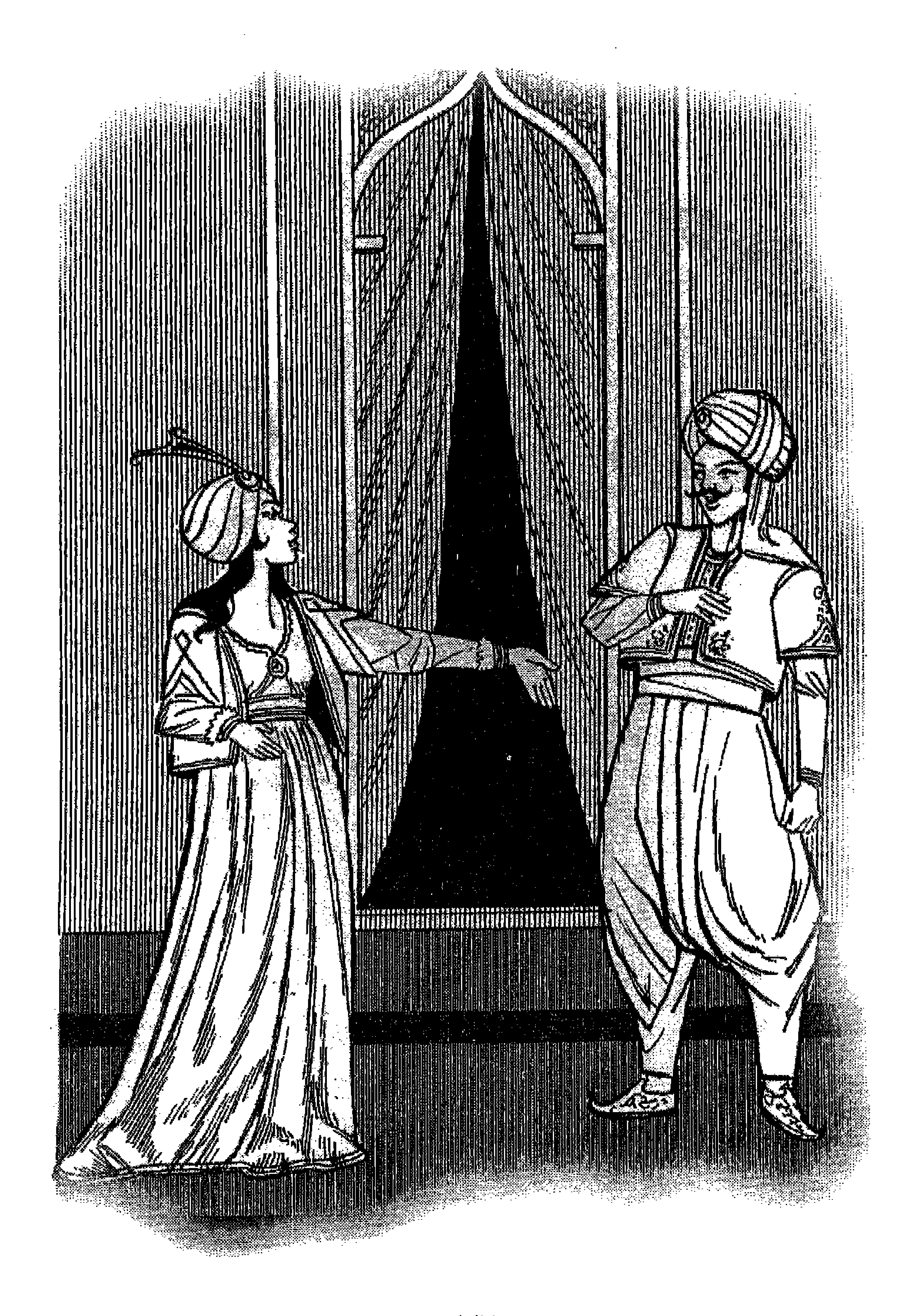
وعلى اعدائه سد المسالك

وهو صبح مسفر يوم العطا

وهو في يوم الوغى كالليل حالك

قلد الاعناق منا جوده

وهو بالاحسان للاحرار مالك



طوّل الله لنا في عمره

ووقاه شر احداث المهالك

فاثنى عليه السلطان ثناءً عظيماً، وجعله نديماً له، واغدق عليه خيراته ونعمه، فعاش مع اهله في ارغد عيش.

وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح...

فنظر اليها الملك دهشاً وقال بلهفة:

- ما لك قد التزمت الصمت، الا تروين لنا قصة اخرى؟

وتململت دنيازاد مشوقة متلهفة، ولكن شهرزاد ظلت صامتة لا تنبس ببنت شفة..

وتلاقت نظرات شهريار ودنيا زاد المتسائلة، وانفجرا ضاحكين..

فقالت شهرزاد وقد اطلت من النافذة على الدنيا وهي تخلع عنها ثوب الليل القاتم:

- اما ترى يد الفجر الوردية قد محت سواد الليل، ونهض الصبح مبدداً الظلام كما يبدد الامل المشرق دياجير اليأس، مهيباً بالراقدين إلى اليقظة والعمل، فهل نظل نلهو ونسمر والناس يجدون ويعملون؟.. إلى الليلة المقبلة ان شاء الله يا ملك الزمان؟ فساروي لك اعجب القصص واغربها..

فاستوت دنيازاد في جلستها وقد تالق وجهها، وتراقص البشر في عينيها، وقال الملك شهريار:

اذن فإلى ليلة غد أن شاء الله، لنستمع إلى حكاياتك الخالدة!



الفهرس

حكايات الكتاب الثاني

السندباد البحري

